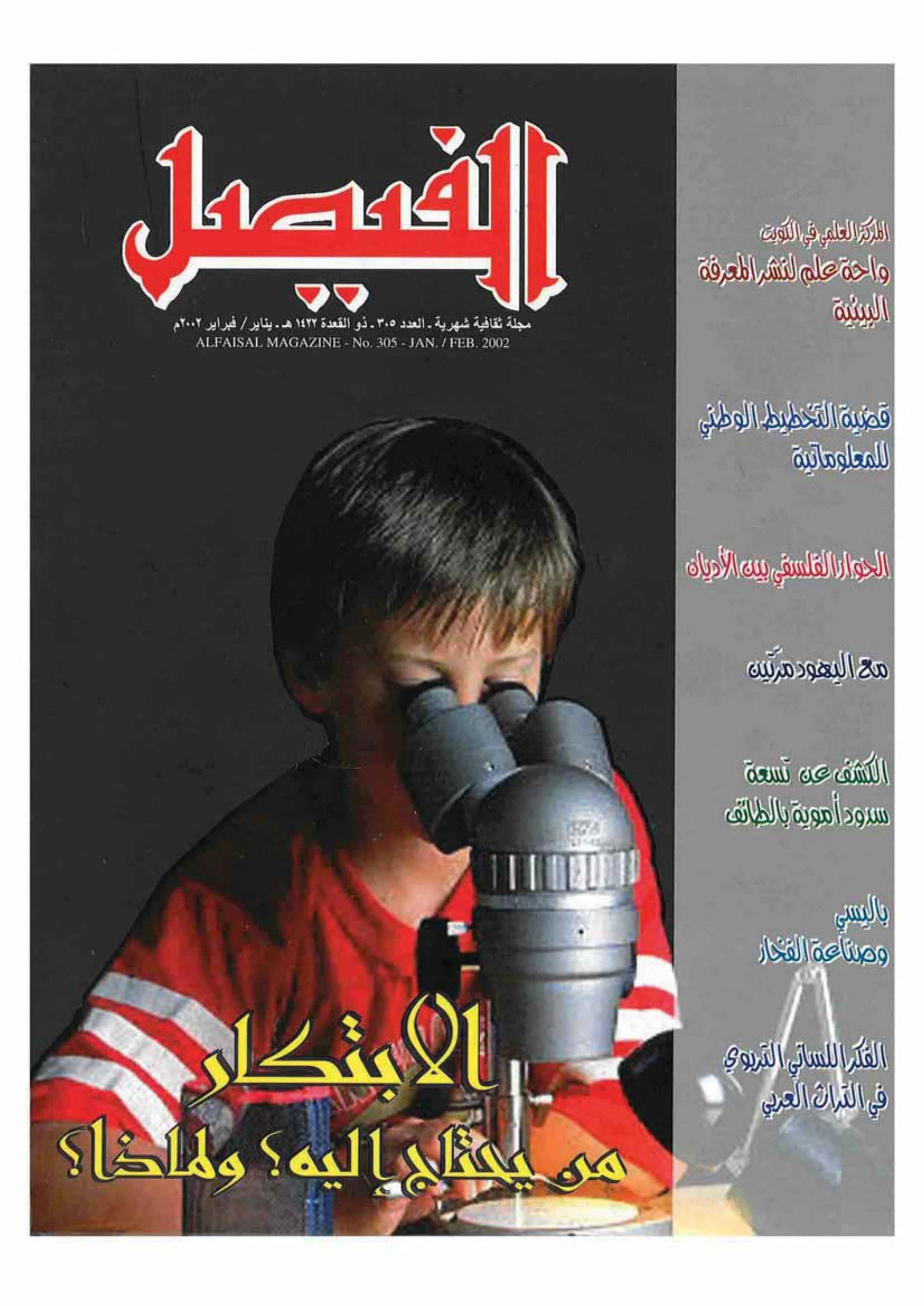


الفيصل
مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٠٥ - ذو القعدة ١٤٢٢ هـ - يناير / فبراير ٢٠٠٢م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 305 - JAN. / FEB. 2002
المركز العلمي في الكويت
واحة علم لنشر المعرفة البيئية
قضية التخطيط الوطني للمعلوماتية
الحوار الفلسفي بين الأديان
مع اليهود مرتين
الكشف عن تسعة سدود أموية بالطائف
باليسي وصناعة الفخار
الفكر اللساني التربوي في التراث العربي
الابتكار
من يحتاج إليه؟ ولماذا؟



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

رسائلكم ٤

استطلاع

المركز العلمي في الكويت: واحة علم لنشر المعرفة البيئية — فاضل السباعي — ٦

قضايا معاصرة

قضية التخطيط الوطني للمعلوماتية — سعد علي الحاج بكري — ١٣

الحوار الفلسفي بين الأديان بدلاً من صراع الحضارات — أنس كارينتش — ٢٠

مع اليهود مرتين — بشير العيسوي — ٢٩

الكشف عن تسعة سدود أموية بالطائف — حماد بن حامد السالمي — ٣٧

فنون

باليسي وصناعة الفخار — ترجمة: حاتم أمين أحمد الجمل — ٤٦

تربية

من يحتاج إلى الابتكار؟ ولماذا؟ — أنور طاهر رضا — ٥١

لغة

الفكر اللساني التربوي في التراث العربي: مقدمة ابن خلدون نموذجًا — محمد صاري — ٦٥

أدب

الصورة الفنية وجمالية الإيحاء — عبدالقادر دامخي — ٧١

المسابقة ٧٩

علوم

التنظيم الاجتماعي والسلوك التكاثري لمجتمعات القرود — أحمد إبراهيم البوق — ٨١

إطلاق المرصد الفضائي الأوربي بالأشعة السينية وصوره الأولى — سليمان قيس القرطاس — ٨٧

قصائد

الرياض البكر — يحيى بن صديق يحيى حكمي — ٩٥

السنونو والشاعر — نذير العظمة — ٩٦

رثاء مالك — متمم بن نويرة — ٩٨

نص

غزالة النحاس — فوزية العلوي — ٩٩

قصة قصيرة

يومًا ما: هنري لوسون — ترجمة: يوسف عبدالعزيز — ١٠٢

ردود وتعقيبات

إمارات إسلامية في مدغشقر — ممدوح الشيخ — ١٠٤

تصويبات واستدراكات حديثية — محمد نجيب لطفي — ١٠٦

قراءات

الميثولوجيا الإغريقية في المسرح العربي المعاصر — مراجعة: يوسف الطالبي — ١٠٨

ترجمة عرار لرباعيات عمر الخيام — مراجعة: جعفر العقيلي — ١١١

أعلام

جروتوفسكي وفلسفة التحدي — محمد مصطفى المصري — ١١٤

الملف الثقافي ١٢١

مـجلة ثقـافـيـة شـهـريـة ـ العـدد ٣٠٥ ـ ذو القـعـدة ١٤٢٢ هـ ـ يناير / فـبـراير ٢٠٠٢م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 305 -JAN. / FEB. 2002

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- تأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل النشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

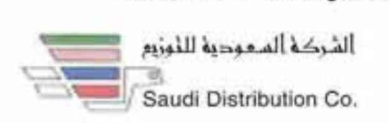
الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

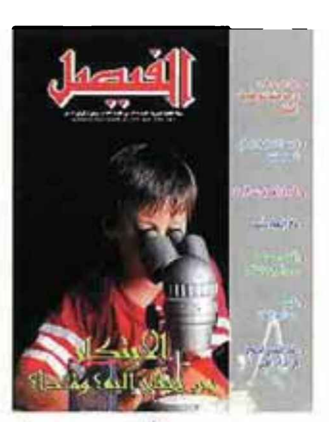
السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ ديناراً ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ ديناراً ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة السعودية للتوزيع ـ هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢... سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١. ٩٦٣... تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ فاكس ٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ١ ـ ٢١٦... قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٩٧٤... الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦ ـ ٩٦٢... البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٩٧٣... الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٩٧١... الجزائر ـ مؤسسة E.B.D PRESSE لتوزيع الصحافة، ت ٤٨٦١٥٥٥ فاكس ٤٨٦٢٤١٥ ـ ٢١٣... الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٩٦٥... السودان شركة النحوي للتجارة والتوزيع ص.ب ١٠٣٧١ ت: ٧٧١٥٤٧/٤٧ فاكس ٧٧٤٣٣٦، المغرب SOCHPRESS - CASABLANCA - TEL:2400223, Fax:00212-2404041/32 - MOROCCO، باكستان PAKISTAN
PARADIS BOOKS & DISTRIBUTORS- KARACHI 75400, TEL:4314981/2 FAX: 0092-21-4554410.
الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢١٨٦١٥ ـ ٣ ـ ٩٦٧ فاكس ٢٢٢٣٢٨



مطابع هلا
٤٨٢١٣١٣



من يحتاج إلى الابتكار؟ ولماذا؟

الابتكار ضرورة من ضرورات الحياة، وهو العامل المشترك بين الإبداع والكشف والاختراع، ولكون الفرد نواة المجتمع، فإن تنمية الابتكار لديه تمثل رصيداً للمجتمع الذي يتجدد بفضل تميز عطاء المبدعين والمبتكرين. وتنظيم براءات الاختراع من وسائل تشجيع المبتكرين والمخترعين، وحمايتهم من المدعين. كما أن من المهم النظر في مستويات النظام التربوي، ومدى مواكبته لما يشهده العالم من تطور مطرد، إلى جانب تقويم القطاع الصناعي، ووسائل الإعلام، ومؤسسات المجتمع الأخرى حتى تتفاعل من أجل أن يكون الابتكار جزءاً أصيلاً من نسيج هذا المجتمع.

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ ـ
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ ـ ٠٢٥٨

فرسان.. الموقع والانتماء

التحية العطرة إلى الأستاذ أحمد إبراهيم البوق صاحب استطلاع «أرخبيل فرسان» الصادر بالعدد ٢٩٨ الذي أردت أن أسجل ملاحظة حول استطلاعه المصور. فأقول: إن الذي يطالع الموضوع لا تتبين له تبعية «فرسان» لأي منطقة وحتى لأي دولة!!

وبحكم معرفتي الواسعة للمملكة - مدناً وقرى وهجراً - فإنه وعند ملاحظتي للعنوان الذي يدور حوله الاستطلاع فرحت لمعرفة الجديد في هذا الجزء الغالي من جنوب المملكة العربية السعودية الواقع بمنطقة جازان، والكاتب لم يذكر (جازان)، ولا (المملكة) إلا مرتين ومن بعيد فقط!!

فحقيقة تطرق الكاتب إلى وقوع فرسان بالبحر الأحمر، وذكر أنه يبعد بمسافة كذا عن جازان قال: «ويتسع في الجنوب أمام شواطئ جازان حيث يقع أرخبيل فرسان» وكتب في مكان آخر «معاهدة بون التي انضمت إليها المملكة». فحسب. ففي الأول لعل كثيراً من القراء - غير السعوديين - لا يعرفون جازان. والكاتب لم يضع النقاط على الحروف، كما يقال، فلم ينسب فرسان إلى جازان، فقال حيث يقع أرخبيل فرسان، هل قبالة شواطئ جازان؟ أم أين ذلك؟ أما عن كلمة المملكة! فهي تبقى ناقصة، ولم لا تكون هكذا «المملكة العربية السعودية»؟

هذا ما أردت أن أشير إليه خاصة أن المجلة تنتشر في رقعة واسعة من دول العالم، فكلما كان التدقيق في المعلومات كانت الرؤية أوضح لدى القارئ. وقد أحسن تحديداً للمكان صاحب الاستطلاع المنشور بالعدد ٢٩٩ الأستاذ عبدالله عبدالعزيز الضويحي وهو يحدد موقع «مرات» فقال في أول كلامه: «تقع مرات في وسط المملكة العربية السعودية.. تقريباً بالمنطقة الوسطى في منطقة الوشم بنجد...» فحدد انتماءها للمنطقة والدولة معاً.

وأخيراً أستسمح الأستاذ الأخ أحمد البوق عن هذا التعليق الذي أتمنى أن يقوي أواصر الأخوة بين الكاتب والقارئ أكثر فأكثر، وأنا شاكر له على غوصه الجيد في أعماق فرسان وجولته بنا هناك.

بياز عبدالرزاق
ص.ب ٤٠٧ عين وسارة ١٧٢٠٠
ولاية الجلفة - الجزائر

التحرير:

نشكر لك ملاحظتك القيمة، وهي جديرة بالاهتمام، ومع ذلك لا يفوت على فطنة القارئ أن الاستطلاع عن منطقة في المملكة العربية السعودية، فبالإضافة إلى الإشارة إلى المملكة وجازان من بعيد كما تقول، هناك إشارات إلى الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية وإنمائها ومقرها الرياض، والمركز الوطني لأبحاث الحياة الفطرية ومقره الطائف، إلى جانب عنواني معدي الاستطلاع كتابة وتصويراً، بل إن الإشارة المجردة إلى المملكة في هذه المنطقة الموصوفة في الاستطلاع تعني المملكة العربية السعودية.

ملاحظة

نبارك لكم هذه المجلة الغراء مجلة الفيصل، المنهل الذي لا ينضب عطاؤه، فهي بحق مجلة عامرة بكل ما يحتاج إليه القارئ من المعلومات والثقافة، فهي مرجع لكل من أراد أن يبحث ويتقصى، فإلى الأمام، ونتمنى لكم مزيداً من التطور والرقي. إلا أن لي ملاحظة وهي تأخر وصول مجلتكم إلينا، ولا ندري ما السبب أهو من عندكم أم من عندنا؟

محمد عبدالله سعودي
حرض - حجة - اليمن

التحرير:

نشكر لك هذا الإطراء، وقد سبق أن أشرنا إلى أن هناك أسباباً للتأخير منها أن هناك ترتيبات جديدة خاصة بالشحن الجوي، ونعمل على تجاوزها بالتنسيق مع جهات الاختصاص، كما أن هناك أسباباً فنية تكون وراء تأخر وصول بعض الأعداد إلى القارئ الكريم.

كلنا أشقاء

إنني من قراء مجلة الفيصل ومن المتابعين لها، وأشترك في المسابقة منذ أكثر من عشر سنوات وقد حالفني الحظ بالفوز في المسابقة مرتين.

قرأت في العدد (٣٠٣) رداً على الأخ الفاضل سمير عوني من اللاذقية قولكم: «كنا نود لو جاءت رسالتكم بشكل اقتراح ألا يكون هناك أكثر من فائز واحد من أي دولة، بمعنى أنه إذا جاءت القرعة في صالح متسابق من الدولة ذاتها تتم إعادتها حتى تتاح الفرص لمتسابقين من دول أخرى، وهذا ما ننظر فيه حالياً»، ومع احترامي الشديد لهذا الاقتراح إلا أنه يظلم بعض المتسابقين - فما ذنب الفائز الذي يتم إلغاء قرعته؟ وهل فوز أكثر من واحد من بلد واحد في المسابقة نفسها يعد تحيزاً؟ لا أظن ذلك، ولكنه الحظ الذي يؤدي دوراً كبيراً في ذلك.

لذا نرجو أن يترك للحظ أن يختار من المتسابقين الذين توصلوا للحلول الصحيحة، حتى

ولو كان كل الفائزين من دولة واحدة.. فلا يوجد فرق بين دولة وأخرى، فكلنا أشقاء عرب يجمعنا حب الفيصل والاشتراك في مسابقتها.

وفقكم الله إلى ما فيه الخير والصلاح. والله يقول الحق وهو يهدي إلى سواء السبيل.

هاشم محمود أحمد محمد
إدفو - مصر

التحرير:

نرحب برأيك، ونحترم كل الآراء التي ترد إلينا بشأن المسابقة، وفي كل الأحوال نتمسك بالحيدة، ولعل فوزكم أكثر من مرة بإحدى جوائز المسابقة دليل على هذه الحيدة.

فهرسة متميزة

مازالت المجلة تتأخر كل شهر، فلقد وصل عدد شعبان ١٤٢٢هـ آخر الشهر.

أشكركم جزيل الشكر على الموضوعات الرائعة والمتنوعة التي تتضمنها المجلة كل شهر - إنها زاد وفر لكل باحث وقارئ ومثقف.

أنا - كبقية القراء - أرغب أن يكون عدد ذي الحجة من كل عام فهرساً لأعداد العام حتى يمكن الرجوع إلى أي معلومة بسهولة، وأرجو أن تكون فهرسة هذا العام متميزة.

أود أن أعرف كيف يمكن الحصول على بعض الأعداد التي أرغب فيها من هذا العام ومن أعوام سابقة.

في الختام.. تقبلوا فائق تحياتي واحترامي..

منصور سليمان عبدالله
ص.ب ٥٥٦٩٩ - تعز - اليمن

التحرير:

هناك عدة عوامل تتسبب - في بعض الأحيان - في تأخر وصول المجلة إلى بعض الدول، ونحاول جاهدين تجاوز هذه العوامل بقدر المستطاع، وإذا حدث تأخر نعتذر للقراء؛ لأن أكثر هذه العوامل خارجة عن إرادتنا.

ونشكر لك ما أبديته من إعجاب بالمجلة، ونأمل أن تكون عند حسن ظن القراء.

وبخصوص الكشاف العام للمجلة، نفيدك أن المجلة دأبت على إصداره في مطلع شهر رجب، ونأمل أن يصدر هذا الكشاف في العام القادم مشتملاً على فهرسة شاملة لأعداد الفيصل كاملة للسنوات الـ ٢٥ الماضية وسوف يصدر هذا الكشاف على قرص مضغوط (سيدي روم) CD ROM.

وللحصول على الأعداد السابقة للمجلة يمكنك مراسلة قسم الاشتراكات بالمجلة وتحديد الأعداد التي تريدها مع إرسال شيك بقيمتها.

ردود سريعة

الأخوان محمد أشرف غلام، حيدر - باكستان، وكمال أبو اليزيد شبارة، كفر الزيات، مصر:

نطمئنكما أن كل الرسائل المتعلقة بالمسابقة تدخل في السحب والقرعة، وإذا لم يكن لكما حظ في الفوز بإحدى الجوائز في الفترة الماضية، فإننا نأمل أن يحالفكما التوفيق في المرات القادمة، ولا نملك لكما ولأصدقائكما إلا الدعاء بالتوفيق، لأن إجراءات القرعة تتم بحيادية تامة بين أصحاب الإجابات الصحيحة.

الأخ نبيل محمد علي حمود - الحسكة - سورية:

نشكر لك هذا الاهتمام والإعجاب بمجلتكم، وما طرحتموه من آراء عما أحرزه أبناء دول الخليج العربي من تقدم في ميادين الإعلام والثقافة والمعرفة، ونأمل لهم ولجميع العرب والمسلمين مزيداً من التقدم في التعريف بحضارتهم العريقة والنهل من معينها من أجل اللحاق بركب العصر، وقد أصبت عندما أشرت إلى ضرورة تفعيل الحوار بين أبناء الأمة من أجل إقامة علاقات متينة بينهم يتجاوزون بها ما يواجهونه من تحد حضاري.

الإخوة كتاب الفيصل: د. ابتسام مرهون الصفار، الأردن، والأستاذ سليمان بن زيد الجربوع، الرياض، وغيرهما ممن لديهم مقالات مجازة وتغيرت عناوينهم:

نأمل منكم موافاتنا بعناوينكم لإرسال مكافآتكم عليها؛ لأن الرسائل التي أرسلت على عناوينكم المدونة في مقالاتكم تمت إعادتها من البريد. ونأمل من جميع الإخوة الكتاب كتابة عناوينهم البريدية بوضوح، مع كتابة أرقام الهواتف إن أمكن ذلك، وفي حالة تغيير العنوان موافاة المجلة بالعنوان الجديد، ويرجى من كتاب المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالأحرف اللاتينية حسب الأوراق الثبوتية التي يستخدمونها لتجاوز أي عوائق قد تواجههم عند تسلم شيكات مكافآتهم.

المركز العلمي في الكويت

واحة علم لنشر المعرفة البيئية

فاضل السباعي
دمشق - سورية

دُعينا، ونحن في ندوة «الثقافة العربية وآفاق النشر الإلكتروني» بالكويت في شهر نيسان/أبريل عام ٢٠٠١م إلى زيارة المركز العلمي. وكان قد حدَّثنا بعض أصدقائنا من العرب المقيمين، أنَّ زيارة القادمين إلى الكويت لهذا الصرح العلمي الفريد الذي تمَّ افتتاحه قبل عام واحد، فرصة لا تفوَّت.

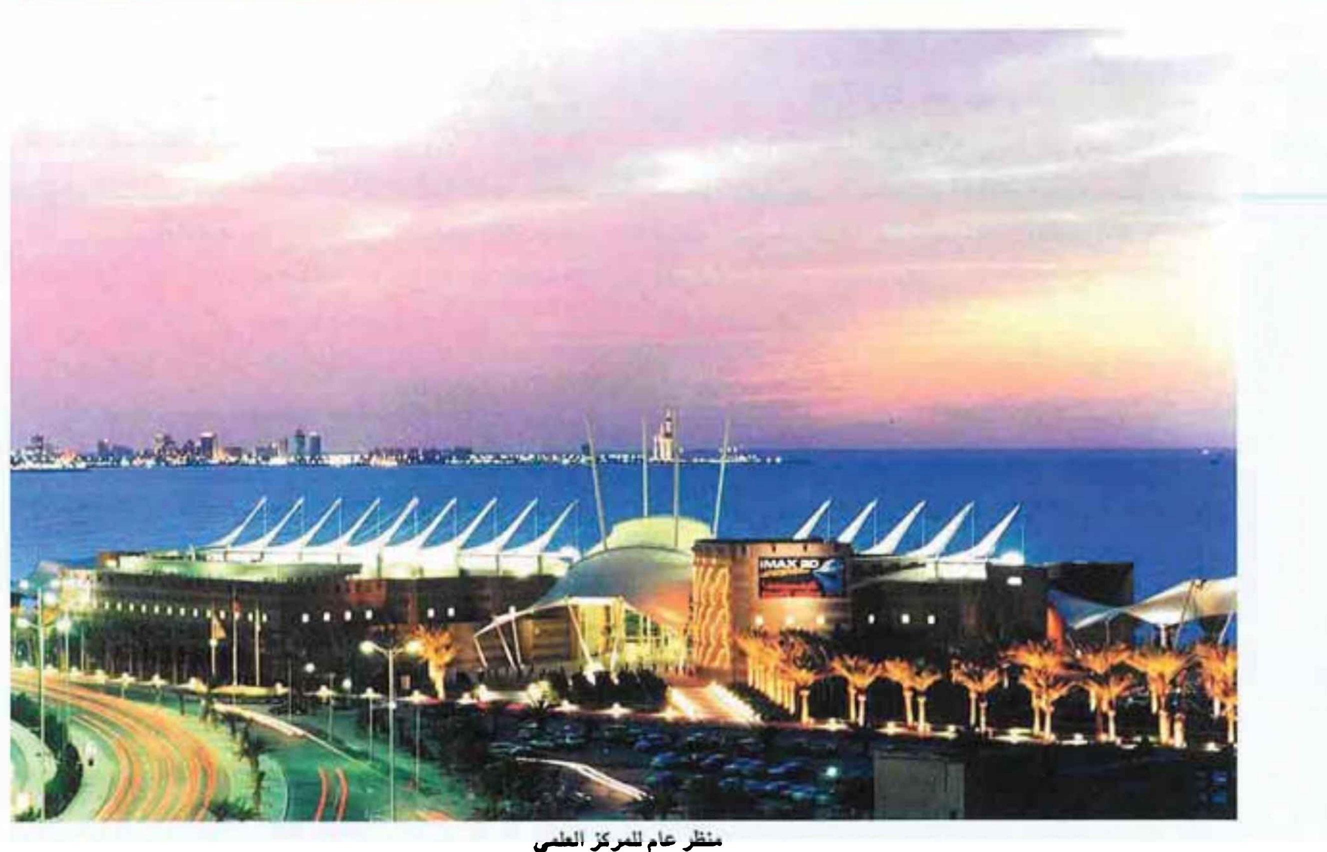
وهكذا توجَّهنا، نحن العشرين من المشاركين في الندوة، ضحى يوم، إلى المركز، تُقلّنا حافلة أنيقة يقودها عبدالقادر (آسيوي مسلم من سيريلانكا!)

زخارف بلون التراب

وفي شهر نيسان هذا، هنالك في بلاد الشام ربيع. ولكن، في الكويت هنا، كان الصيف قد سبق. لمّا نزلنا من الحافلة، في فناء هذا المبنى الذي تتوسطه بركة ذات اتساع، لم نحسّ لفحة حرّ؛ ففي الفناء مظلاتٌ من قماش توفر لنا الظلال. وهناك مظلاتٌ غيرها، جعلوها على شكل أشرعة مراكب، أُقيمت بجوار حقل قد انتظمت فيه، على امتداد الأفق، أشجارُ النخيل، هذه الشجرةُ ذاتُ الثمرة الكثير نفعُها، التي ظهرت في هذه المنطقة عينها، قبل ألوف السنين، ثم انطلقت لتعُم، مع الفتح، الديار الإسلامية، حتى وصلت إلى الأندلس، واستُنبتت، في عصرنا الحديث، في العالم الجديد بولاية كاليفورنيا!

سرنا في الفناء، يُدغدغ وجوهنا الرذاذ، تذروه نافورةُ البركة، فتُضفي علينا طراوة، ومسحنا، بأنظارنا، واجهةَ المبنى، التي تزينها زخارفُ ذات ألوان، أرادوها أن تُحاكي لون التراب، الذي منه كانت تُجبل اللَبِنات عند تشييد بيوت الكويت في سابق أيامها.

اجتزنا المدخل، وفي الردهة رأينا في استقبالنا «زهرة» من المثقفات الكويتيات، إنها «نوريّة»، دليلتنا في تجوالنا داخل هذا المركز، المكتنز بأسرار



منظر عام للمركز العلمي

العلم وخبايا البيئة، وقادتنا إلى الـ «أكواريوم» Aquarium أي: أحواض الأسماك والنباتات، التي شاء منشئو المركز أن يختزلوا الكلمات الثلاث بالمسمّى اللاتيني الشائع في الغرب.

بيئات بحر وساحل وصحراء

وأدخلنا في ممرات، فجعلنا نجوس فيما يُشبه الأنفاق المعتمة، فيها الصُّور المضيئة المتحركة، تحدّثنا عن حيوانات انقرضت أو لا تزال. وشاهدنا في الأحواض الزجاجية المغمورة بالماء، أسماكًا وكائنات حيوانية ممّا يعيش في الخليج العربي، تغوص، تسبح، وتمشي على «اليابسة»، ونباتات، مختلفات الأشكال والألوان، بديعةً، وعجيبة، ونادرة.

ثلاث بيئات، تتعلق بالبحر وبالساحل وبالصحراء. سلاحف، وتماسيح، وثعالب الماء، وعقارب، وطيور، وخفافيش، وبوم، والوشق (حيوان بين القطّ والنمر) ذو الحياء المرهف والجمال، هذا الذي توارى منذ زمن عن بيئته الكويتية الأصيلة.. قد استُخلصت هذه الكائنات كلّها، من المياه الكويتية، ومن شُطآن الخليج وصحاراه، ومن أنحاء شتى في العالم، وجيء بها إلى هنا، بعد أن هيّؤوا لها نظير بيئاتها الطبيعية.. نهضت بهذه المهمّة الدقيقة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، متعاونة مع البيوت العلمية الوطنية والأجنبية.

وتُحدثنا دليلتُنا نوريّة، ملقيةً نورًا على أهداف المركز العلمي الطليعي، بأنه يزوره كثيرٌ من القادمين إلى الكويت، كما يرتاده أبناء الجيل الجديد من الكويتيين يوميًا، ذلك أن أهداف المركز لا تتوقف عند ما يحققه من المتعة العلمية لمرتاديه، ولكنه يتطلّع إلى ما هو أبعد: نشر المعرفة البيئية، وإثارة الاهتمام بالحفاظ على الحياة البرية والبحرية في منطقة الخليج.

في صعودنا المتدرج، وجدنا أنفسنا في الطابق العلوي. وفي جانب من النفق، رأينا فتاةً ظريفة في

مثابتهـا، تحيط بها أحواضٌ صغيرة قد حوت زواحف وحشرات، منها ما دقّ حجمه ورقّ ملمسه، حتى إنّ الفتاة جعلت حشرة من هذه الكائنات الحيّة، صُرْصوراً في كفّها، يمشي ملتفاً حول أناملها، حتى يعتلي ظاهر الكفّ.. وصفته لنا نورية بأنه إفريقي، وآكلٌ للنبات، وأنه ناعم الملمس، وديع، وعرضت أن يحاول أحدنا أخْذه في كفّه، فأحجمنا!

قالت الفتاة، صاحبةُ الصُرصور:

ـ إنه لا يفعل شيئاً. جميل، ووديع. انظروا!

وخلال البهجة التي غمرتنا، تقدّم أحدنا وتناول الصُرصور، غير متقزّز، وأبقاه في كفّه ثواني، قبل أن يردّ الأمانة إلى صاحبتها.

ـ ألم أقل لكم إنه وديع؟!

وسأل أحدنا الفتاة ممازحاً:

ـ وهل تحتضنين في كفّك هذا الصُرصور الجميل، طوال ساعات النهار؟

ضحكت الفتاة:

ـ لا طبعاً. إني أخرجته من حوضه اللحظة، كي أعرضه عليكم نموذجاً.

كبير الأسماك لا يفترس صغارها!

وخرجنا إلى ما يشبه السطيحة. وفي الحوض أمامنا، رأينا بين الأسماك، إحداها ممتدّة طولاً، تدور سابحة في حوضها مسرعة، تدور وتدور، مرة ومرة ومرات.

قال أحد العارفين:

ـ إنها، في سباحتها تتبع خطّاً دائرياً لا تكاد تحيد عنه!

فعلّق آخر:

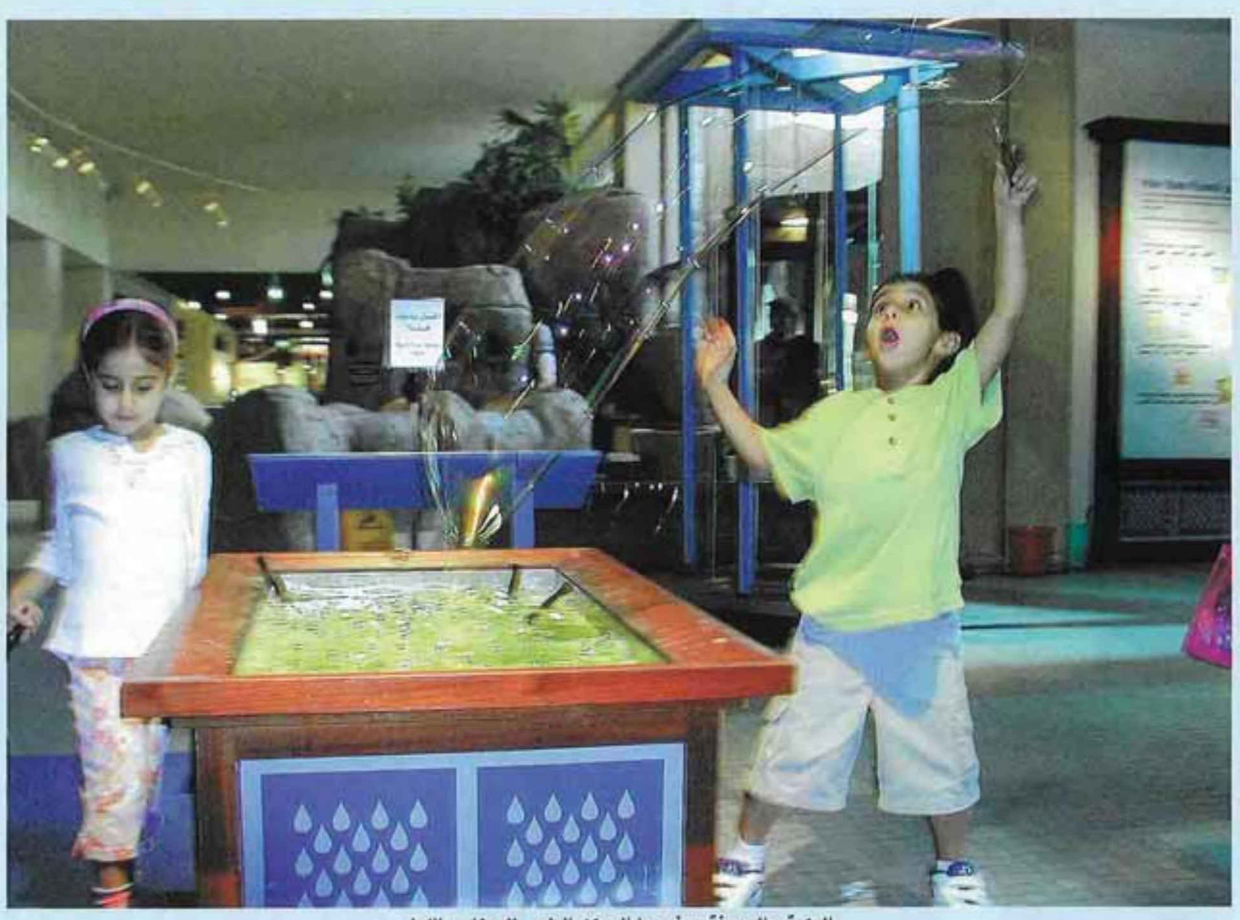
ـ فيا له من «رادار» قد وهبتْها إياه القدرة الإلهية!

ونزلنا درجاً، انتهينا منه إلى حوض ضخم، قد ارتفع في مواجهتنا بمقدار خمس قامات أو ستّ، واجتمعت فيه، على نحو فريد، أسماك القرش مع سُميكات كثيرة العدد بقدر ما هي بديعة التكوين والتلوين. وإنّا لنراها تتعايش، بمودّة صافية، على نحو يفوق تعايش بني البشر في الوطن الواحد، في البلدة الواحدة، في الحيّ الواحد، وهل أقول: وفي الأسرة الواحدة أيضاً؟! وهم قد أسّسوا لهذه المجموعة السمكية المتآلفة، البيئة المواتية في هذا الحوض العملاق، الذي يحتوي على ما يزيد على مليون ليتر ماء!

ولكنّا ـ ونحن جالسون على المقعد الخشبيّ الطويل الموازي طلباً للراحة ـ رأينا جسماً بحجم الإنسان، ساكناً لا يكاد يتحرّك ظننّاه ـ أول وهلة ـ صنفاً من الأسماك الكبيرة الغامضة، فأوشكنا أن نسأل عن نوع هذا الصنف الغريب؟ فلما آن لهذا الجسم أن يتحرك، مستديراً نحونا، وجدنا «فرشاة» معلّقة فيه، أو ممسوكة بيده، ذلك أنه لم يكن إلا «غوّاصاً» من بني البشر، يمارس مهمّته المعتادة، في تنظيف قاع الحوض وجدرانه والصخور الصناعية، ممّا يترسّب عليها من الطحالب!



التجربة خير برهان.. هكذا يعايش الأطفال تقنيات عصرهم



المتعة والمعرفة يوفرهما المركز العلمي للصغار والكبار

وضحكنا من سذاجتنا، أو ممّا أُعدّ لنا بإحكام. وهنا رفع الغوّاص يده بالفرشاة يحيّينا، وكأنه يقول: «تعيشوا وتاكلوا غيرها!».

الشعوب تحنّ إلى قديمها

اعتاد أهل الكويت، منذ القديم، الغوصَ في البحر بحثًا عن الأصداف التي تستكنّ فيها حبّاتُ اللؤلؤ مثلما امتهنوا الإبحارَ في سفنهم الشراعية يجوبون البحار، من الخليج إلى الهند فشرق إفريقية هم وجيرانهم من أهل الخليج على شاطئيه، متحمّلين من المشقّة والمخاطر ما كان قد أمسى جزءاً من حياتهم. وإذا كانت الأحوال قد تبدّلت، منذ سنوات الخمسينيات، باكتشاف النفط، ممّا هيّأ للبحّارة المتعبين فرصًا للعمل داخل الوطن، أغنتْهم عن ركوب البحر والاغتراب في رحلات تُبعدهم عن الأسرة والأهل والوطن، فإنّ الحنين إلى الماضي، الذي يظلّ يفعل في النفوس، قد لَفَتَهم اليوم إلى تلك السفن الشراعية، التي كانوا يعتلون متنها مشرّقين ومغرّبين، وقد ذهب معظمُها إلى عالم الفناء.. فأين البقية الباقية من هذه السفن؟

لم يكن بدٌّ من هذه الكلمة، قبل أن أستأنفَ القول بأننا، بعد أن خرجنا من «الأكواريوم» ممتلئين إعجابًا بما شاهدناه، كان علينا أن نتابع زيارتنا العلمية هذه بأن ندخل دار السينما المسمّاة «آي ماكس I MAX»، لنشاهد عرضًا وُصف بأنه «يفوق الخيال»، ثم نُعرّج على ذلك المرسى الذي تربض فيه بعض السفن الشراعية «المتقاعدة». ولاحظنا أن دخولنا صالة العرض يحتاج إلى استعداد منها، فتحوّلنا إلى المرسى، يقودنا مضيفُنا الدكتور سليمان

العسكري رئيس تحرير «العربي» - الذي كان قد أقبل إلى المركز العلمي في إثرنا - وبجواره دليلتنا الظريفة «نورية».

وقفنا في إطلالة على المرسى، تداعب اهتزازاتُ الماء أمامنا السفينة الشراعية الأكبر حجماً مما بقي «على قيد الحياة» من تلك السفن التي كان يقوم بصنعها الكويتيون، والأكثر شهرةً، والتي تسمّت - يوم نزولها إلى الماء أول مرة في عام ١٩٣٨م - بـ «فتح الخير». وراحت تجوب البحار القريبة (سواحل الخليج وغرب الهند وشرق إفريقية) عشرات السنين، تخلى عنها في ذلك مالكوها واحداً بعد الآخر، إلى أن أوشكت أن تقضي نحبها، لولا أن تعرفها في العقد الأخير من القرن الماضي، وهي راسيةٌ في ميناء بـ «دبي»، كويتيٌ كان قد ملأ الحنين إلى الماضي قلبه، فعمل على استعادتها، وأُدخلت إلى حوض «الإنعاش»، واستُبدل بأعضائها المتداعية أخرى جديدة، قبل أن تستقرّ في مرسى المركز العلمي هذا، بصفتها قطعة أثرية، تُدير الرأس وتُثير الحسّ، وتُغري بالموازنة والمقايسة بين الأمس واليوم.

من «شط العرب» إلى سواحل الهند

لن أتوقف طويلاً عند حكاية هذه السفينة الشراعية «فتح الخير»، فقد رواها لنا، في كتيب جميل الشكل والمضمون، يعقوب يوسف الحجي، الباحث الذي اكتشف وجودها في دبي، واقتادها مقطورة إلى مسقط رأسها في صيف عام ١٩٩٤م. ولكني أحبّ أن أشير إلى إحدى المهن، التي كان الكويتيون يجدُون في ممارستها حتى الأمس القريب، شأنهم في ذلك شأن أهل الشواطئ الخليجية. فعدا الغوص على اللؤلؤ كانوا يتولّون نقل أهمّ منتجات العراق: التمر: يزرع أهلُ شط العرب النخيل أشجاراً، ثمّ يجنون ثمارها التي يشتريها التجّار، وتقوم السفن الشراعية بشحنها إلى شرقٍ وجنوب.

ويروي «الحجي» تفاصيل شائقة عن هذا العمل والسفر: يجتمع «النوخذة» (قبطان السفينة الشراعية)، قبل السفر بأيام، بمن اختارهم من البحارة لرحلته المزمع القيام بها، ويُسلفهم مبالغ من المال يستعينون بها على قضاء حوائجهم. ويوم السفر، وهم في شطّ العرب، يصيح «النّهّام» (بحّار منهم يقوم بمهمّة المنادي)، بصوت شجي، مودّعاً الأهل والأحبة. وتمتلئ السفينة بالتمور معبّأة بأكياسها. وينتظر البحّارة قدوم الليل، وفيه ينعمون



الحنين إلى الماضي متمثلاً في السفن الشراعية

بعشاء طيّب، وبوصلة من الغناء والطرب. «كان شط العرب في تلك الأيام - يقول الكاتب - جنّةً خضراء»، لا تزال صورتها ماثلة في ذاكرة كثير من البحّارة وتجّار الكويت المُعمَّرين. وما إنْ تهبّ رياح الشمال، حتى يُهيب التُّجار ببحّارتهم برفع الأشرعة والإقلاع، والإسراع أيضاً، ذلك أنّ من يصل إلى المرفأ الهدف أولاً، يجد لتمره سوقاً أفضل. وهناك، على طول الساحل الغربي للهند، تتناثر أسواق التمر، من ميناء «كراتشي» إلى «بومباي» نزولاً إلى

«كاليكوت»، حيث يتمّ بيع التمر، وتُفرَّغ السفن، وتُحمَّل أخشاباً إلى الخليج أو قرميداً إلى الساحل الإفريقي... رحلةٌ تستغرق أشهراً، وقد تتضاعف إذا ما توجهت السفينة إلى إفريقية. كان هذا واحداً من الأنشطة ووجهاً من وجوه «التعاون الاقتصادي» بين سكان سواحل الخليج وشطّ العرب، يوم لم تكن هناك حدودٌ بمعنى الكلمة.

بعد أن استمعنا إلى شيء من هذا الشرح، الذي حوى الكتابُ تفاصيله، و«فتح الخير» العتيقة تتمايل فوق صفحة من الماء أمامنا، مختالةً بحلّتها القشيبة



وسائل مختلفة لإيصال المعلومة إلى الأطفال

وشبابها الذي تجدّد قبل عام كامل من يومنا هذا، وقريباً منها سفنٌ أخرى، كانت تستخدم في الغوص على اللؤلؤ طُلب منّا، نحن الزوّار، أن نتجمّع، يتوسّطنا الدكتور العسكري، والتُقطت لنا الصُور التذكارية.

ولاحظنا أن الاستعداد لاستقبالنا في صالة العرض، لمّا يُستكمل بعد.. فوجّهونا إلى محلّ بيع الهدايا الفاخرة، الذي ضم كثيراً من الصور والدُمى والألعاب من كلّ أنحاء العالم، وأشياء فريدة ترتبط بما يعرضه المركز من موضوعات بيئية ومعارف علمية وتراث كويتي، حمل بعضُنا منه «التذكارات»، وإنْ شئت غلّفوا لك مشترياتك تغليف الهدايا، وبعثوا به إلى العنوان الذي تُعيّنه في أيّ بقعة من بقاع الأرض.

واقتحمنا، ونحن في المركبة، الأهوال

أشارت علينا دليلتُنا بأن نصعد الدرج نحو مدخل صالة العرض. وأول ما لاحظناه، ونحن ندلف إلى الصالة من أعلاها، التدرّجُ الشديد في صفوف المقاعد، الذي قارب الانحدار، مما يُتيح للجميع الرؤية الواضحة التامّة.

أُدخلنا في العتمة، وأحداقُنا لمّا تزل متآلفة مع ضوء النهار، فأخذنا نتلمّس المقاعد بأيدينا. وكان التوجيه أن يمضي الأولون حتى منتصف الصفّ. واكتشفتُ أنّ جلستي جاءت مجاورةً للدكتور العسكري.

أنا شخصياً لم أكن متزوداً بمعلومات مسبقة عن سينما «آي ماكس»، سوى ما سمعناه، ونحن في الردهة، من أنه «عرضٌ يفوق الخيال»، وأن الرؤية ستكون «ثلاثية الأبعاد»، ووزّعوا علينا نظارات تحقّق هذه الرؤية، وطمأنونا بأن النظارات تُعقَّم بعد كل استعمال. وكانت الشاشة عملاقة، تُغطي الجدار المواجه كلّه، ارتفاعها خمسة عشر متراً والعرض عشرون. وتوقّعوا، بفنّهم هذا، أن نغرقَ في خضمّ صُورٍ تُضاهي العالم الحقيقي.

قدّموا لنا فلماً من أفلام الإثارة، قطاراً، مركبة - زعموا - أننا نمتطيها. تندفع بنا المركبة، مقتحمة الأهوال، ترتطم، توشك أن ترتطم بأجسام ضخمة، من جبال أو مراكب على الأرض وفي الفضاء، فيتراءى لنا أننا نوشك أن نرتطم، لولا أن تحيد المركبة التي نحن فيها عن نقطة الارتطام، نحسّ خوفاً، تُضاعفه المؤثّرات الصوتية الهائلة التي تملأ الصالة والأسماع والقلوب، ويصرخ كلّ منّا في داخله: قد هلكنا! ثمّ في آخر ثانية، تهبط علينا النجاة!

هل أقول: إنه عرضٌ يُفرح الفتيان، وينعدم الفرحُ به عند الكبار، ويتحوَّل إلى نقيضه عند الشيوخ؟ ولعلهم تعمَّدوا تقديمه أولاً، كي يزداد ابتهاجنا بالفلم الآخر: «رحلة إلى الأعماق».

هذا السمك مثل «العولمة!»

في أعماق البحر صوروا مشاهد هذا الفلم (الذي قالوا: إنه أول فلم ثلاثي الأبعاد يُصور تحت الماء). وإنَّ في أعماق البحار لعوالم عجيبة: غابات، جبالاً، وهاداً، مستوطنات تسكنها أنواع لا تُحصى من الأسماك، تتعايش، تتصارع. «أسد البحر» المرح، «سمك الغاريبالدي» العجيب، أسماك القرش المفترسة، وأسراب «المكريل الإسباني» الضخمة...

بدل المركبة المجنونة التي وضعونا على متنها هناك، جعلونا - هنا - نسبح مع أسراب السمك، المتخذة في سباحتها اتّجاهاً موحداً - تماماً كما تراها تسبح في الفضاء أسرابُ الطيور - وتتحوَّل جميعها، فجأة، لتتخذ اتجاهاً آخر، إلى اليمين، أو اليسار، أو إلى الأمام هنالك، في البُعد، ولكنها عندما تستدير إلى الاتّجاه المعاكس، إلى حيث تتمتع أنت مشاهدتها، فإنه يُخيَّل إليك أنَّ سرب السمك داخل فيك، أو أنك غدوت بين الأسماك تطلب النجاة، فتأتيك لحظة يتحول السرب عنك إلى اتجاه آخر. فتتنفس الصُّعداء، لقد نجوت من الغرق، أو من أن تُلتهم! ولكننا، في خاتمة المطاف، ازددنا حبّاً بأمِّنا الطبيعة.

والشرح، بالعربية المتقنة الصيغة والنُّطق، يتهادى إلى سمعك، مصاحباً بالموسيقى العذبة والمؤثرات الصوتية الصافية. تلقّينا الشرح مرّة، بأنَّ هذا النوع من السمك، الذي نراه بديعاً وديعاً، بارعٌ في خداع فريسته، يبثُّ فيها الاطمئنان قبل أن يقودها إلى الأعماق وينقضَّ عليها! هنا سمعتُ جاري الذي إلى اليمين، الدكتور سليمان العسكري، يعلّق:

- هذا السمك مثل «العولمة»!

فضحكنا، نحن سامعيه، من الأعماق!

آن لنا أن نغادر الصالة، فهناك من ينتظر دوره في الدخول بعدنا. ونزعنا عن عيوننا النظّارات، يُودِع كلٌّ منا النظارة التي استعملها في سلّة عند باب الخروج. ولكنَّ ما لا يمكن نزعه هو ما توطّن في النفوس من الإحساس بجمال الطبيعة، حتى في أعماق البحار الغائبة عن الأنظار. فازددنا حبّاً للبيئة وحرصاً على المحافظة عليها، فلا يفسدها الإنسان الحديث بملوِّثاته ونفاياته النووية. بيئةٌ تضمُّ عوالمَ متنوعةً من الكائنات، التي لها الحقُّ في البقاء، وفي أن تظلَّ في تصالحها مع الأساسيات التي بُني عليها هذا الكون العظيم.

كلمة.. وتوقيع

في الردهة تحت، تجمّعنا.

وعلى مقربة كانت طاولة، يعلوها «سجلّ التشريفات». ويقترح مضيفُنا، الدكتور العسكري، أن نعهد إلى أحدنا بأن يخطَّ في السجلّ، باسمنا، كلمة تذكارية، نشاركه نحن في التوقيع عليها. فوقع الاختيار على طبيب يمارس الأدب. وقرأ علينا:

«إنها لإرادة إنسانية رائعة تلك التي أصرّت على إنجازها هذا الصرح العملاق الذي يشع بجمال الحياة الفطرية وعبقرية الإنجاز التقني البشري. ومن المدهش أن يكون هذا في الكويت، التي خرجت من حريق العدوان لتبني وتعمر وتبدع....».

وأقبلنا نوقّع، تحت كلمته وحولها وفي كلِّ موضع متاح في الصفحة. ووجدتُني حريصاً على أن أعبّر عن رأيي بسطرٍ صغير قلت فيه: «علمٌ قارب الذروة، نأمل أن يوظف في خير البشرية».

وغادرنا المركز، مجتازين الفناء، الذي عاد رذاذُ البركة فيه يدغدغ وجوهنا.

واستقبلنا عبدالقادر - الآسيوي المسلم، من سيريلانكا - في حافلته. وقبل أن ينطلق بنا، كنّا نمسح بأنظارنا - مرة ثانية وربما الأخيرة - واجهة المبنى، التي تزينها زخارف ذات ألوانٍ أرادوها أن تحاكي لون التراب الذي منه كانت تُجبَل اللَّبنات عند تشييد بيوت الكويت في سابق أيامها.

مصدر الصور: المركز العلمي في الكويت.

قضية التخطيط الوطني للمعلوماتية

البُنى التقنية والتنظيمية، والإنسان والمسؤولية محاور متكاملة

سعد علي الحاج بكري
الرياض - السعودية



ليست المعلوماتية قضية خاصة ترتبط فقط بالدول الغنية المتقدمة، تدعم كفاءتها، وتزيد ثروتها، وتساعدها على المنافسة مع أقرانها من الدول الغنية الأخرى، بل إنها قضية عامة أيضًا يمكن أن تساهم في زيادة نشاط الدول الأقل حظًا وفاعليتها، ومساعدتها على تضييق الفجوة بينها وبين الدول المتقدمة، ولعلها بذلك تحمي هذه الدول من الانعزال عن التفاعل مع نشاطات العالم، وما يشهده من تقدم مستمر علميًا وتقنيًا واقتصاديًا أيضًا.

وعلى هذا الأساس تسعى كلٌّ من الدول المتقدمة، والدول الأقل حظًا الطامحة إلى التقدم، وبينها عدد من الدول العربية، إلى الاهتمام بالمعلوماتية، والتخطيط الوطني لاستخدامها والاستفادة منها في شتى المجالات، ومن هذا المنطلق تأتي هذه المقالة لتناقش محاور التخطيط الوطني للمعلوماتية التي يجب أخذها في الحسبان بشكل متكامل من أجل أن يحقق التعامل مع المعلوماتية أهدافه في دفع عجلة التقدم إلى الأمام بالفاعلية المطلوبة في هذا القرن الجديد.

نبدأ بالتساؤل عن «جدوى التخطيط» الوطني للمعلوماتية، وتقديم دلالات حول ما يجري بهذا الشأن في

بعض الدول العربية تبين قناعتها بهذه الجدوى.

ثم نطرح إطاراً عاماً للتخطيط الوطني للمعلوماتية، يستند إلى خطط وطنية يجري تنفيذها حالياً من ناحية، وإلى قراءات وملاحظات من ناحية ثانية. ونناقش «المحاور» المختلفة لهذا الإطار والمتكاملة في تأثيرها في التطوير المعلوماتي والاستفادة من هذا التطوير في التنمية والتقدم. ولا تقتصر هذه المحاور في مضمونها على وجود عوامل «تقنية» فقط، بل تشمل عوامل أخرى ترتبط بالتشريعات والأساليب التنظيمية، فضلاً عن ارتباطها «بالإنسان» مصدر التقدم التقني ومقصده والمؤسسات المسؤولة ليس عن التخطيط فقط، بل عن التنفيذ أيضاً. ونختم بذكر «ملاحظات وتوصيات» حول التوجه نحو وضع خطط وطنية معلوماتية تتصف «بالتكامل والفاعلية».

لماذا نخطط للمعلوماتية؟

إن التخطيط المستقبلي والحصول على تقنيات المعلوماتية، إنتاجاً أو استيراداً، يحتاجان إلى تكاليف، لكن الخبرات السابقة تدل على أن هذه التكاليف تدخل في إطار الاستثمار؛ ولابد لمثل هذا الاستثمار من أن يحقق فوائد، منظورة أو غير منظورة تفوق التكاليف كي يتمتع بصفة النجاح. ولا شك أن هذه الفوائد تزيد أو تنقص تبعاً لكفاءة التخطيط وفاعلية الاستفادة من تقنيات المعلوماتية.

ويمكن النظر إلى فوائد المعلوماتية من منظورين اثنين. يرتبط أولهما بفوائد إنتاج تقنيات المعلوماتية؛ ويتعلق الثاني بفوائد استخدام هذه التقنيات. وتأتي فوائد الإنتاج من النمو المتسارع لسوق تقنيات المعلومات الذي يفوق نمو أسواق السلع الأخرى نتيجة الاعتماد المتزايد للإنسان والمؤسسات في شتى المجالات على تقنيات المعلوماتية. فهذا النمو يعطي إنتاج تقنيات المعلوماتية القدرة على إيجاد المزيد من الوظائف وعلى توليد المزيد من الدخل، مما يدعم التنمية الوطنية. وإذا كان إنتاج التقنيات المعلوماتية المعقدة لايزال حكراً على الشركات العملاقة، فلا شك أن تقنيات المعلوماتية الخاصة بالتطبيقات، والمرتبطة بأنظمة معينة أو باللغة العربية أو بالاثنتين معاً، والتي تشمل برمجيات وأنظمة معلومات، يمكن إنتاجها محلياً.

أما فوائد استخدام تقنيات المعلوماتية فترتبط بثلاثة جوانب مهمة، أولها: زيادة الكفاءة، وثانيها: تحسين النوعية، وثالثها: توسيع مجال الأعمال والتكامل مع العالم. ففي جانب الكفاءة، يساهم استخدام تقنيات المعلوماتية في توفير الزمن اللازم لأداء كثير من الأعمال، وفي الحد من التنقل، وفي تقليص استخدام الأوراق، وفي إمكان العمل من المنزل في بعض المجالات، مما يوفر من مساحات المكاتب، ويساعد المرأة المسلمة على العمل والإنتاج، وغير ذلك من عوامل تدعم كفاءة الأعمال المختلفة. وفي جانب النوعية، تساعد المعلوماتية على سرعة الحصول على معلومات متكاملة في القضايا المختلفة في شتى المجالات، مما يدعم اتخاذ القرارات السليمة في الوقت المناسب. ويشمل ذلك المجالات الإدارية والتجارية والصحية، والأعمال البحثية، وغير ذلك.

وفي جانب التكامل مع العالم، فإن المعلوماتية توسع الرؤية المعرفية في المجالات المختلفة لتغطي بذلك شتى أنحاء العالم.

على الرغم من وجود دلائل إيجابية حول الاهتمام بالمعلوماتية في مختلف الدول العربية، إلا أن هذا الاهتمام لايزال أدنى مما يجري على مستوى العالم، خصوصاً فيما يتعلق بالتخطيط المشترك، كما تفعل دول الاتحاد الأوربي

كما نسمح بأداء كثير من الأعمال إلكترونياً، وعلى مستوى العالم أيضاً. وقد يفيد ذلك الدول المتقدمة الغنية، لكنه يلائم أيضاً الدول الأقل حظاً والطامحة إلى التقدم. فمثل هذه الدول تستطيع فهم الأسواق والأعمال الدولية مباشرة ومن دون وسطاء. وتستطيع بذلك اتخاذ القرارات المناسبة بشأن توجيه أعمالها ونشاطاتها دون الخضوع لاستغلال أولئك الوسطاء.

وهكذا، فإن الفوائد الناتجة من استخدام المعلوماتية، تقدم إمكانات جديدة في شتى المجالات، وليس في مجال إنتاج المعلوماتية فقط. وتساهم هذه الإمكانات الجديدة في دعم التنمية الوطنية، بما يتضمن زيادة الدخل وتوفير وظائف جديدة. وقد تكون الوظائف الجديدة على حساب الاستغناء عن وظائف قديمة، لكن التوسع الذي يمكن أن ينتج من الكفاءة والنوعية والارتباط بالأسواق الدولية يمكن أن يعطي حصيلة إيجابية متطورة.


محو الأمية المعلوماتية جانب مهم في التخطيط المعلوماتي

دلائل عربية

على أساس ما سبق، أدرك كثير من المخططين في الدول العربية أهمية المعلوماتية، وجدوى الاستثمار في العمل على تطوير إنتاجها ودعم استخدامها. وهناك دلائل كثيرة على ذلك ترد باستمرار في أجهزة الإعلام المختلفة. نقدم فيما يأتي أمثلة منها:

- في المملكة العربية السعودية ظهر عام ٢٠٠٠م مشروع عُرف باسم «وطني» لتعزيز اهتمام النشء بالمعلوماتية، وترعى وزارة المعارف السعودية هذا المشروع. كما أن خطة التنمية السعودية السابعة التي أصدرتها وزارة التخطيط السعودية، والتي تغطي الفترة من عام ٢٠٠٠م حتى عام ٢٠٠٥م اقترحت ضرورة وضع خطة وطنية خاصة بالمعلوماتية.

- وفي مصر تعمل وزارة المعلومات والاتصالات، بالتعاون مع جهات أخرى، ومنذ عام ١٩٩٨م على وضع خطط وطنية للمعلومات والاتصالات.

- وفي سورية جرى التركيز منذ عام ١٩٩٩م في إضافة مقررات دراسية إلى المعلوماتية. كما أن الجمعية السورية للمعلوماتية التي تساهم في التطوير المعلوماتي تلقى اهتماماً حكومياً خاصاً.

- وفي الأردن جرى الحديث في أحد المؤتمرات العلمية التي عقدت في عمّان في شهر مارس/آذار عام ٢٠٠٠م حول التوجه نحو إقامة مدينة معلوماتية.

- وفي دبي تم في شهر أبريل/نيسان عام ٢٠٠٠م الإعلان عن مشروع لتقديم الخدمات الحكومية إلكترونياً، وذلك إضافة إلى مشروع آخر لإقامة مدينة معلوماتية.

- وفي قطر أعلن في شهر سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠٠م عن مشروع لتقديم الخدمات الحكومية إلكترونياً.

وهناك أمثلة كثيرة أخرى في الدول المذكورة أعلاه وغيرها. ولا شك أن هذه الأمثلة تبرز الاهتمام الحكومي العربي بالتخطيط والتطوير المعلوماتي، لكن هذا الاهتمام يتطلب المزيد من الدعم والجهد، على محاور عدة، كي يحقق النتائج المرجوة. وتجدر الإشارة إلى أن جامعة الدول العربية تستطيع أن تكون أكثر إيجابية في مجال التخطيط المعلوماتي المشترك بين الدول

العربية. فقد قام مؤتمر قمة دول الاتحاد الأوربي الذي عُقد في لشبونة البرتغال، في شهر مارس/آذار عام ٢٠٠٠م بدعم مثل هذا التوجه المشترك للدول الأعضاء في الاتحاد. وعسى أن تستطيع جامعة الدول العربية القيام بمثل ذلك أيضاً.

الإطار العام للتخطيط

إذا كانت تقنيات المعلوماتية هي السبب الدافع للتخطيط الوطني للمعلوماتية، ومن أجل الاستفادة من فوائدها في التنمية الوطنية المطروحة فيما سبق، فإن هذه التقنيات ليست المحور الوحيد للتخطيط الوطني للمعلوماتية، بل إن هناك محاور أخرى ينبغي أخذها في الحسبان. وليس كل محور من هذه المحاور مستقلاً أو منفصلاً بذاته، بل مرتبط ومتفاعل يؤثر ويتأثر بالمحاور الأخرى. وعلى ذلك فإن التخطيط للمعلوماتية يحتاج إلى أخذ جميع هذه المحاور في الحسبان ضمن إطار واحد متكامل. وتشمل محاور هذا الإطار المتكامل ما يأتي:

محور تقنيات المعلوماتية، أو ما يمكن أن نطلق عليه تعبير البنية التقنية، ومحور التنظيم الإداري لاستخدام تقنيات المعلوماتية، أو ما يمكن أن نسميه بالبنية التنظيمية، ثم محور الإنسان والمسؤولية.

وفي التعريف بهذه المحاور، سوف نقدم أمثلة حول العوامل المرتبطة بكل منها، والتي أخذتها في الحسبان خطط وطنية سابقة. وفي هذا المجال جرى اختيار ثلاث خطط سابقة:

- أولى هذه الخطط هي الخطة الأمريكية حول البنية المعلوماتية التي حملها الرئيس الأمريكي السابق كلينتون إلى البيت الأبيض في عام ١٩٩٣م.
- وثانيتها هي خطة حكومة منطقة أونتاريو الكندية التي صدرت عام ١٩٩٨م، وحملت اسم إستراتيجية المعلومات والتقنيات المعلوماتية.
- وثالثتها هي خطة حكومة سنغافورة الحالية بشأن تطوير البنية والخدمات المعلوماتية.

وكما هو ملاحظ فإن هذه الخطط تمثل دولاً مختلفة. الأولى تمثل دولة كبرى هي الأهم عالمياً ومعلوماتياً، ومع ذلك تحرص حكومتها على التطوير المعلوماتي حفاظاً على دورها الرائد. والثانية تمثل مقاطعة ضمن الاتحاد الكندي يبلغ عدد سكانها نحو أحد عشر مليون نسمة، وهو ما يماثل حجم بعض الدول العربية. أما الثالثة فتمثل دولة صغيرة الحجم لا تزيد مساحتها على مساحة البحرين، ولا يزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين نسمة، بما يماثل أيضاً دولاً عربية أخرى.

البنية التقنية

نستطيع النظر إلى البنية التقنية للمعلوماتية من زاويتين رئيستين: زاوية إنتاج تقنيات المعلوماتية، وزاوية استخدام هذه التقنيات. وترتبط الخطط الوطنية السابقة الذكر باستخدام تقنيات المعلوماتية أكثر من ارتباطها بإنتاج هذه التقنيات. ولعل مسألة استخدام تقنيات المعلوماتية على المستوى الوطني مسألة أكثر إلحاحاً من مسألة إنتاج هذه التقنيات؛ وذلك للأثر الإيجابي لهذا الاستخدام في مجالات الإنتاج والخدمات الأخرى كافة، سواء في القطاع الحكومي أو في القطاع الخاص. ولعل مسألة الإنتاج في الدول المختارة قد تُركت لاجتهادات القطاع الخاص ونشاطاته.

> التخطيط لكلٍ من البنيتين «التقنية» و«التنظيمية» أساس مهم للتوجه نحو المعلوماتية، ولكن لابد من الاهتمام بالتوجه المعلوماتي للإنسان، وبتحديد المسؤولية عن التخطيط، ومن ثم عن التنفيذ الفعلي

وتجدر الإشارة إلى أن التخطيط الوطني لإنتاج تقنيات المعلوماتية مطلوب أيضاً. وقد كانت هناك خطط سابقة في بعض الدول، مثل خطط تايوان وكوريا في مجال إنتاج الإلكترونيات، وخطط الهند في مجال إنتاج البرامجيات. وعلى الرغم من أن مثل هذا الإنتاج مرتبط بنشاطات القطاع الخاص، إلا أن الدعم الحكومي يستطيع أيضاً المساهمة في نجاح هذا الإنتاج. ومن أمثلة هذا الدعم القروض والاستثمار الحكومية، إضافة إلى التسهيلات التجارية والتخفيضات الضريبية، وغير ذلك. ويمكن تحديد أولويات الإنتاج التقني من خلال عوامل متعددة. وتتضمن هذه العوامل حجم التقنيات المستوردة ومتطلبات السوق المحلي، والإمكانات المتاحة لإنتاج هذه التقنيات، والتعاون مع المنتجين، واحتمالات التسويق الخارجي. وتشمل هذه العوامل أيضاً التقنيات المعلوماتية الخاصة، مثل أنظمة البرامجيات والمعلومات المرتبطة بالأعمال

والإجراءات المحلية التي قد تكون مرتبطة أيضاً باللغة العربية.

وفي إطار البنية التقنية اللازمة للاستخدام، طرحت الخطة الأمريكية ثلاثة جوانب رئيسة لهذه البنية يُطلب تطويرها. وتتضمن هذه الجوانب بنية شبكات الاتصالات لتأمين تواصل المعلومات وتراسلها، وبنية المعلومات التي ينبغي توفيرها، إضافة إلى بنية تطبيقات خدمات المعلومات. وقد تم تشكيل فريق عمل لكل جانب من هذه الجوانب. وجرى التركيز في التقنيات اللازمة لأمن البنية التقنية وموثوقيتها. وفي مجال الاتصالات اللاسلكية والجوالة، اهتمت الخطة بمسألة توزيع الترددات. واهتمت كذلك بتشجيع القطاع الخاص على الاستثمار في البُنى المطلوبة.

أما خطة منطقة أونتاريو الكندية فقد وجّهت اهتمامها بالبنية التقنية باتجاه ما أسمته بالتكامل. وأوردت ضرورة وجود شبكة متكاملة ومعلومات متكاملة ودليل معلوماتي متكامل، ومركز مساعدة مشترك. والمقصود بذلك وحدة الشبكة بمعنى جمع الشبكات المختلفة ضمن شبكة موحدة يستطيع الجميع النفاذ إلى أطرافها المختلفة. والمقصود كذلك وحدة مصادر المعلومات بمعنى عدم وجود معلومات مكررة أو متناقضة، إضافة إلى وجود دليل موحد، ومركز مساعدة «مشترك» لاستيعاب الجميع. وقد ركزت الخطة في مسألة المواصفات المعيارية التي تساهم في التكامل المطلوب.

واهتمت الخطة أيضاً، كما هو الحال في الخطة الأمريكية، بضرورة أن تكون البنية آمنة وموثوقة.

وفي مسألة التكامل المطلوب طرحت خطة أونتاريو فكرة توحيد البنية التقنية من خلال نظام المجموعات. وطبقاً لهذا النظام فإن التكامل يتم بشكل متدرج. فكل عدد من المؤسسات المتقاربة في بعض أعمالها المعلوماتية تُشكل مجموعة وتشترك في بنية واحدة، ثم تتكامل هذه البُنى في بنية متكاملة موحدة.

وطرحت خطة سنغافورة موضوع التحديث المستمر للبنية التقنية. وركّزت في هذا المجال في ضرورة اعتماد مبدأ الاستجابة للمتطلبات، والتجريب قبل الاستخدام.

وتبنت الخطة عملية استكمال البنية التقنية اللازمة لتنفيذ أكثر من مئة خدمة حكومية عامة بشكل إلكتروني.

البنية التنظيمية

يُقصد بالبنية التنظيمية القوانين والتشريعات المرتبطة بالبنية التقنية. وقد تدعم هذه القوانين والتشريعات إنتاج تقنيات المعلوماتية وكفاءة استخدامها، وتساعد بذلك على تحقيق الفوائد المرجوة وجعل ميزان المعلوماتية رابحاً، أو قد تعيق الإنتاج أو الاستخدام وتجعل المعلوماتية عبئاً خاسراً، أو ربما بين هذا وذاك.



المعلوماتية توسع الرؤية المعرفية في المجالات المختلفة

في إطار البنية التنظيمية تُركّز الخطة الأمريكية في ثلاث مسائل مهمة، وتشمل هذه المسائل توفير المعلومات الحكومية إلكترونياً، وعلى نطاق واسع، من أجل تسهيل التعامل بين المؤسسات الحكومية من ناحية، وبينها وبين الجهات الأخرى والأفراد من ناحية ثانية.

وتتضمن هذه المسائل أيضاً موضوع تأمين الخدمات المعلوماتية بأسعار معقولة تُشجع على الإقبال على استخدامها والاستفادة منها. ويدخل مبدأ المحافظة على الحقوق الفكرية بين المسائل المطروحة في الخطة أيضاً. وقد عانت المؤسسات

المنتجة للبرامجيات هذه المشكلة ولا تزال، كما عانى المستخدمون الفيروسات التي كثيراً ما تُحمّل على النسخ غير الموثوقة، ولا يزالون.

ولعل من ثمار الخطة الأمريكية ذلك القانون الذي أصدره الرئيس الأمريكي في شهر يونيو/حزيران عام ٢٠٠٠م بالسماح باستخدام التوقيعات الإلكترونية في التعامل مع الحكومة الفيدرالية. ولا شك أن مثل هذا القانون يساعد على تنفيذ كثير من الأعمال الإدارية إلكترونيًا بسرعة كبيرة وبتكاليف محدودة.

وتتوافق خطة منطقة أونتاريو الكندية مع الخطة الأمريكية في مسألة توفير المعلومات، وتضيف إلى ذلك أن يكون هذا التوفير في كل الأوقات وباللغتين الإنجليزية والفرنسية بسبب التعدد اللغوي في كندا. ولعل ذلك يعطي مثالاً حول ضرورة استخدام اللغة العربية، وربما مع الإنجليزية أحيانًا من أجل التعامل الخارجي في توفير المعلومات في الدول العربية.

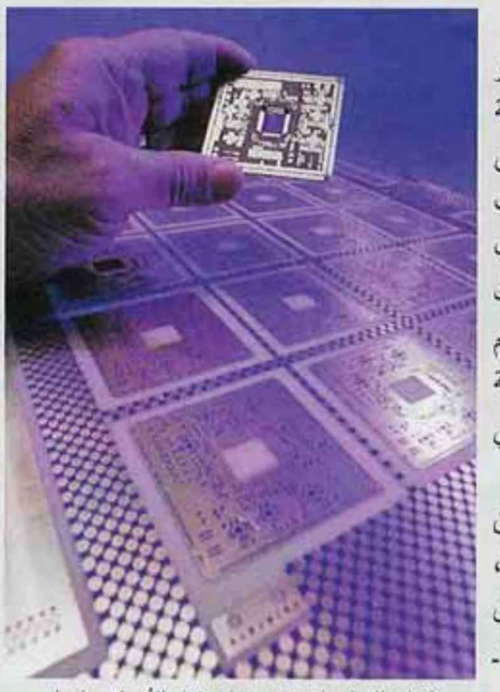
وتهتم خطة أونتاريو أيضاً بأن يكون التعامل مع المعلومات تفاعليًا، وبضرورة تحديث المعلومات بشكل مستمر. كما تُركّز خطة أونتاريو أيضاً - كما هو الحال في الخطة الأمريكية - في تخفيض تكاليف استخدام المعلوماتية.

وتهتم خطة أونتاريو بموضوع إعادة هيكلة الإدارات الحكومية وتنظيمها بما يتناسب مع استخدام المعلوماتية والاستفادة منها. وتتوافق في ذلك مع خطة سنغافورة التي تحدد في برامجها ضرورة إعادة هندسة الخدمات الحكومية من أجل تحويلها إلى العمل إلكترونيًا.

ولا شك أن التخطيط لكل من البنيتين «التقنية» و«التنظيمية» أساس مهم للتوجه نحو المعلوماتية، لكن هذا الأساس لا يكفي وحده لتحقيق الفوائد المرجوة، فلا بد من الاهتمام بالتوجه المعلوماتي للإنسان، وبتحديد المسؤولية عن التخطيط، ومن ثم عن التنفيذ الفعلي.

الإنسان والمسؤولية

يتمتع الإنسان في مجال الإنجازات العامة، وبينها الإنجازات التقنية، بموقعين مهمين. فهو من ناحية مصدر الإنجاز وصاحبه، وهو من ناحية ثانية هدف هذا الإنجاز ومقصده. وإذا كانت النخبة هي التي تقدم الإنجاز، فإن العامة هي التي تتلقى هذا الإنجاز وتستخدمه وتحكم عليه بالنجاح أو بالإخفاق. ثم إن هناك في إطار الإنجاز التقني علاقة دورانية بين النخبة والعامة. فمن هو بين العامة من المستخدمين، يمكن أن يصبح بين نخبة المطورين، كما أن النخبة هم أيضاً بين عامة المستخدمين، ويضاف إلى ذلك أن أصحاب القرار في المجالات المختلفة هم بين عامة المستخدمين.


تقنيات المعلومات تحد من استخدام الأوراق وإهدار الوقت والجهد

وهناك، في مجال التخطيط للمعلوماتية، خمسة جوانب رئيسة ترتبط بالإنسان: أول هذه الجوانب «التوعية المعلوماتية» أو ربما «محو الأمية المعلوماتية». ولا بد لهذه التوعية من أن تشمل، ليس فقط عامة المستخدمين العاديين، بل أصحاب القرار أيضاً لدورهم المسؤول في التوجه نحو المعلوماتية. أما الجانب الثاني فهو جانب التعليم المعلوماتي الذي حظي باهتمام خطة سنغافورة.

وهناك أيضاً الجانب الثالث الذي يُركّز في تسهيل استخدام المعلوماتية، وجعل هذا الاستخدام تفاعلياً وبأداء مرض يراعي متطلبات المستخدم. وقد أجمعت الخطط الثلاث على هذا الجانب. أما الجانب الرابع، فيرتبط بدعم الإبداع المعلوماتي ليس التقني فقط، بل من حيث الإدارة والتنظيم، والاستخدام أيضاً. وقد ركّزت الخطط الثلاث في هذا الجانب؛ لأهميته الخاصة في التطوير المستمر.

ونأتي الآن إلى الجانب الخامس، ألا وهو جانب التخوف من مسألة الأمن المعلوماتي، فهذا الجانب يحتاج إلى اهتمام خاص لتحقيق الأمن المطلوب والحد من التخوف، من أجل تعزيز استخدام المعلوماتية. وقد طرحت كل من الخطة الأمريكية

وخطة أونتاريو هذا الجانب من خلال استخدام التقنيات الخاصة بالأمن المعلوماتي كما ذكرنا سابقاً، ومن خلال تأمين بيئة عمل آمنة تستجيب للتحديات، وتستطيع التعامل مع الحالات الطارئة.

وتجدر الإشارة إلى أن القلق الزائد من الأمن المعلوماتي بعد أخذ الاحتياطات الممكنة في الحسبان يعيق دون مسوغ الفوائد التي تقدمها المعلوماتية، تماماً كما يعيق عدم ركوب السيارة أو الطائرة، بدعوى الأمن، مدى الاستفادة من هذه الوسائل.

وإذا كان الإنسان هو المسؤول عن التخطيط والتقدم المعلوماتي، فإن مسؤوليته هذه ترتبط غالبًا بالمؤسسات. وقد شملت مسؤولية الخطة الأمريكية كلاً من مكتب البيت الأبيض للعلوم والتقنية، ووزارة التجارة، إضافة إلى المعهد الوطني الأمريكي للمواصفات المعيارية. ويلاحظ في هذه المؤسسات عدم وجود من يمثل القطاع الخاص، كما هو الحال في خطة أونتاريو. فقد شملت خطة أونتاريو مؤسسات حكومية، وأخرى تتبع القطاع الخاص، إضافة إلى مؤسسات مستقلة كالجامعات. ومن المؤسسات الحكومية المشاركة في الخطة كل من مكتب رئيس وزراء المنطقة، ووزارات الاقتصاد والمالية والتجارة والتعليم والصحة والطاقة والنقل والموارد الطبيعية. أما مؤسسات القطاع الخاص المساهمة في الخطة فقد تضمنت هيئات مهنية متخصصة في شتى المجالات التي تستخدم المعلوماتية.

ملاحظات وتوصيات

يمكن من الحقائق والمناقشات المطروحة فيما سبق استخلاص عدد من الأفكار. ولعلنا نوجز هذه الأفكار فيما يأتي، من خلال ملاحظتين اثنتين. أولى هاتين الملاحظتين أن المعلوماتية استثمار، يقدم فوائد تنموية مهمة، ويعطي آفاقاً جديدة لجميع الأمم بصرف النظر عن حجمها أو درجة تقدمها، وأن التخطيط الوطني للمعلوماتية بات ضرورة لا بد منها للتنمية والتطوير والقدرة على المنافسة في مختلف القطاعات. وفي هذا المجال فإنه على الرغم من وجود دلالات إيجابية حول الاهتمام بالمعلوماتية في مختلف الدول العربية، إلا أن هذا الاهتمام لا يزال أدنى مما يجري على مستوى العالم، خصوصاً فيما يتعلق بالتخطيط المشترك، كما تفعل دول الاتحاد الأوربي. كما أن هذا الاهتمام العربي يحتاج إلى رؤية متكاملة تسعى إلى تطوير جميع محاور المعلوماتية، بما يحقق النجاح المنشود.

أما الملاحظة الثانية فهي أن التخطيط للحصول على التقنية أو البنية التقنية للمعلوماتية لا يكفي لتحقيق الفوائد التنموية الموعودة، بل لا بد في سبيل ذلك من أخذ البنية التنظيمية، إلى جانب الاهتمام بمتطلبات الإنسان والعمل على تحديد المسؤوليات، في الحسبان. وقد طرحت الخطط الوطنية القائمة في الدول المختلفة، الواردة في هذه المقالة، عوامل كثيرة لكل من محاور التخطيط هذه. وعلى الرغم من اختلاف مواصفات الدول المأخوذة في الحسبان من حيث الإمكانات والحجم، إلا أن خططها للمعلوماتية تبقى ضمن هذه المحاور، إضافة إلى التشابه فيما بينها في بعض العوامل المرتبطة بكل محور.

الفوائد الناتجة من استخدام المعلوماتية تقدم إمكانات جديدة في شتى المجالات، وليس في مجال إنتاج المعلوماتية فقط. وتساهم هذه الإمكانات الجديدة في دعم التنمية الوطنية، بما يتضمن زيادة الدخل وتوفير وظائف جديدة

وفي الختام ندعو إلى ضرورة التخطيط العربي للمعلوماتية، على مستوى العالم العربي من ناحية، وعلى المستوى المحلي ضمن كل دولة عربية من ناحية أخرى. ولعل مسؤولية الانطلاقة الأولى في هذا المجال هي مسؤولية المتخصصين من خلال الجمعيات المهنية، فهؤلاء هم الذين يتابعون ويدركون أكثر من غيرهم أهمية هذا التخطيط للمستقبل. وتأتي بعد ذلك المسؤولية الحكومية من خلال المؤسسات المحلية على المستوى الوطني، ومن خلال مؤسسات الجامعة العربية على الصعيد العربي. وبالطبع هناك دور مهم أيضاً للقطاع الخاص، ربما من خلال الغرف التجارية والصناعية. وعسى أن نسمع قريباً عن مؤتمر عربي للتطوير المعلوماتي يشارك فيه جميع هؤلاء، على أن تُطرح فيه الخبرات من قبل أصحابها مباشرة، وتناقش فيه التوجهات، وينطلق منه التخطيط المنشود نحو عمل يقود إلى مستقبل نرجوه مشرقاً بإذن الله.

مصدر الصور: أرشيف الفيصل.

الحوار الفلسفي بين الأديان بدلاً من صراع الحضارات

أنس كاريتش
سراييفو - البوسنة والهرسك

اسمحوا لي في البداية، بشيء من الانفعال، أن أقول على الفور: إنني مسرور لكون منظم هذا اللقاء* اختار هذا الموضوع بالذات. ولو أتيح لي شخصيًا اختيار موضوع هذه الندوة لاخترت موضوعًا كهذا أو مشابهًا له. وبالطبع فإن لسروري بهذا الموضوع بضعة أسباب. لعل أهمها تجربة وطني، التي لم يمض عليها وقت طويل، أو تلك التجربة التي ظل يحملها هذا البلد في ذاكرته منذ ما يقرب من ألف عام(١).

والسبب الثاني الذي سأذكره هنا فوراً (والذي ستعالجه هذه الورقة بالتفصيل) يكمن في القنابل الذرية والهيدروجينية والنيتروجينية وغيرها من القنابل التي لا تحصى. إن كل المؤمنين بالله يملكون اليوم كل تلك الأنواع من القنابل : يملكها المسيحيون واليهود والبوذيون والمسلمون، وعليه ينبغي النظر إلى موجة العولمة اليوم ضمن سياق أيديولوجية عالمية للتفاهم والحوار الذي يمكنه تقديم تطلع نحو «مولد المنقذ». وإن صح فهمي لإحدى قصائد الشاعر هيلدرين، فإن ذلك «المنقذ» موجود اليوم بمحاذاة المخاطر المختلفة التي تهدد عالمنا المعاصر. وينبغي ترسيخ هذا المنقذ ودعمه ليكتسب شرعيته التامة.

ميلاد المنقذ

إن نجاح عملية العولمة الحالية مرتبط بكونها رسالة من أجل «ميلاد المنقذ» لجميع معادن الأرض وأنواع نباتاتها ودوابها المختلفة، وبالطبع للبشرية جمعاء، بل وأجرؤ على القول: إن عملية العولمة اليوم عليها أن تهتم بوقاية القمر والفضاء القريب من الكرة الأرضية(٢). فذلك المفهوم للعولمة الذي يأخذ في حسبانه الكل، هو وحده الذي يملك فرص النجاح. بينما العولمة التي يخطط لها لتكون عولمة للسيطرة والقوة محكوم عليها بالإخفاق منذ البداية. وعلى الرغم من المبدأ الأساسي في الإنجيل «إذا رماك أحد بحجر فارمه بالخبز»، فقد كان الإنسان دائما عبر التاريخ يرد على الحجر بالحجر!

وإذا تمت عولمة السيطرة والقوة من أية جهة كانت في العالم، فستندلع الانتفاضات والحروب ضد تلك العولمة، وسيكون الرد على الحرب بالحرب، وستمنى عولمة السيطرة والقوة بالإخفاق الذريع تماماً كما حدث مع الاستعمار الذي كان مشروعاً لعولمة السيطرة والقوة بتدبير خاطئ ومركزية أوربية(٣).

الدين حوار داخلي بين الإنسان وربه

قبل كل شيء، اسمحوا لي اليوم أن أحلل بمفردي عبارة «الحوار الفلسفي بين الأديان بدلاً من صراع الحضارات في عملية العولمة». وأفعل هذا من أجلنا جميعاً، لنكون على بيِّنة مما نعنيه ونحن ننطق عنوان الموضوع الذي نتحدث عنه في اليومين الأخيرين؛ فالكلمات والتعابير الأساسية في ندوتنا هذه هي : «الحوار الفلسفي»، «الدين»، «صراع الحضارات»، «العولمة». ولدي انطباع أن أهم كلمة بينها جميعاً هي كلمة «الحوار». وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى أن أهم حوار هو ذلك الحوار الذي يدور بين الله والإنسان. فما الأديان، إن لم تكن أولاً وآخراً، أعمق وأخفى وأكثر أوجه الحوار شفافية، بل قل لقاءات بين الله الخالق والإنسان المخلوق(٤)؟

فالله سبحانه وتعالى هو أول وأهم من تكلم مع الإنسان، بل إن الله - خالق الإنسان - هو المتحدث المُخلِصُ الوحيد مع الإنسان.

وحوار الإنسان مع الله يوجد في أساس كل علاقة سليمة وحوار صادق بين الإنسان وأخيه الإنسان، بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والتاريخ. ومنذ القدم ظلت الديانات الكبيرة تعلم البشر - قبل كل شيء - ذلك الحوار مع الله سبحانه وتعالى، ومن ثَمَّ مع الطبيعة والتاريخ.

والإسلام منذ القدم جاء ليذكر الإنسان بالله، وليذكره بالحوار مع الله خالقنا جميعاً.

وكما قلنا، إن الحوار بين الله سبحانه وتعالى والإنسان يعطي القاعدة الصحيحة والمعنى والفحوى السليمين لأي حوار آخر، حتى بين الإنسان والنبتة الصغيرة الضعيفة. والإنسان الذي ليس في حوار مع الله يواجه خطورة اعتقاده بأنه - إن لم يكن خالقاً - سيد متصرف بتلك النبتة الضعيفة، ولذا فإن الإسلام يعدّ الإنسان مسؤولاً عن طبيعة الحوار بين البشرية والله عز وجل. وبهذا يكون الإسلام الرقيب الدائم الذي يسهر على حوار الإنسان مع الله عز وجل، وهذا يوضح اهتمام القرآن الكريم في كثير من المواضع بدعوة الإنسان إلى التفكر في الآيات الإلهية في آفاق الكون الظاهرة والباطنة وفي آفاق التاريخ، وكل هذا من أجل إعداده ليكون له حوار صحيح مع خالقه سبحانه وتعالى.



هيغل

هتلر

ومن يقرأ آيات الكون قراءة صحيحة، فسيتمكن بشكل سليم من الدخول في حوار ليس فقط مع الله سبحانه وتعالى، بل مع الآخرين من بشر وأديان وحضارات وتراث، وسيدخل في حوار شريف مع الطبيعة، حوار يحفظ للطبيعة عفتها وشرفها (وخاصة في عصرنا الذي تعاني فيه العلاقة بين الإنسان والطبيعة من أزمات ومشكلات كثيرة).

عندما ذكرت الحوار مع الطبيعة، لا بد لي من الإشارة إلى أن العلوم الحديثة التي تشارك في تحديد ما يدعى بالرؤية العلمية للكون، تلك العلوم قد قامت على

أســاس من نســيان الإنـسـان لـلحـوار مـع الله تعـالى ولحواره مع عوالم الطبيعـة المحيطة به. والعلوم الحديثة برؤيتـها العـلمانيـة للكون تمثل بحـد ذاتهـا حواراً فـردياً مخـيفًا، إنه حـوار مستبد يتحـول إلى صراخ وعصـيان للأوامـر السـماوية الربانيـة. وفـي كل مكان نرى اليوم النتـائـج المروّعـة لتـأثيـر العـقل العلمـاني الفـردي المستبد(٥).

إننا نواجه اليوم سؤالاً كبيراً: هل ستُطَبَّق العولمة اليوم بواسطة تلك العلوم الحديثة العلمانية التي لا تعترف بالله ولا بالحوار، أم إن عـملية العولمة الـيوم ستحظى بعنصر روحاني من كنوز الديانات العريقة كاليهودية والنصرانية والإسلام والبوذية...؟

حوار الإنسان مع الله يوجد في أساس كل علاقة سليمة وحوار صادق بين الإنسان وأخيه الإنسان، بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والتاريخ

وتقول العرب «اللبيب تكفيه الإشارة»، فلا حاجة هنا إلى الاسترسال في الحديث عن الحوار الفردي المستبد للعلمانية الحديثة ومخاطرها التي تهدد بها سلامة عملية العولمة الجارية اليوم.

لماذا الحوار الفلسفي وليس اللاهوتي بين الأديان؟

لنواصل التفكير في عنوان ندوتنا ونتساءل: ماذا يعني الحـوار الفلسـفي بين الأديان؟ فـهناك فلسـفـات كـثيـرة ومتنوعـة، بما فيها تلك التي لا تعـرف الحوار فيمـا بينها، فضلاً عن كـونها قادرة على المساعـدة على جمع الأديان إلى مائدة الحوار.

إنني على يقين عميق بـأن الحوار الفلسفي بين الأديان ـ والذي نحن بصـدد مـعالجتـه في لقائنا هذا ـ ينبـثق من أجود فـروع الفلسـفـات الأوربيـة والعـالمـيـة الـيـهـودية والنصرانيـة والإسلامية التقليدية. ومن المستحيل على الفلسفات الإلحادية أن تقدم للبـشرية أي دروس، ولاسيما دروس في الحوار.

في حين أن الفلسفات المعتـمدة على الديانات تقدم ذلك لأنها تؤمن بالله تعـالى خالقنا جميعًا. والفلسفة الحقيـقية كانت دائماً تؤمن بالله سبحانه وتعالى. وجميع الفلاسفة ـ من عهـد بارمنيد إلى يومنا هذا ـ يقـرون بأن الله بطبيـعة الحال واحـد. وبناء عليه فـالإسلام (ذلك الذي أحـمله في قلبي وعـقـلي) يرحب «بالحـوار الفلسـفي» أو بالأحـرى «بالحـــوار الفلســفي بين الأديان» ويتــقـبله بيــدين مـبسـوطتين. وسـأبين فيمـا يأتي أسـباب تـأييد الإسـلام وقبوله الصادق لهذا الحوار.

ومن خــلال «الحــوار الـفلســفي بين الأديـان» يبـدو الاعـتـقـاد بـأن الفـهم الأفـضل للأديان ربما يـكون عـبـر فلسـفـات تلك الأديان، أو على الأقل مـن خـلال الحـوار الفلسفي، وفي هذا الكثير من الحقيـقة، فالأديان تُفهم عبر الفلسـفـات التي تنبـثق تقليـديًا منهـا بصـورة أفـضل من فهمها عن طريق أنظمتـها اللاهوتية. فالأنظمة اللاهوتية غالـبًا ما تحـبس الإيمان بالله، بل تحـبس الله في نظام لا حياة فيـه! (وفي هذا المنظور يعدّ هيـغل مؤسـسًا لنظام لاهوتي أكثر منه مـؤسسًا لنظام فلسفي، فالله في فلسـفته مـحـبوس في نظام، أو بعـبـارة أصح، أصبح النظام في فلسفة هيغل إلهًا).

ولم يكن الأمـر كذلك مع الكيـانات الفلسـفيـة التقليـدية الكبرى، فتلك الكيانات لم تصـبح أسيرة الأنظمة، وأعني أن الإنسـان في الفـلسـفـة التـقليـدية، منذ عـهـود لاوتس وبارمنيد ومايمونيدس وأغسطينو والغزالي... كان أكثر حـريـة منه في النظم اللاهوتيـة، وإذا غــابت حــرية الإنسان، يغيب معها الإيمان بالله تعالى.

ولأضف إلـى ذلك أن الـنظرة لـلذات الإلـهـيـــة في صفحات الفلسفات التقليدية الحـقيقية، كانت دائمًا أفضل منها في مؤلفات الأنظمة اللاهوتية الجامدة.

وبما أن مـهـمـتي هنا أن أقدم رؤية مـسـتـقـبلية لهذا الموضوع العام للحوار بين الأديان العـالمية في ظل عملية العولمة، أود القول مباشـرة: إنه كان سهلاً على الإسلام كـدين، وكـذلك على جـمـيـع فـروع الإسـلام الفلسـفـية التـقليـديـة، وعلى أكـثـر المذاهب الشـرعـيـة واللاهوتيـة (العـقـدية) الإسـلامـيـة، أن تدخل في حـوار مع التـقـاليـد الفلسـفـيـة الأخـرى، كـاليـهـودية والمسيـحـيـة والبـوذية

والهندوسية. فالإسلام ليس إلا امتداداً تصحيحياً ضمن سياق التاريخ الديني للبشرية، وبذلك أصبح ظهور الإسلام على مسرح الأحداث محط اهتمام الأديان العالمية الكبيرة.

دعوة عالمية

وقد كانت للإسلام - في الكثير من مراحل تاريخه - مشروعات ناجحة للعولمة الروحية والثقافية والحضارية، لأن الحكمة الخالدة Philosophia Perennis كانت دائماً حية في النظرة الإسلامية للعالم. ومنذ بدايته كان الإسلام يحمل دعوة عالمية شاملة ونظرة عالمية شمولية. وكان ذلك ممكناً لأن الإسلام ظهر في مناطق كانت هي الأشهر من حيث وجود الإنسان فيها. فالإنسان في



صموئيل هنتينجتون

فيليب حتي

مناطق الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى، كان ذا تجربة طويلة وعميقة لا تقتصر على التجربة الدينية فقط. وجاء الإسلام ليقدم إلى هذه التجربة البشرية المكتسبة خلال حقب تاريخية طويلة رؤيته للعالم التي تحمل في طياتها قراءة مبسطة عن الله الواحد الأحد. ومن ذلك المبدأ الإيماني انطلقت العولمة بإلهام إسلامي، لأن الله واحد، وسعت قدرته كل شيء، وهو يحيط بكل شيء؛ أو كما جاء في القرآن الكريم: وهو *الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ وهو الحكيم العليم*. **الزخرف: ٨٤**. فالإيمان بالله، ربِّ كل شيء، هو الذي حرك لدى البشرية المسلمة مشروعات العولمة.

وفي عصر العولمة المستلهمة من الإسلام، كانت رسالة العلم العالمية من الشرق إلى الغرب تكتب بعدد من اللغات، كالعربية والإغريقية والعبرية والفارسية والتركية. ولا تزال الآلاف القيمة من نسخ المؤلفات والترجمات محفوظة. وعلى سبيل المثال أشير إلى أن كاتب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه (ت ٤٥هـ) كان واحداً من الكثيرين من المسلمين الذين كانوا في صدر الإسلام يكتبون بالعبرية. كذلك أشير إلى أنه بعد عدة قرون من ذلك، وفي إطار الحضارة الإسلامية الكبرى، كان الفيلسوف اليهودي مايمونديس (ابن ميمون) يكتب باللغة العربية، وأن البيروني (ت ٤٤٠هـ) كان يكتب ويترجم من السنسكريتية (لغة الهند الأدبية القديمة)، وحركات الترجمة في بغداد ودمشق والقاهرة والإسكندرية وغرناطة وإشبيلية وطهران وسمرقند، كانت حركات يمكن بكل ثقة أن توصف بأنها عولمة تحققت بفضل الإسلام. ويقول فيليب حتي: إن الإسلام كان باعثاً لأوسع العمليات المعرفية والعلمية المعروفة حتى ذلك الوقت(٦). ولا حاجة إلى أن نذكر بصفة خاصة أن عهد العولمة المستلهمة من الإسلام كان مُنطلقاً لظهور أوربا نفسها كعامل جغرافي وثقافي. وبذلك انضمت ثقافة الحضارة الإسلامية إلى الإنجيل والحضارة اليونانية القديمة لتصبح الأساس الثالث لأوربا.

وبهذه المشاركة الفكرية أثبتت الحضارة الإسلامية ميلها العظيم إلى الحوار. فقد تمت ترجمة وشرح جميع التراث الفلسفي الفكري لليونان القديم وفارس والهند والصين، دون خوف، بوصفه تراثاً قيماً. وفي تراث الثقافات الأخرى كان المسلمون يكتشفون ويتعرفون الكثير مما يتوافق مع الإسلام فيتقبلونه ويتبنونه.

وليست رغبتي أن أكثر من الرجوع إلى التاريخ، ولكن هناك الكثير من الأسباب التي جعلت الإسلام

يدخل - دون رهبة وكراهية للجديد المجلوب - في حوار مع الديانات والحضارات الأخرى.

حري بنا في هذا المقام أن نعيد إلى الأذهان القول المأثور للمؤلفين المسلمين التقليديين: «القرآن هو الكون الناطق، والكون هو القرآن الصامت»، وهذا القول يعني أول ما يعني: ما يوجد في صحائف القرآن سيكون في صحائف العالم إلى يوم الدين! وبالفعل، لو أخذنا في الحسبان ما يمكن أن نسميه - وبتحفظ شديد «بالجغرافيا الدينية» على صحائف العالم في القرن السابع الميلادي، عندما وصلت شعلة الإسلام من الأزل إلى عالم الواقع التاريخي، لرأينا بكل وضوح أن القرآن في صفحاته غالباً ما يخاطب أتباع الأديان المختلفة اليهود والنصارى والدهريين والمجوس، والمشركين... ونشهد على صفحات القرآن الكريم حدوث حشد ديني ضخم، ذلك

العلوم الحديثة برؤيتها العلمانية للكون تمثل بحد ذاتها حواراً فردياً مخيفاً، إنه حوار مستبد يتحول إلى صراخ وعصيان للأوامر السماوية الربانية. وفي كل مكان نرى اليوم النتائج المروعة لتأثير العقل العلماني الفردي المستبد

حشد يجمع ولا يشتت. إن موسى وعيسى عليهما السلام ليسا «أجنبيين» في صفحات القرآن، بل على العكس هما «ظاهرتان مسلمتان» أيضاً. والشيء نفسه مع آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام وكان بعض المسلمين ينطقون اسم إبراهيم (أبراهام) كـ «براهمان»، فقط لتقريب الديانة الهندوسية إلى العقيدة الإسلامية.

هذا كله يمثل سبب كون الإسلام يسير ويعمق في سياق الأديان العالمية، ليس فقط السياق الجغرافي، بل السياق الروحي على حد سواء.

فالقرآن الكريم يحاور جميع الفرق الدينية العالمية، وأحياناً يدخل هذا الكتاب، من خلال التعبير عن موقفه، مناقشة حامية حول الآراء عن الله في الأنظمة اللاهوتية عند اليهود والنصارى والمجوس والماديين والدهريين... لكن القرآن حين تقرؤه يترك لديك انطباعاً قوياً كبير الأهمية بالنسبة إلى تاريخ البشرية منذ القرن السابع الميلادي، وهو أن الذي يخاطب الناس على صفحات القرآن ليس «إله المسلمين»، ولن تجد قط في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف أو الفكر الفلسفي الإسلامي القديم، أو حتى في مدارس التشريع الأساسية في الإسلام عبارة «إله المسلمين». فالقول بأن الله هو إله المسلمين وحدهم يعدّ إثماً في مرتبة أكبر الآثام في الإسلام وهو الشرك، بمعنى أنه يحد من مطلقية المطلق وينسب إليه ما ليس من صفاته، وهذا المبدأ الإسلامي يمكن - ومن دون أدنى شك - أن يساعدنا على توجيه عملية العولمة المعاصرة وإغنائها توجهاً وإغناء روحياً.

فالذي يتكلم في القرآن، هو المولى الذي يعترف بنفسه ويطلب الاعتراف به واتخاذه ليس إلهاً للمسلمين فقط، بل هو ربٌ للنصارى واليهود وعبدة النجوم. وباختصار، فإن الإله في القرآن هو رب الناس أجمعين! ونحن نرى ذلك - قبل كل شيء - في روح القرآن، ونراه في جميع القرآن، كما نراه في أجزائه، مثل قوله تعالى: *إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنّصارى والصّابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا، فلهم أجرُهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون*. البقرة: ٦٢.

وأكثر من ذلك، فإن الله في القرآن الكريم هو رب العالمين، الظاهر منها والباطن. والقرآن بتنزيه الله عن تحديده وإلحاقه بفئة معينة من البشر، إنما يحرر البشرية من مفهوم «الشعب المختار» وهذه الحقيقة كانت ولا تزال تفيد أن القرآن الكريم يعول على البلوغ والرشد الكاملين للإنسان والبشرية.

وبقوة شديدة نشر الإسلام فكرته أن الله سبحانه وتعالى هو ربنا جميعاً، ويترتب على هذا أننا جميعاً متساوون أمام الله عز وجل.

تلك الحقيقة كانت في الماضي حاسمة الأهمية لجميع مشروعات العولمة المستلهمة من الإسلام، وهي اليوم بالغة الأهمية لمشروع العولمة المعاصر الذي لا يقوم على أسس دين بعينه. ولكن لا بد لمشروع العولمة الحديث أن

يأخذ في حسبانه جميع الأديان بما فيها الإسلام.

وحين يتعلق الأمر بنظرة الإسلام إلى العولمة، فإنني أود أن أضيف شيئاً مثيراً: فالإسلام اسماً ومفهوماً يجذب الاهتمام قطعاً. والإسلام يعني التسليم لله عز وجل، وكم يبدو ذلك شمولياً وعالمياً. فاسم الإسلام - أي التسليم لله تعالى - لا يرتبط باسم شخص، فالإسلام ليس محمدية. واسم الإسلام لا يرتبط بالموطن الذي ظهر فيه، فالإسلام ليس عروبة، وأعتقد بأن مستمعي يدرك بوضوح تام هذه الأفكار البعيدة الأثر التي تنبع من هذا الفهم للإسلام لترفد تيار العولمة المعاصر.

ويرمي تحرير البشرية من طبقة «الشعب المختار»، إلى دعم الإسلام مشروعاته للعولمة الروحية حينذاك، وتزويدها بمختلف الآليات المهمة، التي منها المساواة بين بني البشر، لأن الإسلام توّج المساواة بين جميع الألسن والقبائل والشعوب على قاعدة التفاهم والتعارف فيما بينها(٧)، والقرآن يعلن عن هذه الفكرة بوضوح: *يا أيُّها النَّاسُ، إنَّا خلقْنَاكم من ذَكَرٍ وأنثى وجعلْنَاكم شُعوبًا وقبائلَ لتعارَفُوا إن أكرَمَكم عندَ الله أتقاكُمْ إن اللهَ عليمٌ خبيرٌ*. **الحجرات**: ١٣.

نحن مقسمون قبائل وشعوباً لكي نتعارف بصورة أسهل من خلال اختلافاتنا. فالاختلافات نعمة، وليست حجر عثرة. ولو كان سكان الأرض بيضاً فقط لما كانت البشرية شبيهة بجميع ألوان تربة الأرض. إن اختلافي عنك هو في الحقيقة تلك المسافة التي بإمكانك أن تقطعها لتصل إلي، والعكس صحيح! هذه هي بداية التفاهم، إنها البداية التي تتيحها اختلافاتنا.

لقد كان الإسلام في مشروعاته العولمية دائماً يحترم ويقدر الاختلافات. فالعولمة بمنظور الإسلام ينبغي ألاّ تعني بحال من الأحوال الاتحاد والتماثل، وعبر صفحات القرآن الكريم، وكذلك عبر أطراف البشرية التي طبعها الإسلام بطابعه الحضاري يدوي التسبيح بحمد الله الذي خلق البشرية متنوعة الألسن والألوان، بل إن اختلاف



ستالين يحيي جنوده

ألسنتنا وألواننا إن هو إلا آية إلهية عظيمة في آفاق الكون: *وَمِنْ آياته خَلْقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتِكم وألوانِكم، إن في ذلك لآياتٍ للعَالمين*. **الروم**:٢٢.

إننا لم نأت إلى هنا لندعو إلى الإسلام، وليس هدفنا أن نذكر الآيات القرآنية الكثيرة التي مكنت للإسلام عبر العصور، وجعلت منه ديناً كونياً قوياً. لكنني أود القول بأن جميع البلاغات القرآنية موجودة في أساس مشروعات العولمة المقبولة إسلاميا. أما فيما يتعلق بالأنماط الثقافية، فقد شكَّل الإسلام، في حينه، الشرق الإسلامي والغرب الإسلامي، ولكن هذا لم يكن يعني إنكار الشرق والغرب اليهوديين ومسحهما، ولا إنكار الشرق والغرب النصرانيين ومسحهما، ولا داعي للإشارة بصفة خاصة إلى أن المسيحيين واليهود وكثيرين غيرهم من أتباع الملل الدينية الموحِّدة يعدون في نظر الإسلام أصحاب ديانات سماوية - أي ديانات معترف بها. وقد أعلن الإسلام منذ زمن بعيد مبدأ التعايش مع الديانات الأخرى، وفي مدن الشرق الإسلامي اليوم توجد آلاف من أبراج الكنائس التي تزين المدن إلى جانب مآذن المساجد. ولم يتعرض اليهود قط في العالم المُعَوْلَم إسلامياً لأي محرقة، كما كانت لليهود، ولكثير من الطوائف المسيحية في إمبراطوريات المسلمين مشروعاتهم الخاصة للعولمة،

والتي وضعوها طبقًا لحاجتهم الذاتية.

وأعتقد أنني لست الوحيد في هذه القاعة الذي يعرف أنه قبل الثورة الفرنسية التي رفعت شعارات «الحرية، الإخاء، المساواة» كانت في العالم حرية، وكان الناس يعدّون إخوة، وكانوا متساوين في فرص الحياة. ومن الخطر الكبير أن تنسى عولمة اليوم هذه الحقيقة، وأن تكتفي بالاعتماد على قائمة الحريات التي ظهرت منذ عهد غير بعيد في إعصار الثورة الفرنسية.

Extra Deum nulla Salus

لا نجاة بعيدًا عن الله

أعتقد أنني طرحت في خطوط عريضة الأسس التي انطلقت منها الفلسفات والتعاليم الإسلامية المتنوعة التي يمكن أن تكون اليوم ذات فائدة كبيرة لنا في تعريف العولمة الحاضرة، ولا تزال أمامنا مسائل كثيرة، أهمها مسألة النجاة والفلاح.

كانت للإسلام - في الكثير من مراحل تاريخه - مشروعات ناجحة للعولمة الروحية والثقافية والحضارية، لأن الحكمة الخالدة كانت دائمًا حية في النظرة الإسلامية للعالم

ويجدر بنا جميعًا أن نتسابق في هذه الدنيا من أجل الخلاص. حتى العولمة التي نتحدث عنها ينبغي ألاّ تكون مادية صرفًا وجريًا عديم الشفقة وراء الثراء. وينبغي أن تكون العولمة على صلة بالنجاة، لأن نوع النجاة في الآخرة يعتمد - إلى حد كبير - على طريقة الحياة في الدنيا.

لكن يمكنني القول بأن الإسلام سهّل عملية النجاة؛ فبقدر ما نادى الإسلام بالتحرر من حالة «الشعب المختار»، وبقدر ما نادى بالتحرر من الهيمنة الرهبانية والقبلية والقومية والعنصرية واللغوية لفئة على فئة أخرى، بالقدر نفسه نادى الإسلام أيضًا بالتحرر من الوساطة بين الإنسان وربه. ومن أول صفحة إلى آخر صفحة في القرآن الكريم يتردد صدى ما يمكن أن أعبر عنه باللاتينية بعبارة: EXTRA DEUM NULLA SAL-US - لا نجاة بعيدًا عن الله!.

ومن تلك الفكرة وتفسيرها الصحيح يمكننا اليوم أن نقدم الكثير للعمليات العالمية. وإذا كان الله ربنا جميعًا، فإن ما خلقه الله أيضًا، كالأرض مثلاً، مسخر لمنفعتنا جميعًا، (ولكن علينا نحن أن نقدم الخير للأرض والسماء). زد على ذلك أنه لا توجد في العقيدة الإسلامية قارة مقتصرة على المسيحية وحدها، ولا قارة مقتصرة على الإسلام وحده ولا قارة مقتصرة على البوذية وحدها!

ومن ثم، فالإسلام لا يقسم العالم أقاليم مقدسة وأخرى مدنسة، لأننا عند كل موضع قدم في منطقة مقدسة، ومملكة الله في كل مكان. وتبعًا لذلك لا يوجد غرب مقصور على المسيحية، كما لا يوجد شرق مقصور على الإسلام! فكل الأديان تجد الترحيب في كل بقعة على أرض الله، لتعيش معًا حيث يكون ذلك ممكنًا، ومتجاورة حيث يتوجب ذلك! وهذا يجب أن يصبح مبدأ مهمًا من مبادئ العولمة المعاصرة.

ويمكن للعملية العالمية المعاصرة أن تستفيد من كثير من التعاليم الإسلامية الخالدة، وكذلك من التعاليم الخالدة للأديان الأخرى، وأن تعلن ما أسميه بمضاعفة القدس وسراييفو في كل أنحاء العالم. فقد التقت في القدس وسراييفو اليهودية والمسيحية والإسلام، وكان ذلك اللقاء نتيجة عمل جيد مقدم ضمن تصور عولمي. وهناك تقف المساجد والكنائس والصوامع جنبًا إلى جنب، ولا ضير في أن يقيم البوذيون معابدهم في القدس وسراييفو، لو شاءت إرادة الله أن يقطن في هاتين المدينتين عدد من البوذيين أيضًا.

أما إذا لم تأخذ العملية المعاصرة للعولمة في الحساب مفاهيم الماضي للعولمة، ولم تستفد من جوانبها الخيرة، فإن لنا أن نتوقع هلاك القدس وسراييفو.

العولمة مقابل صراع الحضارات

إننا نلاحظ اليوم مفهومين متباينين في وسائل الإعلام

الكبرى في الغرب والشرق على حد سواء، وهما العولمة وصراع الحضارات.

وهذان المفهومان، مع تعارضهما، مرتبطان فيما بينهما كالماء في أوعية متصلة. ونجد أقوى الأصوات المؤيدة للعولمة ولصراع الحضارات في الغرب، وهي قوى بوجه خاص في الغرب الأمريكي، وفي الغرب الناطق بالإنجليزية. وهذا يدل على أن الغرب يواجه معضلات كبرى، قد تكون كتلك التي تنبأ بها أوزوالد شبنغلر في مؤلفاته. ومن المؤكد أن انهيار الغرب أو انهيار أي جزء من البشرية لن يجلب اليوم حصاداً مريحاً لأي جهة كانت، والعالم منذ القدم كان كُلاً واحداً، لا سيما عالم اليوم.

لقد صاغت وسائل الإعلام في الدول العربية لفظ العولمة من خلال تحليلها لهذه الظاهرة كتسمية محلية لها، وبداهة تطرح من الناحية الأخرى تخوفات حول إن

بقدر ما نادى الإسلام بالتحرر من الهيمنة الرهبانية والقبلية والقومية والعنصرية واللغوية لفئة على فئة أخرى، نادى أيضًا بالتحرر من الوساطة بين الإنسان وربه

كانت للعولمة غايات خفية شريرة، أم إنها طريق أهدأ، أو طريق احتياطي يسير عليه «صراع الحضارات».

ولذلك، اسمحوا لي أن أطرح بعض المعضلات الماثلة في كتابات المسلمين حول عملية العولمة من جهة، والشكوك التي تحيط بصراع الحضارات من جهة أخرى.

ولا أدري أكان الحضور يعرفون أن عبارة «صراع الحضارات» استخدمت قبل ما يقرب من سبعين عاماً. فقد استخدم بازل ماثيوز عبارة صراع الحضارات في كتاب له بعنوان: A Study in the Clash of Cvilisations: Young Islam on Trek الإسلام الفتي في رحلة شاقة: دراسة في صراع الحضارات)، الذي صدر سنة ١٩٢٦ في لندن، فقد استعمل ماثيوز هذا المصطلح في عنوان الكتاب نفسه. ومما يثير اهتماماً خاصاً عند المسلمين أن ناشر هذا الكتاب هو Church Missionary Society (جمعية التبشير المسيحي، أو الجمعية التبشيرية الكنسية) في لندن، ولذا فإن هنتينجتون لم يأت بجديد، ولعله ينتمي إلى الحلقة نفسها أو النمط الفكري نفسه.

لكن الملاحظ بصفة خاصة في كل ما يُسمى بنظريات «صراع الحضارات» اتخاذ الإسلام عدواً، كوجهٍ آخر، كوجه مضادٍ ونقيض.

والمشكلةُ مع نظرية صراع الحضارات أن لها «طريحة» و«نقيضة» ولكن ليس لها «جمعية»، وما أحوج سبعة مليارات من البشر اليوم إلى عملية العولمة في المقام الأول كعملية جمعية مرنةٍ، جمعيةٍ تناسب جميع الأديان والثقافاتِ العالمية الكبرى.

أما الملاحظة المهمة الثانية، فتتعلق بالترقية القسرية لعملية العولمة. وهذا القسر يعطي صورة سيئة للعولمة، مما يجعل الناس في العالم الإسلامي ينظرون إلى العولمة في أحيان كثيرة - محقين أو مخطئين - بأنها تغريبٌ مُقَنَّعٌ.

والمشكلة الأساسية هنا هي مسألة العلمانية، فإذا اختارت عملية العولمة المعاصرة الاتجاه العلماني، فإن استغلال الشمال للجنوب اقتصادياً سيكون مجرد مرافق أو نتاج ثانوي للاستغلال الروحي(٨).

وحقّاً، إذا كان الغرب العلماني الذي يمثل أقوى حضارة تقنية اليوم هو حامل راية تيار العولمة المعاصرة، فإن وسائل الإعلام والمثقفين المسلمين يتساءلون هل رسالة تيار العولمة هذا ستتمخض عن علمنة البشرية المسلمة والطاوية والبوذية؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فإنهم يعبرون عن اعتراضاتهم وتحفظاتهم إزاء هذه العولمة. فعولمة كهذه لا تختلف عن الاستعمار، غير أن الاستعمار كان يفرض المسيحية، وما زال يعلن عن ديانة واحدة في الأفق، أما العولمة - في نظر الكثيرين - فإنها تفرض العلمنة من دون أي إشارة إلى الإيمان بالله.

عملية العولمة اليوم عليها أن تهتم بوقاية القمر والفضاء القريب من الكرة الأرضية

ويعبر المؤلفون المسلمون عن تخوفهم الشديد إزاء ذلك التطور المحتمل والتفسير لمفهوم العولمة.

وعليه، فإنه توجد مخاوف أكيدة من أن العولمة هي مرادف لعملية علمنة العالم ؛ ولذلك، كثيراً ما يفسر «صراع الحضارات» في العالم الإسلامي بأنه وجه آخر أكثر خشونة لعملية العولمة. لذلك يجب على زملائنا النصارى في الغرب أن يبذلوا المزيد من الجهد لإضفاء الجانب الروحاني على عملية العولمة المعاصرة. فالعولمة إذا نسيت الله سبحانه وتعالى فإنها لن تنجح في أي مكان. وفي عصر تعرضت فيه البشرية لأنواع مختلفة من القنابل وذاقت فيه ويلات الحروب في القرن العشرين خلال عدة سنوات من الديكتاتورية النازية والشيوعية، فنحن أحوج ما نكون إلى الله عز وجل. ويوصينا هايدجر بأنه «لا منقذ لنا سوى الله الواحد الأحد». وأنا لا أذكر النازية والشيوعية هنا اعتباطاً لأن النازية والشيوعية كانتا أيضاً محاولتين غربيتين للعولمة.

وما لم نقبل القيم الروحية لأدياننا على أنها قيم لا تتجزأ من العولمة، وما لم يقبل الله سبحانه وتعالى بوصفه منقذاً لنا، «فسينقذنا» مرة أخرى هتلر وستالين ! والقرن العشرون قد أثبت لنا أنه لا يوجد أمامنا خيار ثالث.

وتجربة أوربا في هذا الشأن واضحة وضوح النهار. وهذا ما يدفعني لأكرر مرة أخرى أنه على زملائنا المسيحيين أن يضاعفوا من مشاركتهم في إدخال العناصر الروحية في عملية العولمة التي نحن بصددها اليوم.

وأود في ختام محاضرتي أن أذكر معضلة أخرى تتعلق بالتقنية وبالسؤال المطروح: هل عملية العولمة تمثل في حقيقتها عملية نشر التقنية والعقلية التقنية في العالم أجمع؟ أو بعبارة أخرى، هل العولمة تعني تقنين العالم؟

لقد أصبحت التقنية اليوم كائناً قائماً بذاته، وفي كل مكان تعاني البشرية من لامسؤولية العقلية التقنية، ولكن، بما أن العالم واحد، فإن تصدير لامسؤولية العقلية التقنية لن يجلب السعادة ولا الحصاد الوافر لأحد، بما فيهم المصدرون لتلك اللامسؤولية.

كل هذه المعضلات تلتقي عند نقطة واحدة، أو على سؤال واحد : هل يمكن أن تنجح عملية العولمة إذا لم ترافقها دعوة روحية صادقة وإيمان عميق بالله عز وجل؟

أعتقد أن الإسلام يجيب عن هذا السؤال بالنفي. فقد أثبت القرن العشرون بشكل نهائي أن الإنسان لا يستطيع أن يكون بديلا عن الله عز وجل.

الهوامش والمراجع

* هذه المقالة كانت محاضرة ألقاها الكاتب في هانوفر بألمانيا. وكثير من الآراء التي احتوتها موجهة للقارئ الغربي على وجه الخصوص. [الفيصل].

١. دائما أحب أن أقول عن البوسنة والهرسك: إنه البلد الذي ولد من صفحات الإنجيل والقرآن. وحقيقة مثل ذلك الانطلاق الروحي هي التي منحت وطني البوسنة والهرسك مزيداً من السعادة أكثر مما جلبت عليه من الشقاء. فالحرب التي كادت تدمر وطني تماماً بين عامي ١٩٩٢و ١٩٩٦م، كانت ضد العولمة من جوانبها كافة. وللأسف فقد تعامل صمويل هنتينغتون مع الحرب في البوسنة ببساطة وكأنها مجرد دليل آخر وملاحظة هامشية إضافية في «بحثه» حول ما يسمى بصراع الحضارات. ولكن كما اختفت سخافة ما يسمى «بالصراع الطبقي» من صفحات الصحف، ستصبح السخافة المسماة «بصراع الحضارات» أيضاً طي النسيان.

٢. أستطيع القول بأننا في وقايتنا للقمر والفضاء القريب من الكرة الأرضية سوف نترك لأحفادنا بقية طبقات السماء الزرقاء الصافية نظيفة وسليمة.

٣. لقد كتب عن هذا بمزيد من التفصيل أدوارد سعيد في كتابه «الثقافة والإمبريالية - Culture and Imperialism» وكذلك في مؤلفه «الاستشراق - Orientalism».

٤. المسلمون الصوفيون غالباً ما يعرفون الإسلام بأنه «لقاء بين الله الخالق وبين الإنسان المخلوق».

٥. حول أزمة العلاقة بين الإنسان والطبيعة راجع كتاب: الإنسان والطبيعة - Men and Nature للمؤلف سيد حسن نصر، من منشورات :
Allen and Unwin - London, 1968.

٦. يقول فيليب حتي في كتابه: تاريخ العرب
(History of the Arabs 1981- (Macmillan International College Editions, London,) «... لكن ما جعل هذا عصراً بارزاً بصفة خاصة في سجلات التاريخ في العالم هو حقيقة أنه شهد أهم صحوة فكرية في تاريخ الإسلام وواحدة من أبرز الصحوات الفكرية في كل تاريخ الفكر والثقافة» (ص ٣٠٦).

٧. للمزيد من الاطلاع على مفهوم التعارف والتفاهم بين مختلف الشعوب، الذي هو شيء أساسي في القرآن الكريم، راجع مناقشة تشاند مظفر بعنوان: العولمة والعدالة الشاملة Globalization and Global Equity المنشورة في تعقيب Commentary الحركة الدولية من أجل عالم عادل International Movement for a Just World، العدد ٣٧ - سيلانغور Selangor، يونيو ٢٠٠٠.

٨. حول مخاطر الاستغلال الاقتصادي راجع تشاندرا مظفر The Global Rich and the Global Poor - Seeking the Middle Path تعليق: الحركة الدولية من أجل عالم أفضل - العدد ٤٠ - سيلانغور - سبتمبر ٢٠٠٠م.

مع اليهود مرّتين

بشير العيسوي
الرياض - السعودية

استضاف مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض محاضرتين، فصل بينهما ثلاثة أسابيع. كانت الأولى بعنوان «اليهودي في الثقافة المعاصرة» للأستاذ الدكتور سعد البازعي بتاريخ ٢٩جمادى الأخرة سنة ١٤٢٢هـ الموافق ١٧سبتمبر/أيلول عام ٢٠٠١م، أما الثانية فقد كانت بعنوان «رؤية جديدة حول تاريخ فلسطين» للأستاذ الدكتور توماس طومسون بتاريخ ٢١رجب سنة ١٤٢٢هـ الموافق أكتوبر/تشرين الأول عام ٢٠٠١م وكان لي شرف الحضور، وكذا شرف التعقيب على المحاضرتين والمحاضرين في حينهما، وإن كنت المعقب الوحيد الذي عقب على بروفيسور طومسون، وكان تعقيبي بالإنجليزية كي أضمن وصول رسالتي بوضوح تام إليه تلافيا لأي تحريف أو تدوير للمعنى في أثناء الترجمة الفورية، التي قدمها أستاذ فاضل ومتمكن من كلية الآداب بجامعة الملك سعود.

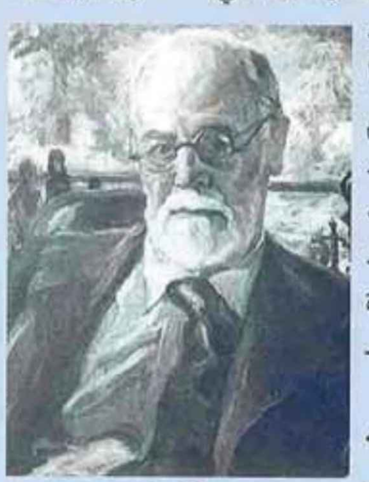
واليهودي بيّن واضح في المحاضرتين: الأولى من عنوانها إلى مقدمتها إلى محتواها وصولاً إلى خاتمتها؛ أما اليهودي في المحاضرة الثانية فهو يأتي في تلافيف حقائق تاريخية استند صاحبها في سردها وتضمينها إلى الإنجيل فقط. ولقد رأيت أن أكتب عن هاتين المحاضرتين للقارئ الذي فاته أن يحضرهما، ولبلورة بعض النقاط وتوضيحها والتي قد يتخطاها، أو يمر عليها الأكاديميون وهم يخاطبون أكاديميين مثلهم، أو يتصورون ذلك. ولست أرى فصلاً عضوياً بين محتوى المحاضرتين، وإن كانت الأولى ملأى بالأدب والثقافة والفكر، والثانية ملأى بالحقائق التاريخية الإنجيلية الجامدة التي دعت نفراً من المفكرين الذين حضروها إلى النفور منها والانسحاب قبل أن يكمل المتحدث محاضرته التي استغرقت الساعة.

اليهودي.. هنا وهناك

لذا، سوف أبدأ بمحاضرة البازعي ثم أثني بمحاضرة طومسون إلا أن الإشارات ستكون متداخلة بين الاثنتين وذلك لما يجمعهما من سمت مشترك ألا وهو اليهودي الآن واليهودي فيما مضى.

وقد ركز طرح البازعي في إسهامات اليهود في الثقافة والفكر والأدب في العصر الحديث و كذا العلوم الطبيعية والتطبيقية. وسيكون سرد الأسماء والإنجازات التي قام بها اليهود من باب التكرار المجوج والإطناب غير المستحب. إلا أن البازعي أضاء نقطة وأغفل نقطة. أما الإضاءة فكانت تركز في خروج الكتابات اليهودية من الحاخامية المتخصصة إلى العلوم التطبيقية والتجريبية والفكر والأدب الإنساني.

وهذا ينطبق فقط على المكون الفكري اليهودي في أوربا فقط حينما خرج من جيتو العزلة اليهودي، وقد أغفل البازعي أن يشير إلى أن اليهود في العالم الإسلامي قد خرجوا من هذا الجيتو قبل أن يهاجروا إلى أوربا بعدة قرون، وهذا يعطي فكرة جيدة عن المجتمع الثقافي الإسلامي في عصور مضت حيث كانت الحرية الفكرية مضمونة للجميع تحت مظلة الدولة الإسلامية دون تمييز لجنس على جنس أو لدين على آخر. أما أوربا التي عرفت التمييز والاضطهاد العنصري على مر تاريخها، فما كانت لتسمح لليهود أو غيرهم أن يعبروا عن أنفسهم إلا أن يكونوا مسيحيين كنسيين مخلصين. وما إن انبلج فجر الحرية الفكرية في أوربا في أواخر القرن السابع عشر وبدايات القرن الثامن عشر ومع حركات التنوير الفرنسية التي امتدت إلى أوربا كافة، حتى اهتبل اليهود الفرصة وخرجوا من معابدهم، وكسروا جدار الجيتو الذي حبسوا فيه أجسادهم وعقولهم، فأخذوا يؤلفون ويكتبون دون قيد أو شرط بادئين بالأدب والفكر والاقتصاد، ومنتهين بعلم النفس على يدي زيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م) وانشطار الذرة على يدي ألبرت أينشتاين (١٨٧٩-١٩٥٥م).

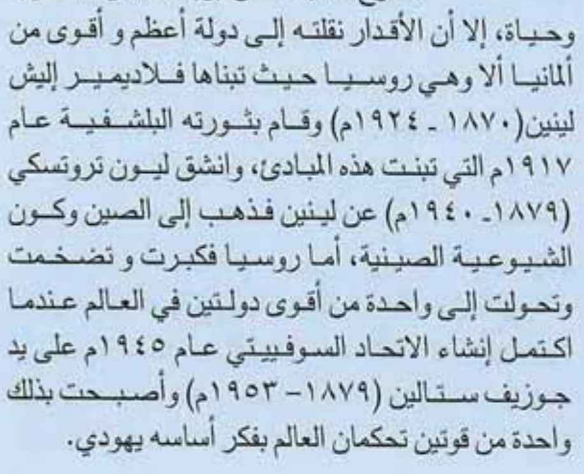


فرويد

لكن النقطة التي أغفلها البازعي، أو أنه ضمنها ولم يفرد لها مكانًا، فهي قد تُقَدَّمُ في سؤال مضمونه: لماذا أكبَّ اليهود على العلوم التجريبية و التطبيقية والاقتصاد وغيرها هذا الإكباب اللافت؟ وقد تكون الإجابة عنه بسيطة كأن تقول: إنها حالة البلوغ الفكري، أو مساهمة إنسانية حان وقتها.

إلا أن ذلك يستدعي سؤالاً ثانيًا: إلى أي مدى كان اليهود صادقين في إضافة مساهمة حقيقية إلى الفكر الإنساني على ظهر البسيطة؟ وهنا قد نطرح إجابة، من الممكن أن يجادل الآخرون حول صحتها، هي أن اليهودي وجد أن الجيتو يجب أن يشمل كل العالم وكل العوالم. بمعنى أن هذه العلوم يجب أن تكون علومًا محتكرة ومتحكمًا فيها ومسيطرًا عليها حتى يصبح العالم بأجمعه في قبضة يدهم.

وإن كنت سأعطي أمثلة فإنني أعطي مثالاً فريدًا من حالة بيل جيتس وشركته «مايكروسوفت» التي أطبقت على أنفاس العالم، والتي استدعت أن تقوم الشركات الأمريكية المنافسة برفع دعوى احتكار عليها وكسبتها بأمر المحكمة الفيدرالية، وتمّت قسمة مايكروسوفت إلى شركتين حتى تم فك الاحتكار والسيطرة على اقتصاديات الحاسوب (الكمبيوتر) وبرمجياته التي ما عاد إنسان أو مؤسسة على ظهر الأرض تستغني عنها صباح مساء وفي جميع لغات العالم. ويحق لي أن أعدّ ألبرت آينشتاين مثالاً آخر في العلوم التي تحتكر العالم وتتحكم فيه؛ فقد عرض عليه أن يكون أول رئيس لإسرائيل عند إنشائها عام ١٩٤٨م، إلا أنه رفض ذلك، لا عن ترفُّع وتعفّف وبعدٍ عن السياسة، لكن وجد أن خدمته لليهود وللدولة العبرية ستكون أفضل بكثير من خلال تفريغ وقته لعلوم الذرة حيث يعمل و يتحكم في أخطر سلاح في العالم أجمع.



وإذا كان لنا أن نعود بالتاريخ إلى الوراء قليلاً فإن مثالاً ثالثًا قد يتمثل في النظرية الاشتراكية التي أرساها كارل هينريك ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) وفردريك إنجلز(١٨٢٠-١٨٩٥م) في كتاب رأس المال (١٨٦٧م) ذي الأجزاء الخمسة، الذي ألفه ماركس بالألمانية، وما كان يتصور أبدًا أن يكون صالحًا للتطبيق خارج ألمانيا. كان يريده للألمان دستورًا وحياة، إلا أن الأقدار نقلته إلى دولة أعظم و أقوى من ألمانيا ألا وهي روسيا حيث تبناها فلاديمير إليش لينين(١٨٧٠ - ١٩٢٤م) وقام بثورته البلشفية عام ١٩١٧م التي تبنت هذه المبادئ، وانشق ليون تروتسكي (١٨٧٩-١٩٤٠م) عن لينين فذهب إلى الصين وكون الشيوعية الصينية، أما روسيا فكبرت و تضخمت وتحولت إلى واحدة من أقوى دولتين في العالم عندما اكتمل إنشاء الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٥م على يد جوزيف ستالين (١٨٧٩- ١٩٥٣م) وأصبحت بذلك واحدة من قوتين تحكمان العالم بفكر أساسه يهودي.

صحيح أن الاتحاد السوفييتي تفكك وانحلّ، إلا أن الصين باقية بفكرها الشيوعي. فتفكك الاتحاد السوفييتي يعود إلى أنه وضع الروس والدول التي احتلوها مثل أوكرانيا وأذربيجان و كازاخستان و طاجيكستان، وبقية الجمهوريات الست عشرة التي صنعت الاتحاد السوفييتي في جيتو كبير تحكمه أخلاقيات الجيتو اليهودي الألماني أو البولندي وأفكاره مثلاً. ولننظر إلى شكل الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م عند تفككه وانحلاله. كان هناك ما يسمى الستار الحديدي، وهذا ببساطة يعيدنا إلى أساس فكرة الجيتو التي تراوح مكانها في الفكر اليهودي العبراني، وإذا كان التمثيل ممكنًا فإن حي السكاكيني حيث سكن يهود مصر قبل ثورة يوليو/تموز ١٩٥٢م مثلاً كان خاصًا باليهود، على الرغم من استيلائهم على جانب كبير من الاقتصاد المصري متمثلاً بمجموعة المتاجر الكبيرة، منها عمر أفندي و بنزايون عدس وشيكوريل وريفولي وجاتينيو وصيدناوي وشملا، إلا أن حي السكاكيني الذي يقع في العباسية، في أطراف القاهرة وقتها، ظل مكان سكنهم المفضل على الرغم من بُعد محالهم بعض الكيلومترات عن بيوتهم. لقد انهار الاتحاد السوفييتي و تفكك كبيت من الكرتون؛ لأنه حبس حرية الإنسان السوفييتي في جيتو خلف ستار حديدي، وعزله عن العالم، ووضعه في حالة من التخلف والبؤس يعاني منها حتى اليوم، وما التقدم التقاني (التكنولوجي) الذي أحدثه إلا قشرة ضخّمها الإعلام الروسي الذي أثبتت الأيام أن رؤوسه كانوا يهودًا اقحاحًا صنعوا الشيوعية، ومعها صنعوا أوهامها وثبتوا معها عالمًا طوباويًا أضاع آمال الملايين وأحلامهم، كما أضاع ستالين دماء ما يقارب العشرين مليون نفس بشرية، ليقيم جيتو بستار حديدي سرعان ما هوى إلى غير رجعة.

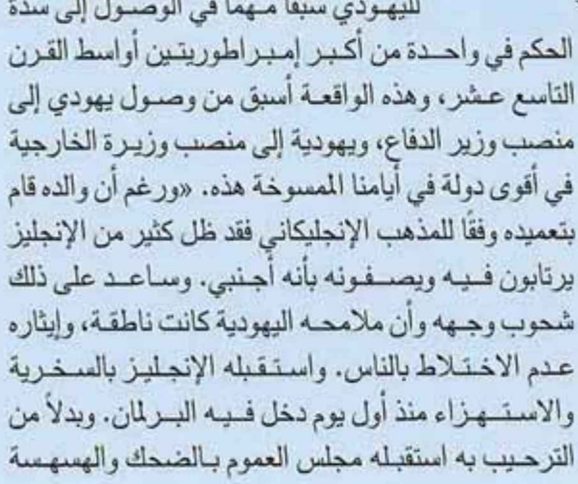
علم في خدمة اليهود

لم يكن العلم اليهودي إذن، أو الاقتصاد، أو حتى العلوم التجريبية خدمة للإنسانية عامة بقدر ما كانت خدمة للعنصر اليهودي الذي رسخ عبادة اليهودي ونشر فكر اليهودي العبراني في كثير من الأحيان. ولذا يمكننا القول: إن اليهود اتخذوا هذا الفكر و هذه العلوم ليحكموا العالم من خلالها قبل أن يتيقنوا من وجود دولة خاصة بهم يقتنصونها من بين أضلاع العرب و المسلمين بصفة خاصة.

وإذا كان تشارلز ديكنز (١٨١٢- ١٨٧٠م) في قصته الأماني العظيمة (١٨٦١م) قد سخر من اليهودي الألثغ وحوَله، كما قلت في تعقيبي على محاضرة البازعي، إلى شخصية تثير الضحك عند نطق أول حرف، فإننا نتعجب من ذلك أشد العجب. فقد كان بنجامين دزرائيلي (١٨٠٤- ١٨٨١م) الذي تولى الوزارة عام ١٨٦٧م ثم في الأعوام (١٨٧٤- ١٨٨٠م) معاصرًا لديكنز وكاتبًا مقروءًا ومعروفًا، وأصبح فيما بعد رئيسًا لوزراء الملكة فكتوريا التي حكمت بريطانيا من عام ١٨٣٧م إلى عام ١٩٠١م وسمى العصر باسمها، وصل دزرائيلي إلى قصر الملكة فكتوريا (١٨١٩- ١٩٠١م) وقد خلا من زوجها حبيبها الأمير ألبرت (١٨١٩- ١٨٦١م)، دخل ليملأ جانبًا من الفراغ الذي تركه الأمير الراحل، فتعجب به الملكة فكتوريا و ينشأ ما يمكن أن تتطرق إليه دوائر الغمز واللمز، وفجأة نجد الملكة فكتوريا تعين دزرائيلي رئيسًا لوزرائها وعمره اثنان وسبعون عامًا. وكانت هذه سابقة خطيرة تسجل لليهودي سبقًا مهمًا في الوصول إلى سدة



شكسبير



الحكم في واحدة من أكبر إمبراطوريتين أواسط القرن التاسع عشر، وهذه الواقعة أسبق من وصول يهودي إلى منصب وزير الدفاع، ويهودية إلى منصب وزيرة الخارجية في أقوى دولة في أيامنا الممسوخة هذه. «ورغم أن والده قام بتعميده وفقًا للمذهب الإنجليكاني فقد ظل كثير من الإنجليز يرتابون فيه ويصفونه بأنه أجنبي. وساعد على ذلك شحوب وجهه وأن ملامحه اليهودية كانت ناطقة، وإيثاره عدم الاختلاط بالناس. واستقبله الإنجليز بالسخرية والاستهزاء منذ أول يوم دخل فيه البرلمان. وبدلاً من الترحيب به استقبله مجلس العموم بالضحك والهمهمة

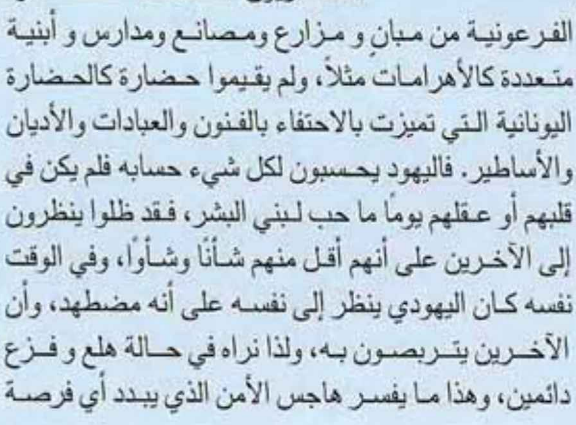
عندما وقف كعضو جديد في البرلمان ليلقي أول خطاب سياسي، الأمر الذي دفعه إلى رمي القفاز في وجوه المستهزئين به، فقد قال لهم: إن اليوم سيأتي حين يصغون إلى ما يقول. وعايره الإنجليز بيهوديته فلم يهتز له جفن وظل صامداً كالصخرة. وفي معايرتهم إياه وصفه أوكنل بأنه وريث اللص الذي كذب على المسيح في أثناء صلبه معه. أما لوكهارت، قريب الروائي المعروف والتر سكوت، فقد وصفه بأنه محتال يهودي على أعلى مستوى. ونجح دزرائيلي في الاحتفاظ بهدوئه أمام هذا الطوفان الجارف من التجريح والإهانة. تحمل دزرائيلي معايرة الإنجليز إياه مثلما تحمل أسلافه اليهود خسف الأمم بهم. وذات يوم عبر عن وجيعته لأخته دوروثي فقال لها: «إنهم لا يكرهونني لسياستي بل يكرهونني لنفسي. وأساء إليه زعيم المعارضة في البرلمان السير روبرت إنجليز عندما خاطبه قائلاً»: إن اليهود نوع من الناس لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم من الإنجليز فهم شعب من الغرباء، ولم يشفع لبنيامين أن أباه عمده كمسيحي وهو في الثانية عشرة من عمره لأسباب اجتماعية ودنيوية. وحدث ذلك يوم ٣١ يوليو/تموز عام ١٨١٧م؛ ولكن الواضح أن دزرائيلي ظل طوال حياته يشعر بأنه يهودي في أعماقه. ويبدو أن اللغة الطنانة التي استخدمها دزرائيلي في خطبه، والملابس المزركشة البراقة ذكرت الإنجليز بأنه ينتمي إلى الشرق أكثر من انتمائه إليهم». (رمسيس عوض، صورة اليهودي في الأدب الإنجليزي، القاهرة: كتاب الهلال دار الهلال، مارس ١٩٩٩م، ص ١٢٩ ـ ١٣٠).


أينشتاين

جيتو مفتوح

وهذا يعود بنا إلى أساس الفكر اليهودي الذي يريد السيطرة على العالم بكل السبل بادئين بالدعارة وحتى سدة الحكم في دول العالم ليحيلوه إلى جيتو مفتوح يفعلون به ما تصوره لهم أهواؤهم، حتى إذا حققوا مآربهم تركوه ينهار كما فعلوا بالاتحاد السوفييتي، وليته يكون عبرة لمن يعتبر، فقد تبنى بول كنيدي في كتابه «سقوط وصعود القوى العظمى»، سقوط الولايات المتحدة الأمريكية قبل الاتحاد السوفييتي، إلا أن العكس حدث، وحينما عاتبه الباحثون في ذلك، ظل على موقفه وأضاف أن سقوط القوى الكبرى قد يكون لحظياً إلا أن حالة الولايات المتحدة الأمريكية تحتاج إلى بعض الوقت وقد يكون الوقت هنا عقداً أو عقدين.

قد نخلص من ذلك إلى أن الإسهام اليهودي في ثقافة الإنسان وعلومه في العصر الحديث لم يكن خالصاً لوجه الله، وقد شهدت بذلك ابنة زيجموند فرويد بنفسها حينما أعطيت أستاذية كرسي علم النفس بالجامعة العبرية إذ سئلت، وهذه الواقعة من محاضرة البازعي: «يقولون: إن علم النفس تنقضه قواعد العلم التجريبي، وإنه غير خاضع للتجريب كبقية العلوم، وإنه مجموعة من الأفكار التي لا ترقى إلى الحقائق، وإنه علم يهودي - ما رأيك في ذلك؟. فأجابت: إذا كانت الأمور الثلاثة الأولى صحيحة فإنني أفخر بالمقولة الرابعة: إن علم النفس علم يهودي».



وقد ينطبق هذا على معظم العلوم التي أسهم فيها اليهود. إذاً اليهود لم يقيموا حضارة يهودية كما أقام المصريون القدماء الحضارة الفرعونية من مبانٍ ومزارع ومصانع ومدارس وأبنية متعددة كالأهرامات مثلاً، ولم يقيموا حضارة كالحضارة اليونانية التي تميزت بالاحتفاء بالفنون والعبادات والأديان والأساطير. فاليهود يحسبون لكل شيء حسابه فلم يكن في قلبهم أو عقلهم يوماً ما حب لبني البشر، فقد ظلوا ينظرون إلى الآخرين على أنهم أقل منهم شأناً وشأواً، وفي الوقت نفسه كان اليهودي ينظر إلى نفسه على أنه مضطهد، وأن الآخرين يتربصون به، ولذا نراه في حالة هلع وفزع دائمين، وهذا ما يفسر هاجس الأمن الذي يبدد أي فرصة

على الأراضي الفلسطينية المحتلة، فهم يخافون من الآخرين، وتظل «فوبيا الديموجرافيا» أي الخوف من الخريطة السكانية الجغرافية شبحاً وكابوساً يقلق جميع المسؤولين في حكومات الدولة العبرية على مر العصور، وهذا ما يقودنا إلى موضوع المحاضرة الثانية حول «رؤية جديدة حول تاريخ فلسطين» للأستاذ الدكتور توماس طومسون.

نمطية مرفوضة

في الترجمة لحياة البروفيسور توماس طومسون نجد أنه من مواليد عام ١٩٣٩م وهو عام مهم في حياة أوروبا، حيث بدأت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، وهو من مواليد الدانمارك إلا أنه تخرج في أوكسفورد، وهي معقل الدراسات الكنسية المسيحية، وبالفعل فقد تخصص في الدراسات الإنجيلية، وله فيها عدد من المؤلفات، منها: «تاريخ الحكايات البطريركية»، و«التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي»، و«الإنجيل في التاريخ»، و«الآثار التوراتية وأسطورة إسرائيل». وواضح من عناوين هذه الكتب وكذا من محتواها أنها تستند إلى الإنجيل بعهوده وحواشيه المختلفة بوصفه مرجعية مطلقة في تناول هذه الموضوعات والرجل لا ينكر ذلك ولا يتخفى منه.

وإذا كانت الفترة الزمنية التي فصلت بين المحاضرتين، اللتين كان اليهودي فيهما يعدّ عنصراً جوهرياً أساسياً لازماً، أسبوعين فقط، فإنه يجب علينا أن نحيي هذا التوجه الذي أثنيت عليه في تعقيبي، ومن ثم شكر الجهة التي أخذت المبادرة، وهي مؤسسة الملك فيصل ممثلة في مركز البحوث و الدراسات الإسلامية، وعلى رأسها صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، للتطرق إلى هذه الموضوعات اليهودية الصرف. إن هذا التوجه واجب ومهم. ذلك أننا ألفنا، وإلى عهد قريب، أن ننظر إلى اليهودي على أنه شخص قميء قذر ذو أنف كبير أحدب، وأنه اليهودي الشحاذ وأنه المرابي إذا اغتنى، وأنه البخيل الذي لا يستحيي أن يقضم لحم صدر إنسان وفاءً لدينه كما فعل شايلوك في مسرحية تاجر البندقية (١٥٩٦-١٥٩٧م) لوليم شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م)، أو كما حكى لي صديق أمريكي من أصل فلسطيني، كان يمازح جاره اليهودي الذي اشترى من متجر الأول بعض الأشياء، فبقي للجار اليهودي سنتان، فقال صديقي لليهودي «لن أعطيك السنتين»، وما كان من اليهودي إلا أن ذهب إلى ركن الخضار في المتجر وأخذ حبة باذنجان، وقضم منها قضمة ومضغها وبلعها وصديقي غارق في الضحك، إلى أن قال جاره اليهودي: «هكذا استوفيت السنتين يا حليم!!». وهذا هو شايلوك القرن العشرين الذي لم يبتعد كثيراً عن شايلوك شكسبير الذي كتب في عقد سداد الدين للرومي أن يسترد رطلين من «اللحم»، هكذا الكلمة عائمة مطلقة لم تحدد من أي حيوان أو طير، كعادة اليهود في صياغة عقودهم ومواثيقهم، حتى جاء موعد السداد ووفاء الدين، وكان الرومي قد خسر تجارته حيث غرقت سفينته، فكان أن طلب شايلوك سداد رطلي اللحم من صدر الرومي. إن هذه الصورة النمطية عن اليهودي قائمة حتى اليوم، إلا أن يهوداً آخرين خصصوا حياتهم لخدمة الدولة العبرية، وأبدعوا أيما إبداع في أقذر مهنة وحتى انشطار الذرة وصنع القنابل النووية – كل ذلك كان يصب في مصلحة دولتهم التي بنوها على أكتاف التقاعس العربي واعتماد العرب على صورة نمطية لليهودي أنه مسكين شحاذ بخيل، أو هكذا أراد إعلامنا أن يصوره، ولم يشعر بالإثم من إخفاء حقيقة مهمة هي أنه لمواجهة خصم ما يجب معرفة قدراته.

رفض آينشتاين أن يكون أول رئيس لإسرائيل؛ لأنه رأى أن خدمته لليهود وللدولة العبرية ستكون أفضل إذا تفرغ لعلوم الذرة للتحكم في أخطر سلاح في العالم

إن الذين وقعوا في هذا الضلال والوهم لم يكونوا مواطنين عاديين ولكن كانوا جنوداً بمئات الألوف على عدة جبهات عربية، وعليه كانت نكبة عام ١٩٤٨م التي أعقبتها هزيمة عام ١٩٥٦م ثم الهزيمة التي وصلت إلى النخاع العربي وكونت جيناته لمن شهدها ومن لم يشهدها؛ ففي ٥ يونيو / حزيران عام ١٩٦٧م أفقنا من نومنا وإذا بهذا اليهودي يحتل أراضي ثلاث دول كانت تعلن أن الغداء سيكون في تل أبيب، وأن العشاء سيكون مقسماً في حيفا

ويافا. وإذا نحن في الساعة العاشرة من صباح الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م نرى ما لا يمكن تصديقه، وقد أحكم جنود الدولة العبرية قبضتهم على أجزاء عزيزة من أراضي ثلاث دول عربية هي شبه جزيرة سيناء في مصر، و الجولان في سورية، وقطاع غزة في فلسطين التي كانت تحت الإدارة المصرية، إضافة إلى الضفة الغربية والقدس اللتين كانتا تحت الإدارة الأردنية. إن الهزيمة هزيمة وعي وهزيمة إدراك، وليست هزيمة عسكرية فقط. لذا وجب أن أحيي هذا التوجه الذي يدعو إلى مواجهة الخصم، الدولة اليهودية، وأن نعرف قدراته وإمكاناته حتى يمكن مواجهته، وفي هذا السياق تندرج قراءات وطروحات قام بها عدد من المثقفين من بينهم الدكتور محمد الرميحي، وبين أيدينا اليوم محاولة البازعي ثم محاولة توماس طومسون.

ردود أفعال

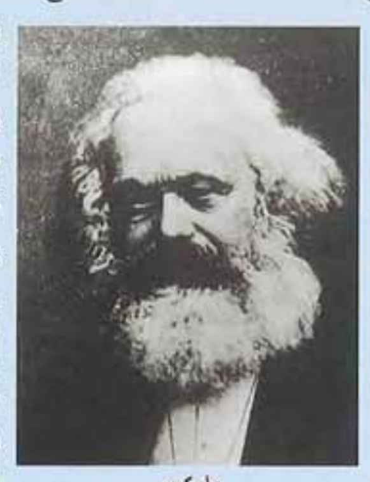
ذهب طومسون يمنة ويسرة محلّقًا في سماء البحث العلمي، ومبحرًا في لجة الحقائق الدينية، محاولاً الخلوص إلى حقائق علمية هي ثابتة إلا أنه أعطى لسامعيه عدداً من الانطباعات، وولد عدداً من ردود الفعل كانت تنحصر بين مستمع سلبي، بل طلب للمزيد من الإيضاح من هذا العلَم ومستمع رأى أنه لا يجوز الحديث بهذه الصراحة وهذا التبجيل عن اليهود، وخصوصاً أن مرجعية البحث كانت تعتمد على الإنجيل، ففضل بعض الحضور الانسحاب تاركين القاعة، ويشارك هؤلاء في غضبهم واستنكارهم عدد من السائلين الذين وجهوا أسئلة نارية غاضبة - كما حكى لي الدكتور صالح بابعير الذي قدم المحاضر وطرح الأسئلة عليه.

وبداية نحن لانجافي التاريخ ولا ننكر الحقائق سواء أتت من الكتب المقدسة أو من كتب المؤرخين الثقات إلا أن التحفظات التي قد نطرحها هنا قد يكون لها موضعها في الحديث السياسي حول الصراع الدائر اليوم بين الدولة العبرية والدول العربية والإسلامية مجتمعة:

- أنا واحد ممن يؤمنون بدرس التاريخ لكل مواطن ولكل طالب حتى إن كان ذلك الطالب ممن يدرسون الكيمياء أو الهندسة أو الطب. فدرس التاريخ أساس في تشكيل شخصية المواطن وإعطائه فكرة كاملة عن مكانه في العالم.

أما مواصفات هذا التاريخ فهي كثيرة لكن أبرزها أن يكون موضوعياً بمعنى أن يتنزه واضعوه عن الأغراض والأهواء السياسية والشخصية، وألا يكون ديدنهم إضفاء هالات من القداسة على شخوص التاريخ وأحداثها، بل يجب عليهم أن يقدموا الأحداث بموضوعية وتجرد مناقشين الأخطاء، ومقترحين الحلول التي كان يمكن تبنيها، للاعتبار والاستفادة من درس التاريخ.

- إن درس التاريخ لا يكون للدرس في حد ذاته بل للاستفادة منه في الحاضر وكذا في المستقبل. وكان هذا أول مأخذ على محاضرة البروفيسور طومسون. سألته في تعقيبي، وكذا عقب المحاضرة : «ألا تعتقد أن طرحك، وهو علمي أكاديمي صرف، قد يعطي إعلام الدولة العبرية فرصة سانحة لأن يؤكد دعوته بالحق التاريخي لليهود في أرض فلسطين؟». وعجبت من الرد، فقد قال على منبر القاعة «لا على العكس لقد حاولت نسف حق اليهود التاريخي في أرض فلسطين»، إلا أنه عقب المحاضرة قال: «نعم» إجابة عن السؤال نفسه، بل زاده قائلاً: «لقد حاول عدد من الصحفيين الموالين للدولة العبرية تسويق ما أقول على أنه توطيد لحق اليهود التاريخي في أرض فلسطين».


ماركس

- بعدها سألته: «بكل أمانة وموضوعية علمية كم تقدر عدد السنوات التي أمضاها اليهود في العهد القديم في أرض فلسطين؟»، وأنا أعرف، كما يعرف كثيرون عددها، إلا أنني أردت أن أستمع للرد منه وهو عالم في الإنجيليات، فقال بعد حسابات هنا وهناك: «ثلاثمئة وعشرون سنة. مئة وعشرون سنة قبل مجيء الآشوريين، ثم مئتا سنة قبل الرومان.مع ملاحظة وجود فاصل زمني يقارب الألف سنة بين فترتي الاستيطان». وهنا أضاف أن اليهود يتهمونه بعداء السامية، وقد رُفعت ضده قضيتان بهذا الصدد. شعرت أن الرجل في مأزق حقيقي، وهو مأزق العالم الذي

يسمح للآخرين بإساءة استخدامه، ذلك أنه يذكر حقائق دينية تاريخية لكنه لا يحاول التعليق عليها أو توظيفها في اتجاه يصبّ في خدمة طرح معين، فإذا كان هذا العدد القليل من السنوات لا يعطي لليهود حقًا في أرض فلسطين فلماذا لم يعلنه عقب ذكره لهذا السرد؟ إن ظلال الألفاظ وإيحاءاتها لا يجب أن تكون أساسًا لفهم التاريخ. يجب أن تكون لغة التاريخ واضحة جلية قاطعة محددة. وهذه المخالفة أوقعت البروفيسور طومسون في سوء فهم آخر من جانبي ومن جانب عدد من الحضور.

- إن قراءة البروفيسور طومسون قراءة دينية محضة. فهل يهود اليوم - باعتبار أن درس تاريخ الماضي لابد أن يرتبط بالحاضر - يهود متدينون ولذا يجب إعطاؤهم هذا الحق. نحن نعرف قطعًا أن اليهود في الماضي، الذين تناولتهم الكتب السماوية ليسوا يهود اليوم، وهذا ما لم يوضحه ولم يميزه البروفيسور طومسون، ولذا وقع الحضور في اللبس الذي فحواه أن أدعياء اليهودية اليوم هم امتداد للعصور الغابرة. ويكفي أن نقتطف ما كتبه آفي شاليم عام ١٩٤٨م لمخططي السياسة الأمريكية بعد احتلال فلسطين، حين قال بخصوص اللاجئين الفلسطينيين «إما أن تستوعبهم مناطق أخرى أو أن يُسحقوا... بعضهم سيموتون ومعظمهم سيتحول إلى ذرات تراب بشري وزبالة مجتمع، وبعضهم سينخرط في الطبقات الأكثر فقرًا في الدول العربية» [Naom Chomsky, World Orders: Old and New (Cairo : American University in Cairo Publishing House, 1994) p.204]،

وذلك قد يثبت، بشكل أو بآخر، أن الدين ليس دافعًا إبان قيام الدولة العبرية كما أنه لا علاقة له بدنياهم.

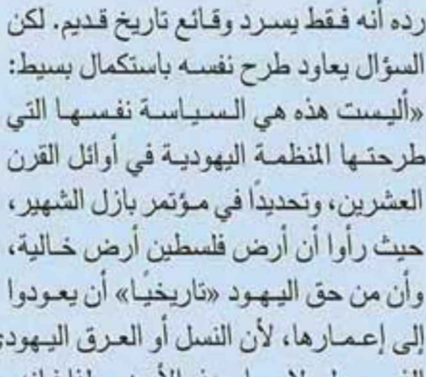
- طرح البروفيسور طومسون مصطلحين يثيران الحيرة ويعطيان مجالاً واسعًا للبس وسوء الفهم وهما ملكية التاريخ History Ownership والشخصية الإثنية أو العرقية Ethnic Identity، ولولا سؤال لي في مداخلتي لظل اللبس وسوء الفهم قائمين بالنسبة إليّ شخصيًا على الأقل. ظننت بداية أن «ملكية التاريخ» كانت تخص اليهود أما الشخصية العرقية فقد ظننت أنها تخص الفلسطينيين، ومن ثم فإن أحقية ملكية الأرض تكون لمن ملك التاريخ لا لمن ملك العرق، إلا أن البروفيسور صحح لي هذا بقوله: إنه لم يقصد هذا على الإطلاق، وإنما هي مصطلحات استخدمها في سياق بحثه!! وهذا جعلني أشفق على الرجل من إصراره على استخدام مصطلحات مفاهيم مفتوحة النص، وتحتمل أكثر من تأويل مما لا يتوافق مع لغة التاريخ.

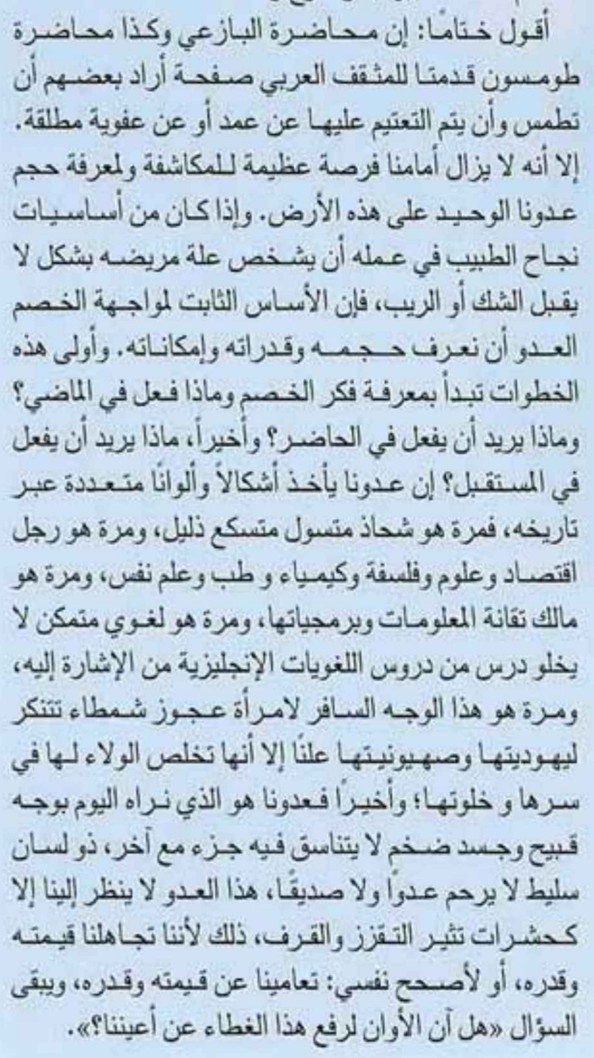
- قال البروفيسور طومسون: إن الآشوريين مارسوا سياسات في مجملها أدت إلى إخلاء أرض فلسطين من سكانها الأصليين ومن تلك السياسات الترحيل deportation والانتقال القسري transfer واقتلاع أصحاب الأرض من أوطانهم uprooting. ولست أظن أن يهود اليوم لم يستفيدوا من هذا التاريخ فقد طردوا سبعمئة ألف أو يزيدون من الفلسطينيين عام ١٩٤٨ واعتمدوا على مشورة آفي شاليم التي أشرنا إليها آنفًا في استيعابهم في الدول العربية أو سحقهم مع تراب الأرض، إلا أن هذا التوجه أغفل حقيقة مهمة وهي رحم المرأة الفلسطينية الذي ينجب ما بين سبعة أطفال إلى تسعة في المتوسط حتى أصبحت أعداد الفلسطينيين في الشتات تقارب خمسة ملايين وفي الداخل تقارب المليونين، وأصبح ذلك يمثل هاجسًا أمنيًا وسكانيًا (ديموجرافيًا) لإسرائيل تبنته الراديكالية اليهودية العبرية كما تبناه أستاذ تاريخ له احترامه ومكانته مثل بول كينيدي في كتابه: «الإعداد للقرن الحادي والعشرين». وهذه الأساليب في إخلاء الأرض من مواطنيها قد تكون مما جلب على الرجل تهمة عدائه للسامية مرتين في قضيتين مختلفتين، وأظنه مسؤولاً عما حدث له؛ وذلك لأن محددات المعنى قد غابت في مصطلحه كما غابت في لفظه.


لينين

- هذا الغياب أوقعه، أو أوقع أطروحته، في لبس آخر عندما أكّد مصطلح «الأرض الخالية empty land في

حديثه عن القدس القديمة قائلاً: إن هذا ينسب إلى روايات المسيحيين، ولذا كان سؤالي «هل تريد بهذه الإحالة أن تبرئ المسيحية من تبني هذه السياسة؟»، وكان رده أنه فقط يسرد وقائع تاريخ قديم. لكن السؤال يعاود طرح نفسه باستكمال بسيط: «أليست هذه هي السياسة نفسها التي طرحتها المنظمة اليهودية في أوائل القرن العشرين، وتحديداً في مؤتمر بازل الشهير، حيث رأوا أن أرض فلسطين أرض خالية، وأن من حق اليهود «تاريخيًا» أن يعودوا إلى إعمارها، لأن النسل أو العرق اليهودي العبري هو الذي يصلح لإعمار هذه الأرض. لذا فإنه عندما عرضت أرض غانا، في إفريقية، لتكون وطنًا قوميًا لهم رفضوا بشدة وأصروا على فلسطين لقناعتهم بالتاريخ والعرق، ولقناعتهم أن الجيتو لا يكون إلا في محيط بشري يعاديهم ؛ في غانا لن يكون هناك من يعاديهم، خصوصاً وأن حماتهم الإنجليز كانوا على استعداد لضمان أمنهم و سلامتهم حتى يشبوا عن الطوق.


ديكنز



- ثمة فهمٌ خرج به كثير من الحضور، وقد يصبح سوء فهم عند تصحيحه أن مفهوم الماضي pastness لمدينة القدس القديمة كان يتأرجح كالبندول بين اليهود والفلسطينيين قديمًا، فالمطلوب أن يكون الماضي حاضراً عندما يتناول الأمر اليهود وقضيتهم، وبذا يلتصق ماضي المدينة بتاريخ المدينة. أما عندما يتعلق الأمر بالفلسطينيين فالمطلوب هو سلخ هذا الماضي، أو بتره، عن القدس، وأن تكون العلاقة بين الفلسطينيين وماضي القدس كمن يتزوج، أول مرة في حياته بكرًا في عمر الزهور. هذا الطرح دون تعليق ودون تنبيه لكونه سردًا تاريخيًا فقط لا يسوغ ما يحدث على أرض فلسطين في القرن العشرين وبدايات الحادي والعشرين. فقد أوقع الكثيرين في سوء فهم، بل أعطى بعضهم صورة مغايرة لحقيقة ما ذهب إليه الرجل، وإن كنت قد وجهت نقدًا حادًا له في تعقيبي قائلاً له: «إنك تلعب بالكلمات أو تلعب عليها/ You are playing with on words في هذا الطرح وفي طرحه للأرض الفارغة.

اعرف عدوك!

ومجمل القول في محاضرة البروفيسور طومسون أنه أراد أن يدحض الادعاء الصهيوني المعاصر بأحقية اليهود التاريخية في أرض فلسطين التي عرفها الإنجيل القديم «فلستين»، كما عرفتها الهيروغليفية - لغة المصريين القدماء - باسم «فلسا»، أو كما عرفها هيرودوتوس باسم «بالستينا» إلا أن البروفيسور طومسون، لاكتفائه بطرح التاريخ كما هو، أوقع نفسه في لبس وسوء فهم من قبل جمهور حضوره الذين مثل عددهم اهتمامًا كبيرًا بالموضوع وكذا مناقشته.

أقول ختامًا: إن محاضرة البازعي وكذا محاضرة طومسون قدمتا للمثقف العربي صفحة أراد بعضهم أن تطمس وأن يتم التعتيم عليها عن عمد أو عن عفوية مطلقة. إلا أنه لا يزال أمامنا فرصة عظيمة للمكاشفة ولمعرفة حجم عدونا الوحيد على هذه الأرض. وإذا كان من أساسيات نجاح الطبيب في عمله أن يشخص علة مريضه بشكل لا يقبل الشك أو الريب، فإن الأساس الثابت لمواجهة الخصم العدو أن نعرف حجمه وقدراته وإمكاناته. وأولى هذه الخطوات تبدأ بمعرفة فكر الخصم وماذا فعل في الماضي؟ وماذا يريد أن يفعل في الحاضر؟ وأخيراً، ماذا يريد أن يفعل في المستقبل؟ إن عدونا يأخذ أشكالاً وألوانًا متعددة عبر تاريخه، فمرة هو شحاذ متسول متسكع ذليل، ومرة هو رجل اقتصاد وعلوم وفلسفة وكيمياء و طب وعلم نفس، ومرة هو مالك تقانة المعلومات وبرمجياتها، ومرة هو لغوي متمكن لا يخلو درس من دروس اللغويات الإنجليزية من الإشارة إليه، ومرة هو هذا الوجه السافر لامرأة عجوز شمطاء تتنكر ليهوديتها وصهيونيتها علنًا إلا أنها تخلص الولاء لها في سرها و خلوتها؛ وأخيراً فعدونا هو الذي نراه اليوم بوجه قبيح وجسد ضخم لا يتناسق فيه جزء مع آخر، ذو لسان سليط لا يرحم عدواً ولا صديقًا، هذا العدو لا ينظر إلينا إلا كحشرات تثير التقزز والقرف، ذلك لأننا تجاهلنا قيمته وقدره، أو لأصحح نفسي: تعامينا عن قيمته وقدره، ويبقى السؤال «هل آن الأوان لرفع هذا الغطاء عن أعيننا؟».

تحقيق

الكشف عن تسعة سدود أموية بالطائف

حمّاد بن حامد السالمي
الطائف - السعودية

الطائف.. المدينة الكبيرة، والمحافظة الكبرى في منطقة مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية اليوم، كانت قرية كبيرة أيضًا، قبل مئات السنين، ثم تطورت فأضحت حاضرة من أشهر الحواضر في جزيرة العرب قبل البعثة النبوية، فلم يكن يماثلها في هذه المكانة الرفيعة في ذلك الوقت، سوى مكة ويثرب.

تقع الطائف على سفح جبل غزوان؛ إلى الشرق من مكة المكرمة بنحو (٨٠) كيلاً، وقد نمت وكبرت واشتهرت بعد دخول قبيلة ثقيف في الإسلام في العام التاسع للهجرة.

وكانت الطائف رصيفة لمكة، وهما المنعوتتان في القرآن الكريم بـ (القريتين). وكانت ثقيف في الطائف في مواجهة قريش في مكة، وعندما نزل الوحي على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم في مكة، تمنت قبيلته القرشية أن لو نزل هذا الوحي على واحد من عظمائها هو الوليد بن المغيرة، أو عظيم آخر في ثقيف هو عروة بن مسعود الثقفي(١). قال تعالى: *وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم*. **الزخرف: ٣١.**

وظلت الطائف بعد ذلك تحتل مكانة مهمة في تاريخ الدولة الإسلامية عبر العصور، وقد عرفت واشتهرت بسوق عكاظ الشهير وعرف بها، فهو السوق الأدبي الشعري الذي بدأ في الجاهلية، ولكنه ظل قائماً حتى سنة (١٢٩) من الهجرة، نهاية الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية.



سد الجدر في وادي السر

وقد كان للطائف شهرة في مجالات كثيرة إلى جانب الأدب والشعر وتكوين الأطر القيادية والعسكرية والإدارية، من أهمها: شهرتها السياحية والزراعية، وقد تكون للزراعة صلة وثيقة بالسياحة، لأن الأمة التي لا تحسن استزراع أرضها ليس بمقدورها الحفاظ على البيئة الطبيعية والجمالية فيها. ولكن الطائف جمعت بين جمال الطبيعة واعتدال المناخ والمزروعات

التي لا تنافس في إقليمها كله. وقد لفتت أنظار العامة والخاصة إلى هذه الميزة الفريدة منذ مئات السنين. وكان الناس في ذلك الزمن يغبطون ثقيفًا على أرضها إن لم يحسدوها. روى الأخفش الأصغر عن غيره قال (٢) :

لله درُّ ثقيف أيُّ منزلة ... حلوا بها بين سهل الأرض والجبلِ

قومٌ تخيَّر طيبَ العيشِ رائدُهم ... فأصبحوا يلحفون الأرض بالحللِ

ليسوا كمن كانت التَّرْحال همتَه ... أخْبِثْ بعيشٍ على حل ومرتحلِ

السدود.. شهادة معاصرة

إن خير دليل على هذه المكانة العلية للطائف، في المجالين الزراعي والسياحي، اهتمام الدولة الأموية بهذه المدينة الحجازية، فقد تحقق لها خلال نصف قرن ما لم يتحقق لأي مدينة مماثلة لها، فقد أنشئ بها أكثر من سبعين سدًا حجرياً على أوديتها الزراعية، لحفظ مياه السيول، ولتوفير الرواء لمئات الآبار والعيون في أرضها وفي أطراف مكة.

إن سد معاوية بن أبي سفيان على سبيل المثال الذي بني سنة ٥٨ هجرية في وادي سيسد، هو أول هذه المنظومة الشهيرة التي تهدم كثير منها، وظل عدد آخر مجهولاً حتى اليوم (٣). وتمثل في مجموعها شهادة معاصرة على أهمية الطائف، وعلو شأنها.

لقد آليت على نفسي منذ عدة سنوات؛ البحث في هذا العدد المجهول من سدود الطائف الأموية، وتمكنت إلى ما قبل كتابة هذه الدراسة من الكشف عن (عشرة) سدود لم يصل إليها أحد من قبلي(٤).

أما اليوم.. ومن خلال هذه الدراسة الجديدة؛ فإني أعلن بكل غبطة وفرح وسرور؛ عن الكشف عن (تسعة) سدود من ضمن تلك التي ظلت مجهولة حتى اليوم، راجياً من الله العلي القدير أن يمنحني القوة والصبر، على البحث والكشف عن بقية هذه السدود، وتقديمها في دراسات قادمة. فإليكم هذه المدونة لهذه الدراسة:

الرحلة إلى وادي السر..

بدأت سيري اليوم؛ في اتجاه الجنوب الشرقي للطائف عبر طريق الجنوب الشهير، وبعد الخروج من مدينة الطائف، وكان يرافقني في هذه الرحلة إلى جنوب الطائف جابر الجعيد - من قبيلة الجعدة التي تسكن شقصان وما حولها - مررت في طريقي هذا بوادي النمل ونخب، ووادي ليـة، ثم دخلت في وادي السر على بعد نحو (٣٠) كيلاً من الطائف. ومن وسط هذا الوادي الذي يعج بالحركة والعمران، انحرفت يميناً في اتجاه الغرب عبر مسيل السيل، وبعد نحو خمسة كيلات؛ أصبحت وجهاً لوجه أمام (سد الجدر) الذي يقوم في مخنق بين جبلين؛ من أعلى وادي السر، في جزء منه يسمى (سر الجدر)، نسبة إلى هذا السد.

سد الجدر

وبعد أن طفت حول هذه المنطقة، التقطت صوراً لما تبقى من السد، ولاحظت أن هذا الوادي هو من الأودية الزراعية الكبيرة، فعلى الرغم من الجفاف الذي يسود منذ أربع سنوات هناك مزارع قائمة من أعلى موضع السد ومن أسفل منه، فيها بعض الخُضر والفواكه. وبناء السد هنا قام على فكرة حجز المياه المتدفقة من الغرب إلى الشرق خلف السد لتغذية الآبار الزراعية. كما أن جسم السد قام بين جبلين مرتفعين متقابلين معترضاً المسيل من الشمال إلى الجنوب، ولم يتبق منه سوى جزأين من طرفيه الشمالي والجنوبي. وقمت بأخذ قياسات مترية كانت على النحو الآتي:

١- الجزء القائم جزئياً من الشمال:
- الطول : ٢٠ متراً
- العرض (المدماك): متران وعشرون سم.
- الارتفاع من وسطه : ثلاثة أمتار ونصف المتر.

٢- الجزء الجنوبي المتهدم:
- الطول : ٢٢ متراً.
- العرض (المدماك) : متران وعشرون سم.
- الارتفاع : في حدود متر واحد.



سد وادي السد رقم (١) الغربي



٣ـ الجزء المكسور من الوسط في بطن الوادي:

ـ الطول: ٢٢ متراً.

ـ العرض المقدر (٥) لـ (المدماك) : متران وعشرون سم.

ـ الطول المقدر للسد قبل انكساره: ٦٤ متراً.

ـ الارتفاع الكلي المقدر للسد من وسطه قبل تهدمه : ٢٠ متراً.

أما الانطباع الذي يمكن الخروج به بعد معاينة ما تبقى من سد الجدر فهو أنه ينتسب إلى منظومة السدود الأموية السبعين التي أنشئت في الطائف في عهد الدولة الأموية، وفي فترة حكم معاوية بن أبي سفيان، وولاية الحجاج بن يوسف الثقفي للعراق، وعنايته ببلده ومسقط رأسه الطائف. وذلك في نهاية القرن الهجري الأول. وما نقدمه في هذه الدراسة إنما هو عرض ووصف لبقايا من هذا السد ليس غير.

الرحلة إلى وادي السد..

بعد ذلك؛ أعود إلى الطريق العام لمواصلة الرحلة جنوباً عبر طريق الجنوب، الذي لا تتوقف شهرته عند ربطه الطائف بآلاف القرى والأودية، والباحة وعسير جنوباً، ولكنها تمتد لتشمل ما يشهده من حوادث سير شبه يومية مؤلمة..! فاليوم السبت ١٤٢٢/٨/١١هـ على سبيل المثال، وعند الساعة السابعة إلا ربعاً صباحاً، شهدت على هذا الطريق حادثاً مروعاً بين مركبتين، رأيت إحداهما مقلوبة، وسيارات الإسعاف تنقل الضحايا إلى المستشفيات، وجمع من الناس يمطون شفاههم، ويرددون عبارات التأسف لما حدث..!

تركت وادي السر خلفي، وواصلت سيري عبر هذا الطريق الثعباني الأسود الضيق المكتظ بالحركة؛ وخاصة عند الصباح وعند المساء. وبعد أن جاوزت وادي شقصان؛ على بعد نحو (٤٥) كيلاً من الطائف؛ والذي يشقه طريق الطائف الجنوب، وقبيل (قيا) بنحو (١٥) كيلاً ؛ انحرفت ومعي السيد جابر الجعيد، نحو الجنوب الغربي عبر طريق ترابي، وبعد كيلات قليلة، أصبحت في وادي (السد) الكبير الذي يضم ثلاثة سدود أموية.

إن وادي السد هذا هو من أكبر الأودية جنوب الطائف، يمتد من الغرب إلى الشرق في الجهة الغربية لـ (قيا) بالحارث، ومن أعلاه يأخذ اسم (قضين الحارثي)، أي: حصاة الحارثي، أو أصلها قطين بمعنى مقطن ومسكن؛ ثم تحورت مع الزمن. والمقصد أن الوادي من جهته هذه الغربية والجنوبية والشرقية هو في ديار بالحارث أهل (قيا). أما قيا هذه التي يأتيها وادي السد من أعلاها؛ فهي قرية حديثة، نشأت بطرف الطريق العام بين الطائف والباحة، وتأخذ اسمها ربما من كثرة الكمأة، فيقال: تقيأت الأرض كمأتها؛ إذا كثر نتاجها منها.



سد وادي السد رقم (٢) الأوسط

عندما تبطنت الوادي من أعلاه عثرت على السدود الثلاثة التي تقوم معترضة الوادي من الغرب إلى الشرق، ولا يفصل بين السد الأول (الغربي) والسد الثاني (الأوسط) سوى كيل ونصف الكيل تقريباً. وبين الأوسط والثالث (الشرقي) ثلاثة كيلات تقريباً. وبدا الوادي واسعاً جداً، وكان ـ على ما يبدو ـ زاهراً في أزمنة غابرة، تدل على ذلك آثار ركبان زراعية وعطفات كثيرة، وبقايا أكثر من مستوطنة بشرية بطرفي الوادي، وآبار قديمة شاهدت واحدة منها بين السد الثاني والثالث. وهذا لا غرابة فيه بخاصة، وأن وادي السد هذا ـ فيما يقال ـ كان هو الموطن الذي عاش فيه (سلوم) وجماعته من العيلة من النفعة من بني سعد، على مشارف ديار بالحارث، والذين اضطروا إلى الجلاء والهجرة إلى مرتفعات السراة المشرفة على تهامة بين بني سفيان وثمالة وربيع، وذلك بعد المقتلة الكبيرة التي وقعت في هذا الوادي قبل مئات السنين، كما تقول الروايات.

إن وادي السد أخذ اسمه ـ من دون ريب ـ من سدوده هذه التي غلبت على سواها.

وبعد جولة طويلة حول الوادي وسدوده الثلاثة التي أقيمت معترضة الوادي بين طرفيه الشمالي والجنوبي، وأخذ الصور الضوئية لها، قمت بقياسات مترية لكل منها.

السد الأول

هذا هو الســد الأول (الغــربي)، وهـو من أعلـى الوادي، وقياساته هي:

١ـ الجزء القائم الباقي منه؛ من طرفه الجنوبي:

ـ الطول : ٦٤ متراً ، و٦٠ سم.

ـ العرض (المدماك): ثلاثة أمتار وأربعون سم.

ـ الارتفاع من الوسط: مـتران وأربعون سم. وفـيه تدرج من أسفل إلى أعلى.

٢ـ الجزء الشمالي (المكسور):

ـ الطول : ١٧ متراً وأربعون سم.

ـ الطول المقدر للسد قبل انكساره: ٦٧ متراً.

ـ الارتفاع المقدر قبل التهدم : ١١متراً.



سد وادي السد رقم (٣) الشرقي

السد الثاني

أمـا السد الثـاني (الأوسط) فلا يبـعد كـثيـراً عن الأول على الوادي نفسه، وقياساته هي:

١ـ الجزء الجنوبي (القائم):

ـ الطول : ٨٠ متراً.

ـ العرض (المدماك): خمسة أمتار وعشرة سم.

ـ الارتفـاع من الوسط: مـتـران وثلاثـون سم. وله تدرج من أسفل إلى أعلى.

٢ـ الجزء الشمالي (القائم):

ـ الطول : ١٢ متراً وثمانون سنتيمتراً.

ـ العرض (المدماك): متران.

ـ الارتفاع: متر واحد.

٣ـ الجزء المكسور (بطن الوادي):

ـ الطول: ١٣ متراً وعشرون سم.

ـ الطول الكلي المقدر لكامـل السد قبل انكساره: ١٠٥ أمـتار تقريباً.

ـ الارتفاع المقدر قبل التهدم : في حدود ١٢ متراً.

السد الثالث

أما السد الثالث (الشرقي) على وادي السد، فجاءت قياساته كما يأتي:

١ـ الجزء الشمالي (القائم):

ـ الطول : ١٣ متراً وخمسون سم.

ـ العرض (المدماك) : ثلاثة أمتار وخمسون سم.

ـ الارتفاع من المنتصف: متر واحد وستون سم.

٢ـ الجزء الجنوبي (قائم):

ـ الطول: أربعة أمتار.

ـ العرض (المدماك): ثلاثة أمتار.

ـ الارتفاع: متر واحد.

٣ـ الجزء المكسور (من بطن الوادي):

ـ الطول : ١٧ متراً.

ـ الطول الكلي المقدر للسد قـبل انكساره : ٣٤ متراً ونصف المتر.

ـ الارتفاع المقدر للسد قبل تهدمه : ١٥ متراً.

الرحلة إلى داما

هذه رحلـة أخـرى إلى مـوضع آخـر؛ من أجل الكشف عـن سـد أمـوي آخـر لـم يُعـرف قـبـل اليـوم، غادرت الطائف صباحاً في اتجاه الجنوب؛ عبر طريق الجنوب، بعـد وادي الـسر بقليل آخـذاً طريق بـني سـعـد الذي ينحـرف من طريق الجنوب هذا، في بداية الطريـق السيـاحي، عـبـر المرتفـعـات الجـنوبيـة للطائف، وعلى هـذا الطريق الذي يتلوى عـبـر سلسلة من المرتفـعـات الشـاهقـة، مصـعـداً رويداً رويداً؛ يقع وادي المعـدن، ثم يليـه وادي بقران، وهـما على بعـد (٤٠) كيـلاً من الطائف، ومن بعد المعدن، يوجد مـفرق طريق معيد، يقود عابريه إلى وادي سـلامة وعباسة، وفي سلامة هذه سدود أموية شهيرة، سبق أن كشفت عنها في دراسة سابقة من خلال هذه المجلة (٦).

بعد وادي بقران الزراعي، أصل إلى السحن حاضرة ديار بني سـعـد، على بعـد (٦٠) كيـلاً من الطائف. وهي حـاضـرة مـتطورة وتنمـو بسـرعـة، وبعـدها بقليل، وعـلى يمين الطريق

العام، أشاهد قريتين تاريخيتين على مرتفعين عاليين، إحداهما قرية (الكلادا)، وسوف أقدم عنها وعن جارتها من شرقيها دراسة في مناسبة أخرى. بعد ذلك نجد قرية الدار الحمراء لخديد من بني سعد، وهي تبدو في شكل مدينة، لما يميزها من عمران ومرافق كثيرة. وعلى قمة الجبال المطلة على تهامة، هاهو الحدب حدب بالحارث، ومنه ينحدر الطريق إلى ميسان حاضرة بلاد بالحارث على بعد نحو (١٠٠) كيل من الطائف، وهي مثل السحن، متطورة ونامية، وتزخر بمرافق كثيرة.

أترك ميسان خلفي، وأنا أعبر الطريق الرئيس الذي ينحرف بي إلى مفرق جديد يربط ميسان بقها ثقيف عبر وادي داما، وقبل وادي داما، أشاهد عدة قرى ذات اليمن وذات الشمال، أشهرها قريتا العطا والحراء، وبعدهما بقليل، ينحدر الطريق بشدة وعبر طريق جبلي متعرج بشكل لافت وشديد الخطر؛ إلى وادي داما.

الدخول إلى وادي داما من هذا الطريق يتم من منحدراته الشرقية، حيث يقوم من أسفله سد إسمنتي حديث، ويقابله من الشرق على الوادي نفسه بقايا لسد أموي قديم، معرف بنقوش صخرية من العصر نفسه (٧).

وادي داما هذا، يبعد عن الطائف قرابة (١٤٠) كيلاً. والسد الذي أكشف عنه أول مرة في هذه الدراسة، لا يبعد عن السد السابق كثيراً، إنه يعترض وادي (صُلْب) الذي هو أحد الروافد الشمالية لوادي داما. وللوصول إلى مكان السد، استعنت بالعم مساعد الجيعان الحارثي، من أهالي وادي داما.

درب وسوق العَصْبة

وادي صلب واد منخفض بين جبال شاهقة الارتفاع من خلفه، وشعابه تصب فيه، وهذه الوضعية (الطبوغرافية) لهذا الوادي، وللمزارع الكثيرة من أسفل منه، تفسر لنا فكرة قيام سد مثل هذا على مخنق عند منعطف الوادي إلى القرية التي تقع على سفح من شرقيه بطرف المزارع الكثيرة، إلى جانب آثار سوق سنوي قديم يقع على درب (العَصْبة)، لحاج اليمن الذي يمر بهذا الوادي، فهنا بقايا لغرف ومساكن ومبان يبدو أنها جزء من حوانيت واستراحات كانت هنا، فسوق العصبة هذا كان يقام قبيل الحج وبعده كل عام، ويتزامن مع مرور الحجاج في ذهابهم إلى مكة وإيابهم منها. وهذا سبب آخر أعطى أهمية لوادي داما، ولقيام سدود عليه، وللانتعاش الزراعي به.

سد صُلْب

وقفت على السد الذي يعترض الوادي، ويقوم بين طرفيه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ومع أن السد قد كسر على ما يبدو من زمن طويل، إلا أن الوادي مكتظ بالأشجار المتنوعة، التي منها السدر والطلح والسلم، ويبدو في العموم أخضر.

بعد إتمام عملية التصوير الضوئي، قمت بأخذ القياسات المترية، فكانت كالآتي:

١- الجزء الشمالي الشرقي (قائم) :
- الطول : ٢٨ متراً.
- العرض (المدماك) : ثلاثة أمتار.
- الارتفاع : متران.



سد صُلْب في داما

٢- الجزء الجنوبي الغربي مع بطن الوادي (مكسور) :
- الطول : ٢٠ متراً.
- الطول الكلي المقدر لكامل السد قبل كسره: ٤٨ متراً.
- الارتفاع التقديري للسد قبل تهدمه : ٢١متراً.

الرحلة إلى وادي السد..

الرحلة الثالثة لي في هذا البحث جاءت صوب الجنوب الغربي من الطائف، على طريق الطائف الشفا السياحي، وبالتحديد، فهي تستهدف وادياً اسمه وادي السد عليه سد أموي شهير معروف عند سكان هذا الوادي، ومجهول تماماً عند الباحثين والموثقين والراصدين للآثار، وأنا كنت من هؤلاء الذين يجهلونه، حتى شاءت الأقدار؛ فالتقيت بأحد مشايخ آل حجة من بني سفيان؛ وهو العم عامر بن عمار السفياني؛ الذي

دلني عليه، وأخذني إليه؛ فكثير من الفضل في كشف سد بهذه الضخامة يعود إلى هذا الرجل.

أخذت طريقي عبر هذا الطريق السياحي، وكان أول ما يواجهني بعد الخروج من الطائف من شرق الطريق وادي عرضة الشهير بسدوده الأموية الكثيرة، تلك التي كشفت عنها في بحوث سابقة (٨). ففي عرضة الوسطى والسفلى خمسة سدود، وفي عرضة العليا ثلاثة سدود. وبعد عرضة العليا مباشرة؛ أستطيع رؤية سد آخر أموي يقوم على وادي القعايد، على يسار الطالع من هذا الطريق إلى مرتفع الحدبان(٩). فهذه منطقة غنية بآثارها من السدود والنقوش التي تعود في معظمها، وخاصة السدود، إلى عصر الدولة الأموية في القرن الهجري الأول.

في وادي السد..

الطريق بعد وادي القعايد يتصعد بنا إلى قمة مرتفعة جداً يستقر عليها متنزه الحدبان. ومن بوابة هذا المتنزه، أنحرف يساراً نحو الشرق، ثم هبوطاً عبر طريق معبد إلى واد زراعي أخضر جميل في طرف بلاد بني عمر من بني سفيان، وحول هذه الحقول والبساتين، تنتشر دور حجرية قديمة، وحصون أيضاً، إلى جانب دور إسمنتية حديثة. وندخل من بوابة تفضي إلى أحد الحقول الخضراء، فإذا أنا أمام سد حجري عملاق، لا يوازيه في حجمه وارتفاعه وكبر حجارته؛ سوى سد السملقي في بلاد ثمالة.

سد السد..

من دون شك؛ فإن الوادي الزراعي هذا؛ اكتسب اسمه وشهرته من اسم السد الكبير هذا وشهرته، لكن المحير في الأمر أنه حتى اليوم لم يصل أحد إلى هذا المكان، ولم يكشف عن السد أو يعرف به من قبل. ولعل مرد ذلك إلى كون السد محاطاً بالحقول والبساتين المثمرة، فلا يثير الانتباه لأجل ذلك، فمن أسفل منه حقل خُضَر وبئر، ومن أعلاه بستان واسع للرمان والخُضَر أيضاً وبئر، وهناك أسلاك شائكة تحيط بهذه المزرعة.


سد وادي السد في آل حجة

لقد بدا هذا السد في كامل لياقته العمرانية، فجسمه مكتمل وسليم تماماً، ولم يبد أنه فقد أي حجر منه، ويعود الفضل في ذلك إلى تراكم الطمي والطمر الرملي خلفه، حتى غطت التربة واجهته الجنوبية، وتحولت إلى بستان، ثم إلى وجوده في قلب مزرعة خاصة محمية، والاستفادة منه على شكل عطفة، تفصل بين ركيبين وبستانين أحدهما مرتفع خلفه؛ والآخر منخفض من أمامه. وبدا لي من نظرة شاملة للسد أنه يهدف إلى توفير رواة لعدد من الآبار حوله في منبسط من الأرض، كل ما فيه مزروع ومستثمر تقريباً. وقد أقيم السد بين طرفي الوادي الشرقي والغربي. وبطرفه الشرقي مغيض بطول خمسة أمتار تقريباً؛ وينخفض عن سطحه العلوي بمتر واحد تقريباً. وقمت بعمل مقايسة مترية له فكانت كما يأتي:

- الطول بين طرفي الوادي: ٦٠ متراً.
- العرض (المدماك): ثلاثة أمتار وعشرون سم.
- الارتفاع: ٦ أمتار، وعشرون سم.

إن سد وادي السد هذا آية في العمران، وغاية في الاكتمال، وقد خصصت واجهته بتدريج متقن، يصل إلى أربع درجات أو خمس، على طريقة بقية السدود الأموية في الطائف، وحري بنا، أن نلتفت إليه؛ ونعطيه من الاهتمام والمحافظة والرعاية والحماية؛ ما يليق بمثله من المنشآت الأثرية ذات القيمة التاريخية.

الرحلة إلى حمى النمور..

النمور: قبيلة من ثقيف، مساكنها الهدا ووادي المحرم من غرب الطائف. وحماها هذا هو أحد الأحمية الكثيرة التي عرفت بالطائف إلى عهد قريب، لكن حمى النمور ما زال فاعلاً، ويكتسب عناية خاصة من أهله الذين يحرصون على بقائه والاستفادة منه.

إذن.. حمى النمور كان وجهتي اليوم في هذه الرحلة الرابعة حول الطائف، فهو يقع إلى الشمال من الهدا، بينها وبين الشرقة والشريف من بلاد هذيل، وفي طريقي إليه سلكت

طريق الطائف الهدا السياحي، فمررت بوادي جباجب، ثم وادي المحرم الذي هو أعلى وادي قرن، وبه ميقات معروف، ثم صعدت النقبة الحمراء، التي قام على سفوحها الشرقية متنزه حديث. بعد هذه النقبة التي كانت قبل تعبيدها وفتح طريقها، تعد عقبة ونكبة للعابرين في الطريق إلى مكة. وصلت الهدا بعد أن قطعت مسافة ٢٠ كيلاً، وهناك كان ينتظرني عبد الله ابن عبد النبي الغريبي، ومحمد بن حسين القرشي، وهما من أبناء الهدا، ومن قمة الهدا المشرفة على جبل كرا، انحرفنا نحو الشمال عبر طريق عبدته بلدية الطائف في عهد رئيسها السابق الدكتور عمر بن عوض المشعبي، لخدمة قرى كثيرة في بلاد هذيل السراة، وسرنا عبر قمم شاهقة تطل على تهامة، وتنحدر بشدة نحو الشمال. وبعد أن قطعنا مسافة تقرب من عشرة كيلات؛ انحرفنا يميناً إلى منحدر يؤدي إلى وادي مسيل، غني بالأشجار والنباتات العشبية. كان هذا جزءاً من حمى النمور المخصص لتربية البقر فقط..! وقد شاهدنا قطعاناً منها ترعى وترتوي من غدران ونبوع لا تجف في أسفل الوادي.

سد دغبج..

تركنا سيارتنا في سفح الجبل، وهبطنا سيراً على الأقدام مسافة قصيرة، لنقف فوراً على بقايا من سد يسمى سد (دغبج)، كان يسد هذا المخنق من الوادي بين طرفيه؛ الجنوبي والشمالي، وعبر الجزء المكسور منه؛ تتدفق المياه العذبة الآتية من نبع قريب من أعلاه، كما أن نبات الحلفاء يلتف ويحف بالمكان، جنباً إلى جنب مع أشجار الظهيان والسمر والطلح والسدر.

بعد تفقد للمكان وتكوين فكرة شاملة، رأيت أن قيام سد كهذا على هذا الوادي إنما هو لخدمة أودية زراعية أسفل منه، وتوفير رواة لآبار من تحته ومن أعلاه، وقمت بعد ذلك بعمل قياسات مترية فجاءت كما يأتي:

١ـ الجزء المتبقي من الطرف الشرقي :
- الطول : ١٢ متراً تقريباً.
- العرض (المداماك) : متران.
- الارتفاع من وسطه : متران.

٢ـ الجزء المكسور من بطن الوادي :
- الطول : ١٨ متراً تقريباً.
- جملة الطول المقدر للسد قبل كسره : ٣٠ متراً تقريباً
- الارتفاع المقدر للسد من منتصفه قبل تهدمه : ٢٠ متراً.

الرحلة إلى وادي سيسد..

سيسد.. من أشهر أودية شمال الطائف، فهو الذي أقام عليه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، سداً سنة (٥٨) من الهجرة، وظل هذا السد قائماً على حاله حتى اليوم، إضافة إلى أن سيسد ظل زمناً طويلاً حمًى برياً شهيراً، إلى أن تحول مؤخراً إلى متنزه وطني من أكبر المتنزهات الوطنية في المملكة. ويزخر هذا الوادي، بالكثير من النقوش الحميرية والإسلامية (١٠). ووجهتي إليه في هذه الرحلة تستهدف الكشف عن سد أموي مجهول على أحد أوديته غير المطروقة.

توجهت من الطائف صباحًا نحو الشمال الشرقي سالكًا طريق الطائف الرياض، ومن جسر الحلقة على بعد قرابة



سد دَغْبج في حِمَى النمور

سبعة كيلات من الطائف، انحرفت مشرقاً شاقًا حي الحلقة شرقًا، وتجاوزت معبر وادي العرج، حيث شاهدت العمل يجري على قدم وساق في شق طريق مزدوج بين جسر الحلقة ومتنزه الطائف الوطني. ومنه جسر يقام على وادي العرج الذي هو امتداد لوادي وج القادم من الطائف، متجهًا إلى الشمال الشرقي. وبعد تجاوز مقر شركة الغاز على طرف الطريق، دلفت إلى داخل المتنزه الوطني، وقد انضم إلي في هذه الرحلة من وادي العرج؛ العم مسفر بن عقيل الرقيب من أهل هذه النواحي.

في وادي الجَرف

وقبل الوصول إلى مقر إدارة المتنزه الوطني، انحرفنا مشملين عبر طريق ترابي، مسافة قصيرة. لندخل في

وادي (الجرف)، الذي هو من أودية سيسد الشمالية. فإذا هو واد تصب فيه شعاب كثيرة من أعلاه، ويتجه سيله نحو الشمال والشرق، مثل بقية أودية سيسد التي تجتمع شمالاً وشرقًا؛ وتختلط بسيل وادي العرج. والوادي يكتظ بكثير من أشجار السدر والطلح والسلم والظهيان، وتنتشر الخضرة في كل مكان على امتداد الوادي، وفي سفوح الشعاب.

سد أم الجدر

بعد أن هبطنا من سيارتنا؛ شاهدت جداراً على الطرف الشرقي من الوادي، وجداراً على الطرف الغربي المقابل، بين جبلين في شبه مخنق على الوادي، أما الوسط فهو جزء مكسور بفعل السيول وعدم العناية، والجهل بالسد الذي ينبئ بنيانه عن أنه من منظومة سدود الطائف الأموية، ولا يختلف كثيراً في طريقة إنشائه عن سد معاوية غير البعيد عنه من أعلى وادي سيسد، وقد قمت بتصوير السد، ثم أجريت مقايسة مترية له فكانت:

١ـ الجزء الشرقي (المتبقي) :
ـ الطول : ٢١ متراً
– العرض (المدماك) : متر وسبعون سم.
ـ الارتفاع من المنتصف : متران وعشرون سم.
٢ـ الجزء الغربي (المتبقي) :
ـ الطول : ١٥ متراً.
ـ العرض (المدماك) : متر وسبعون سم.
ـ الارتفاع : متران وثلاثون سم.
٣ـ الجزء المكسور من الوسط على عمق الوادي :
ـ الطول : ١٥ متراً.
ـ جملة الطول الكلي المقدر للسد قبل انكساره : ٥١ متراً.
ـ الارتفاع المقدر للسد قبل تهدمه من الوسط : ١٧ متراً.

الرحلة إلى واديي ركك والملاح..

هذه هي الرحلة السادسة، وتأخذنا اليوم إلى واديين من أودية السيل الشرقية، بينه وبين الحوية وعشيرة؛ هما وادي رَكَك؛ ووادي المِلاح، فقد أُخبرت أن سداً أموياً كان يقوم عند ملتقى الواديين، وأن له بقية دالة عليه، وهو من السدود التي لم يكشف عنها حتى اليوم، ولا بد من كشفه والتعريف به في هذه الدراسة.

انطلقت صباحاً من الطائف عبر طريق الطائف السيل الكبير، وعلى مسافة أكثر من ستين كيلاً بين الطائف والسيل الكبير؛، لم أشعر أني خرجت من العمران ألبتة، فالعمران متصل على طول هذه المسافة، ومرافق الخدمات متقاربة، والسيارات تتزاحم في الذهاب وفي الإياب. وفي السيل الصغير، تنتشر المزارع والاستراحات الكثيرة، مثلها مثل ريَّحة من غرب الطريق العام.

انضم إليّ في هذه الرحلة من السيل الكبير؛ واحد من أبناء السيل الكبير هو سليم مغلي الثبيتي، ومن السيل الكبير، اتجهنا شرقًا عبر أودية زراعية تمتد من السيل الصغير، ويشقها طرق برية وعرة جداً، وسرنا مسافة تقارب عشرة كيلات، حتى أصبحنا في منحنى بين ثلاثة مرتفعات كبيرة يجمع بين واديين هما: رَكَك والمِلاح.

أشار مرافقي إلى جدار قائم في طرف الوادي من الجهة الشرقية وقال: هذا سد المِلاح. ويقصد بما رآه، ورأيته فيما بعد، البقية الباقية من سد عظيم كان يقف شامخاً بين جبلين كبيرين؛ عند ملتقى واديين من أكبر الأودية هما رَكَك والمِلاح. ولعل إطلاق اسم (المِلاح) على السد، لكون وادي المِلاح هو الأكبر من وادي رَكَك، وأن السد يميل إليه أكثر. وهذا استنتاج من عندي.

يأتي وادي المِلاح من جهة الشرق، ويقابله وادي رَكَك من جهة الغرب، ويلتقيان في منبسط من الأرض واسع، يشكل خلفية السد الكبير الذي كان هنا. بينما ينتصب جبل الرحل من طرف السد الشرقي؛ وجبل النمور من الطرف الغربي، ومن أعلى هذا الموقع، توجد مزارع وآبار كثيرة، وكذلك من أسفل السد تنتظم



سد أم الجدر في وادي الجرف بسيسد

مجموعة من الركبان التي تزرع الخضراوات، وعلى بعد ثلاثة كيلات إلى الشمال من هنا، شاهدنا رسوم طريق العرقية التاريخي، وهو الطريق الذي كان يسلكه الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في رحلاته الشهيرة بين نجد والحجاز، وكانت السيارات في بداية ظهورها تعبره بين مكة والطائف وعشيرة ونجد. وهو يربط السيل الكبير بعشيرة من جهة العيانة بأعلى وادي العقيق. (عقيق عشيرة).

سد الملاح

إن اتساع الوادي موضع السد لافت، وكذلك هذا الجزء المتبقي منه في الطرف الشرقي؛ فالحجارة كبيرة، ونمط البناء لا يختلف عن النمط المعمول به في بقية سدود الطائف الأموية، إلا أن هذا السد، وحسب رواية السيد سليم؛ تعرض إلى النهب من حجارته، وما زال الاعتداء على بقية جسمه مستمراً، وهذا حال سدود أخرى في الطائف؛ تتعرض إلى الهدم من قبل الراغبين في الانتفاع بحجارتها؛ دون إدراك منهم إلى القيمة التاريخية لهذا المعلم المهم. مثلما حدث لسد وادي صعب في المثناة وغيره.

وبعد تصوير السد ضوئياً، أجريت مقايسة مترية عليه، وكانت على النحو الآتي:

١- الجزء القائم من الشرق، وهو مدرج من الواجهة، على طريقة بقية سدود الطائف؛ وله خمس درجات:

- الطول: ٤٠ متراً. وعليه مغيض ملاصق للجبل بطول نحو (١٥) متراً.



سد الملاح من شرق السيل الكبير

- العرض (الدماك): ١٠ أمتار.
- الارتفاع من المنتصف: ١٠ أمتار

٢- الجزء المكسور على بطن الوادي:

- الطول: ٨٠ متراً.
- الطول المقدر لكامل السد من أعلاه قبل انكساره: ١٦٠ متراً.
- الارتفاع المقدر للسد من منتصفه قبل تهدمه: ٤٠ متراً.

وحسب هذه القياسات والموقع الذي وقفت عليه؛ أستطيع القول؛ إن سد (الملاح)، كان أكبر سد أموي بالطائف وضواحيها، لطوله وارتفاعه وعرضه غير المسبوق، ولاتساع الرقعة المخصصة للخزن المائي خلفه.

الهوامش والمراجع

١. الشوق الطائف حول قطر الطائف. معجم شعري ألفه الباحث. وصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٢٠هـ في بيروت. وهو من إصدار لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي بالطائف. القسم الأول ص١١١.

٢. الشوق الطائف. مصدر سابق. ص ١٨٩.

٣. وثقت لجنة المسح الأثرية في إدارة الآثار (١٣) سداً من هذه السدود. ونشرت بحثها في مجلة أطلال التي تصدر عن إدارة الآثار في وزارة المعارف. العدد السادس ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. والسدود الموثقة في هذا البحث هي: (ثلبة - عرضة - اللصب - الدرويش - صعب - سيسد - السملقي - القصيبة - سلأمة - أم البقرة - العقرب - السداد - داما). وانظر كتابنا (ثراء الآثار في منطقة الطائف) فهو يعرض لهذه السدود وغيرها مع تصحيحات وتصويبات، وصور ضوئية تنشر أول مرة.

٤. كتبت ثلاثة بحوث نشرتها لي هذه المجلة قبل اليوم؛ بأعدادها: (١٧٦) صفر ١٤١٢هـ و (٢٨٠) شوال ١٤٢٠هـ و (٢٩٠) شعبان ١٤٢١هـ قدمت من خلالها؛ كشفاً غير مسبوق لسدود كانت مجهولة وهي: (السلمان - قريقير - سويس الأعلى - سويس الأسفل - الأحيمر - وديمة - القعايد - السُّديد - قرة - العاقد). أي عشرة سدود.

٥. أقصد بالمقدر؛ تصور قياس غير موجود على الطبيعة، ولكنه يعرف من معاينة الموقع ميدانياً.

٦. مجلة الفيصل. العدد (٢٨٠). شوال١٤٢٠هـ (الظاهرة السدودية في أم البكار).

٧. انظر كتابنا: (ثراء الآثار في منطقة الطائف). إصدار لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي بالطائف. الطبعة الثانية ١٤١٦هـ (سد داما)

٨. من هذه الدراسات؛ ما نشر في مجلة الفيصل العدد (١٧٦) صفر١٤١٢هـ والعدد (٢٩٠) شعبان ١٤٢١هـ وجريدة الجزيرة العدد (٥٥٩٤) في ١٤٠٨/٦/٣هـ.

٩. انظر مجلة الفيصل العدد (٢٩٠) شعبان١٤٢١هـ.

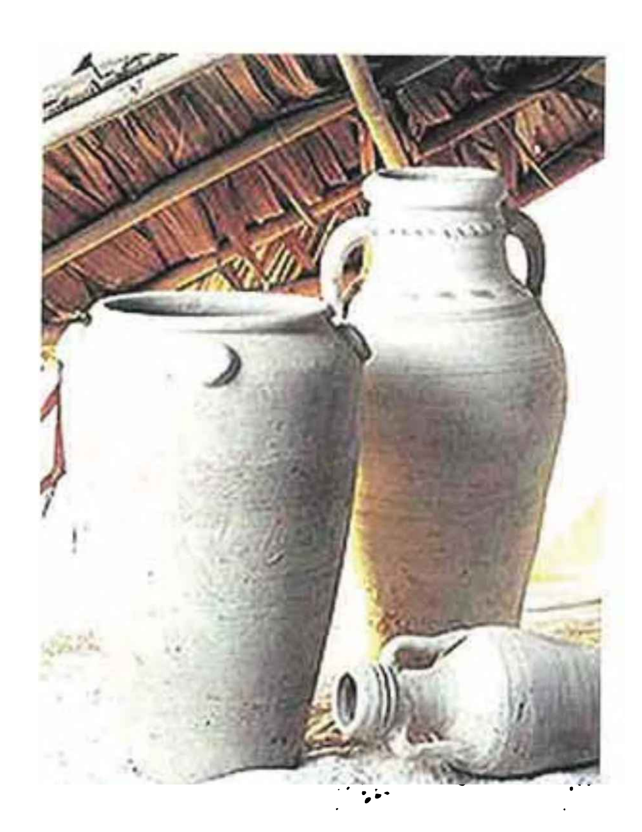
١٠. كتب الدكتور ناصر بن علي الحارثي؛ عضو لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي بالطائف؛ كتاباً في النقوش العربية المبكرة بمنطقة الطائف. صدر عن لجنة المطبوعات في التنشيط السياحي سنة ١٤١٨هـ.

- الصور بعدسة الباحث.

باليسي وصناعة الفخار

ترجمة: حاتم أمين أحمد الجمل
شبين الكوم ـ مصر

الفخار! ليس الزهريات فقط، ولكن كل أنواع الأشياء المصنوعة من الطين، ومحرقة في النار. طبعًا، إنه أجمل مزاح في العالم. ولو أمكنك الحصول على بعض الطّفل الجيد، وضغطت عليه، وكبسته، وجعلته أملس ناعمًا، ثم حاولت أن تحرقه في فرن، أو حتى أن تضعه بين قطع الفحم الساخنة في النار، لتحصل على الصلابة والمتانة. حقيقة إنها لن تستمر طويلاً. ومهما بدت جميلة في البداية، فإنها عمومًا تنتهي بالتشقق. ومازلت تأمل، وتعيد المحاولة. ولأننا جميعًا صنعنا أواني فخارية، ونعلم كيف تشبه في ملمسها. أنا فكرت أنك تحب قصة الخزاف الذي حاول مرارًا، وتكرارًا، وبجد، ونجح في النهاية.



كان هناك رجل فرنسي اسمه برنارد باليسي، ولد عام ١٥١٠م في مدينة بجنوب فرنسا، وكان والده نافخ زجاج، رجلاً فقيرًا جدًا. لم يكن معه مال يكفي لتعليم ابنه الصغير، ولكن برنارد كان ذكيًا وسريع التعلم، تمكن من التقاط القراءة والكتابة.

وطبعاً، تعلم حرفة والده: كيف يرسم، ليمكنه تصميم نماذج للزجاج، وكيف يطحن الألوان، ويخلطها، ويستعملها في الرسم. وكان يرسم بمهارة. ودائماً كانت تباع مسوداته التي يرسمها لجيرانه بثمن حسن. ووفد إليه الراغبون في رسم صور شخصية لهم. ووجد أن ذلك مربح أكثر من اشتغاله بأعمال الزجاج، التي لم تلق سوقاً رائجة.

وقبل أن يستقر ليزاول حرفته، صمم أن يرى العالم، ويدفع نفقات أسفاره من رسوماته، منذ حرص الفرنسيون في كل أنحاء فرنسا على رسومات سارة لأشخاصهم. ولعدة سنوات، تمتع بحياة التطواف، وتعلم كثيراً.

ذهب شرقاً إلى انتورب Antwerp، وغرباً حتى برست Brest. وتجول في آردن Ardennes، وبيرنيز Pyrenees، وفي كل أنحاء فرنسا.

وطوال الوقت، كان يتعلم أشياء، كانت مفيدة له جداً فيما بعد. وكتب مذكرات عن الأراضي المختلفة في أماكن مختلفة، من فرنسا. ونحن نعلم أنه انتبه جيداً إلى نوافذ الكنائس في أقاليم معينة، درس الاختلافات في زجاجها، وكتب ملاحظات عن أسطح النوافذ المتآكلة في بوانون Poiton، وبريتاني Brittany.

وذات يوم تزوج، وتوقف عن التجوال، واستقر في مدينة قديمة، أنيقة، تدعى سانتس Saintes، وكان سعيداً جداً هناك مع زوجته وأولادهما. وكان من الممكن أن تدوم هذه الحال، غير مشهورين، لو بقيت الأمور على حالها.

وذات يوم، أرسل «لورد» معروف يعيش بالقرب من المدينة، إلى باليسي، ليأتي إلى قلعته، وينجز له بعض الأعمال، ذهب باليسي إليه، وفي القلعة كانت هناك مجموعة من الفخاريات القديمة، من جميع الأنواع والعصور، وعرض عليه ذلك. ودهش لرؤيتها، ومدحها في فهم.

ثم أخذ اللورد من صوان خاص، قدحاً فخارياً جميلاً مغطى ومزخرفاً بالميناء، حتى إن باليسي حين رآه، لم يستطع أن يتكلم من فرط السرور.

لم يكن باليسي خزّافاً، ولم يفهم كيفية تناول الطين الخزفي.


جمال الأواني الفخارية ألجم باليسي فلم يستطع التكلم من فرط السرور


كسّر باليسي أواني جديدة وطلاها بطريقته

وكان يعلم أن سر صناعة الميناء قد فقد، ولا يوجد أي شخص، يمكنه أن يعلمه إياه.

ولكنه صمم في المكان والزمان نفسيهما أن يعيد اختراعه، وأنه لن يهدأ أو يقلل من نشاطه، حتى يتمكن من صنع أشياء جميلة، مثل الفنجان المطلي بالخزف. لقد صُنع مرة، ويمكن أن يصنع ثانية. وسوف يقوم بذلك.

وعاد إلى منزله، وأخبر زوجته بعزمه على هذا العمل. لم تكن زوجته مسرورة. وقال لها: «أنت ترين، ماذا يعني ذلك.

إنه يعني أنه بدلاً من كسب النقود، والحصول على بيت مريح، والقدرة على شراء ما تحبين لأطفالك، إنهم سيصبحون فقراء جداً، لمدة طويلة».

وكانت فخورة برسوماته، وهو يرغب الآن في طرح اشتغاله بالرسم، ويشق على أم، أن تنظر إلى أطفالها، وتوافق على عيشهم في ضيق. وفي النهاية، قد يخفق برنارد في الحصول على الميناء. وشعرت أن ذلك، لا يستحق المغامرة. ومع ذلك، وافقت حين حثها على المغامرة. وبدأ في العمل.

وفي البداية، كان لا يعلم على الأقل مم يصنع الميناء. لكن أمكنه أن يحدس.

وانتقى أشياء متنوعة، بدت له مناسبة؛ وطحنها، إلى أن صارت مسحوقاً. ثم اشترى كمية من الأواني الخزفية، وكسرها إلى قطع. ورسم بحرص شديد على كل قطعة ببعض مساحيقه، ودون أنواع المساحيق التي استعملها وهو يرسم على القطع المختلفة. ثم بنى فرنه، وأشعل النار، ووضع البقايا الخزفية المكسرة ليحرقها.

ما الذي حدث؟

حسناً، أولاً، حدث ما نعرفه جميعاً بالتجربة.

لم تستمر النار في الاشتعال. لم يعرف باليسي (مثلنا) درجة حرارة النار، التي يحتاج إليها ليجعل مسحوقه المطلي يسيح، ويصير ميناء. فهو أحياناً جعلها عالية الاشتعال، وأحياناً أخرى قليلة الاشتعال. وفي مرات أخرى، يرتب قطعه، بطريقة لا تصيبها الحرارة بالعدل والتساوي. وكان عليه أن يكتشف كل شيء لنفسه من خلال أخطائه.

صناعة الأواني تكلف كثيراً، فهي تحتاج إلى الخشب اللازم للفرن، وكان نادراً، ولم يكن هناك فحم في هذا الجزء من فرنسا، كما تحتاج إلى المساحيق. واشتد حزن زوجته، ونما أولاده في هزال، وكلهم قاسوا الفقر.

... ومرت عدة سنوات. ولكنه استمر في محاولته.

وأخيراً، أجبره الفقر على التوقف عن تجاربه، وعمل بعض الوقت لكسب النقود. ولكن عندما ادخر ما يكفيه لشراء أدوات جديدة، عاد ثانية إلى أوانيه. وأول شيء فعله هذه المرة، بدا مضيعة لزوجته المسكينة. وصاح قائلاً: «أنا كسرت حوالي ثلاث رزم من الأواني، كلها جديدة!» وطلاها بالطريقة نفسها، ثم نقلها إلى صديق يمتلك موقداً زجاجياً، مرتفع الحرارة جداً.

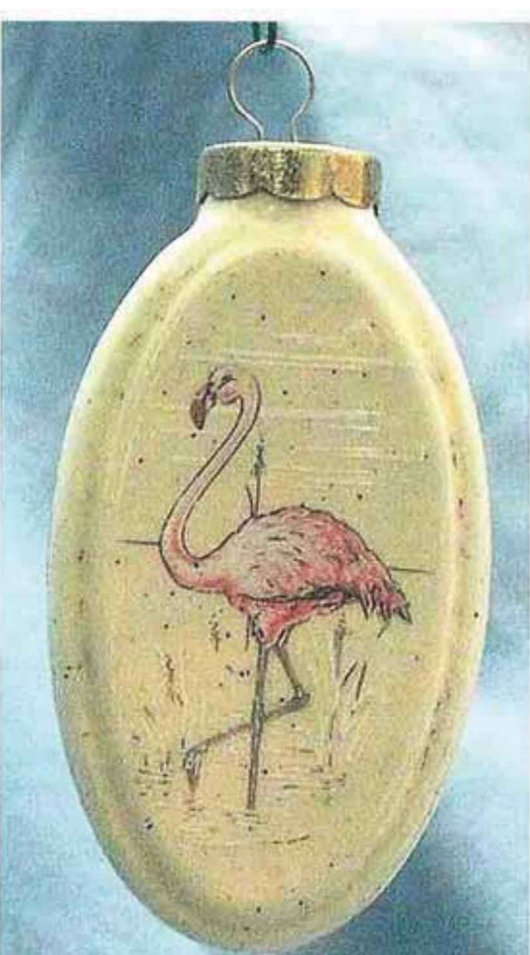
وكانت النتيجة مشجعة، واستمر في عمل تجارب من النوع نفسه، مع زيادة في الأمل.

وأخفق مراراً وتكراراً. واشترى، سنة بعد أخرى، أواني، وكسرها. واشترى عقاقير وسحقها وخلطها. وأحرق أوانيه المكسرة، باللهب، وانتظر النتيجة. ولم تكن أبداً النجاح.

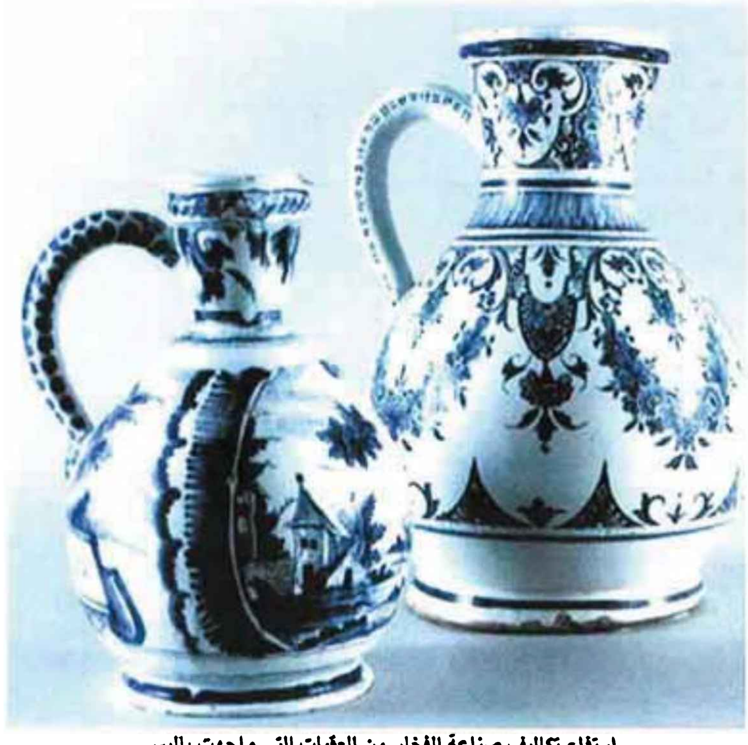
وذات يوم، بعد مرور عشر سنوات على التجربة، لم يبد أنه اقترب من الهدف. وعزم على أن يكون هناك نهاية لكل ذلك. وكان لابد أن يحاول محاولة أخيرة. فإذا لم يكن ثمة نتيجة، فليتوقف عن كل ذلك إلى الأبد. لقد أضاع وقتاً ومالاً كثيرين. وقاست عائلته ما فيه الكفاية. فلو أخفق هذه المرة الأخيرة، فإن عظمة اكتشاف الميناء، يجب أن تكون من نصيب رجل آخر، وليست من نصيبه.

وللمرة الأخيرة كسر باليسي أوانيه وطلاها. وقد وضع أكثر من ثلاثمئة خليط مختلفة على قطعة. ثم أخذ القطع إلى الفرن الزجاجي، وانتظر.

الآن، حان الوقت المحدد. فتح الفرن، وتدفق الضوء العظيم. إحدى البقايا الخزفية، بدت مختلفة عن أي شيء آخر يملكه. ولا يمكن أن يعرف سبب ذلك، حتى تبرد. لكن



استخدم باليسي خشب الأرضية كوقود


ارتفاع تكاليف صناعة الفخار من العقبات التي واجهت باليسي

وهي تبرد، رآها تقسو، ويشتد بياضها، وتشتد ـ ملساء، مصقولة، تبهر البصر. ميناء بيضاء. «فريدة بجمالها».

لم يعد هناك كلام عن الطرح والإهمال، الآن جاء النجاح.

ولكن، هناك الكثير المطلوب من باليسي أن يعمله، قبل أن يستطيع عمل أدوات جميلة من الصلب الرقيق، مغطاة بالميناء، مثل الفنجان الذي أوحى إليه أولاً. يجب عليه أن يعمل الآن على انفراد، وأن يكون له فرنه الخاص، حتى يستطيع السيطرة التامة عليه، علماً بأنه لم يعد هناك مال كاف للموقد.

وتمكن من الحصول على الطوب بكيفية ما، ولكنه لم يستطع دفع أجر العربة لنقله إلى المنزل. وكان عليه أن يحضره بنفسه، حاملاً إياه في سلة على ظهره. ولم يستطع أن يدفع أجر عامل ليبني له الفرن. وكان عليه أن يعمل بنفسه من البداية إلى النهاية. لقد رأى أمامه رؤية، ولم يحرص على أي شيء قط، ما لم يستطع تحقيق حلمه.

وصنع آنيته، وحمصها، وغلفها بخليط ناجح. حينئذ، لابد من تسخين الموقد بحرارة عظيمة جداً وتم ذلك. وتأججت النار، وزأرت، وعندما ابيضّ لهيبها. ونظمت الأقداح، ووضعت بحرص في منتصف الوهج، والآن عليه أن ينتظر، حتى يذوب الخليط، والذي ينبغي أن يفيض بالعدل والمساواة على أكوابه، مغطياً إياها بطلاء خزفي أبيض لامع. وطوال الليل والنهار كان يغذي النار. وفي الصباح أحضر له ابنه نقولا Nicholas صحناً من الثريد لإفطاره. كم يبدو التعب على الأب!

قال لابنه: «أشكرك يا ابني، غداً، سنأخذ إجازة معاً».

«ولكن يا أبتي، من الذي سيغذي الفرن؟».

«غداً سيكون عمله قد أنجز».

ولكن غداً جاء ومر، ومازال باليسي في احتياج إلى كثير من الوقت، وكثير من الحرارة. والآن يحدث شيء مرعب. إن كمية الخشب تتناقص. ماذا يفعل؟ باليسي أصبح مفلساً، ولم يقرضه أي شخص بعد ذلك، ولو ترك النار تتناقص، وتخبو، سيضيع كل ما فعله. واندفع خارجاً إلى الحديقة، وبدأ في هدم السياج الخشبي. ورماه في النار، قطعة بعد قطعة، والتهمته النيران.

وآخر قطعة التهمتها النيران. والطلاء الخزفي لم يذب. عشرون دقيقة ـ عشر دقائق ـ خمس دقائق، يمكن أن تكون كل ما نحتاج إليه. وهجم باليسي على المنزل، واندفع إلى داخل حجرة الجلوس الصغيرة، حيث كانت زوجته المسكينة، التي لم تعد تصدقه، ولا تصدق تخيلاته اللطيفة تجلس بين الأطفال. وأمسك بالمنضدة محطماً.

وعاد ليحضر كرسياً ـ ثم آخر.

الحجرة خالية من الأثاث الآن.

والطلاء الزخرفي، لم يذب بعد.

هناك فرصة أخيرة باقية ـ سيخلع خشب الأرضية.

صاحت زوجته. ولكنه لم يتوقف من أجل ذلك. وحمل خشب الأرضية لوحاً لوحاً، إلى الفرن. أكثر! أكثر! وذاب الطلاء!

فعلها أخيراً! لقد حرص على الاستمرار، مستهيناً بكل صعوبة، ومتجاوزاً كل خيبة أمل، ونجح في النهاية.

ويخبرنا باليسي كيف قوبل بفتور. «قاسيت كرباً وضيقاً، ولا أستطيع وصفه. فقد كنت منهوك القوى تماماً، وجافاً تماماً من حرارة الفرن. وظل قميصي أكثر من شهر جافاً على جسمي. وكنت أيضاً موضوعاً للسخرية، وكان هذا


وضع باليسي على أطباقه الأشياء العادية في بلده الريفي


البساطة في الألوان ميزت أعمال باليسي

يسليني. وكذلك هؤلاء، الذين كان منهم العزاء والسلوى واجباً، جروا يصرخون خلال المدينة، التي حرق فيها الغطاء الخشبي للحجرات! وبهذا الأسلوب سحبت مني الثقة، ونظروا إلي على أنني رجل مجنون.. ولما أقمت مع أسفي قليلاً، لأنه لم يوجد شخص واحد يشفق علي، قلت لنفسي: «لماذا أنت حزين، منذ وجدت الموضوع الذي تبحث عنه؟ العمل الآن، والواشون سيعيشون حتى يروا الخزي».

وقد حصل. أصبح باليسي ناجحاً، ومشهوراً، حتى إنه حين قام الظلم والاضطهاد في فرنسا، وهددت حياته، لأنه بروتستانتي، أنقذه الفخار. اقتحم مصنعه، وزج به في السجن. ولكنه لجأ إلى الملكة الأم لفرنسا، وأنقذته. ويا لعظمة الفنان الذي لم يسمح له بالموت. إنه يجب أن يعيش ليعمل لبلده مزيداً من الأعمال الجميلة.

لقد عين باليسي خزافاً للملك. وذهب ليعيش هناك في باريس، حيث عمل حتى أدركته الشيخوخة.

واستغرقته ستون عاماً، ليتقن صناعة الميناء، وحتى نهاية عمره، حاول أن يحسّن عمله، ويكتشف الجديد حوله. وعانى كثيراً من القلق حول خططه. وكان يحس بحب كبير للطبيعة. وقد أخذ الزخارف التي أحبها كثيراً، ووضعها في أطباقه، من الأشياء العادية في بلده الريفي: الأزهار والفاكهة، وأوراق الأشجار وثمار التوت، والطيور، والأسماك والأصداف. وستجد كل ذلك في بضاعة باليسي. الكل يشبه الحياة الريفية، كل شيء مأخوذ مما رآه في المناطق المختلفة من فرنسا.

ولم يستعمل ألواناً كثيرة في طلائه الزخرفي: الأصفر الذهبي، الأزرق البنفسجي الغامق، الأخضر، والبني المأخوذ من لون الأرض المحروثة حديثاً، وراء الأراضي التي لم يذهب إليها. فأبدع فخاراً مدهشاً جداً، كالغرام العظيم الذي بثه في صناعتها.

وقضى باليسي السنوات الأربع الأخيرة من عمره في السجن. ولم تعد المنة الملكية تنقذه من ذلك. وقد أحبه الملك، وكان قلقاً عليه. يريده أن يطرح (ضلاله)، لينقذ حياته. ولكن باليسي بقي بروتستانتياً، متمسكاً بعقيدته التي هي أغلى من حياته.

وقد هُدد باليسي بالموت تحت الخطر، ولكن عاجلته المنية. وقد توفي في الثمانين من عمره، وهو مازال سجيناً.

ولنرجع إلى زوجته. ما الذي حدث لها. نحن لا نعلم بالتأكيد. ولكني أظن أنها ماتت قبل وقوع الأحداث الأخيرة. ولم يمت سر باليسي معه؛ لأن أولاده داوموا على ممارسة فنه.

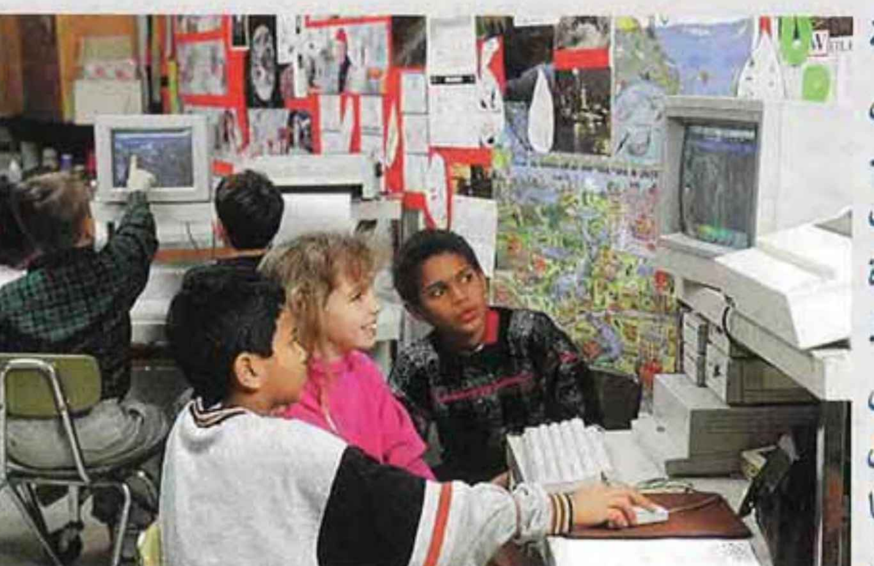
ولكن لم يكن عندهم موهبته. فاستطاعوا فقط تقليد ما صنعه. ثم ماذا بعد؟ إن السرّ الذي هو هذه السنون من العمل والحاجة، ضاع مرة ثانية.

مصدر الصور: الإنترنت، وهي لأعمال فنانين مختلفين.

تربية

من يحتاج إلى الابتكار؟ ولماذا؟

أنور طاهر رضا
إزمير - تركيا



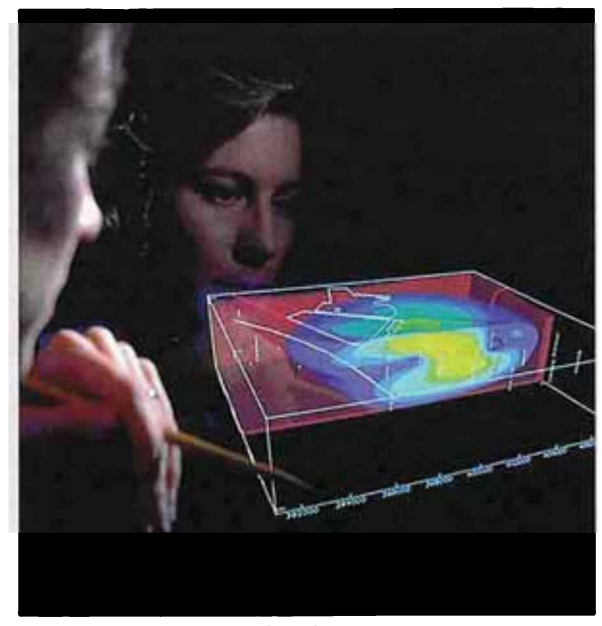
كانت الثورة الصناعية نقطة تحول كبيرة في حياة المجتمعات والأمم. فاستفادت المجتمعات والدول من هذه الثورة بنسب مختلفة ومتباينة. لقد سبقت بعض المجتمعات والدول غيرها في مقدار ما استفادت من هذه الثورة، فأضحت متقدمة ومتطورة، غنية وقوية فاعلة. وتأخرت غيرها عن ركب التقدم، فأمست متخلفة وفقيرة، تعاني كثيرًا من المشكلات والويلات في الداخل والخارج. تعيش الدول التي تسمى بالدول الصناعية المتقدمة والدول التي تسمى بالدول المتخلفة النامية في صراع عنيف، تبغي الأولى بيع منتجاتها الصناعية والنيل من خيرات الأخيرة المتمثلة بالمواد الخام بشتى الطرائق والوسائل.

لقد سببت الثورة الصناعية تغيرات كبيرة انسحبت على مجالات الحياة المختلفة جميعًا. وأضحت الحياة الحديثة في جوهرها شائكة ومعقدة، وأصعب من سابقتها؛ ذلك لأن تحقيق النجاح إنما يحتاج إلى الكثير من التقدم في مجال العلم والتقانة (التكنولوجيا) والوصول إلى مصاف الدول المتقدمة، وإلى استخدام الكثير من الذكاء والحيل والابتكار لتحقيق الأهداف التي باتت تتوسع يومًا بعد آخر.

اتخذت الدول المتقدمة العلم والتقانة شعارًا لها، تستخدمها للنيل من خيرات الدول النامية، وتستخدم

من الوسائل ما هي جديدة ومبتكرة ليس للطرف المقابل عهد سابق بها. فيبهر الطرف المقابل في كل مرة، ويُغلب على أمره. أضف إلى ذلك أن المجتمعات اليوم تعيش في الداخل والخارج على عدد من المستويات من المنافسة والتناحر والتصادم نتيجة لاختلاف مصالح الأفراد والشعوب ما لم تعشه من ذي قبل، وتستخدم من أجل الوصول إلى الأهداف في مثل هذه المجالات الكثير من الجهود الغزيرة والأوقات الوفيرة والأموال الطائلة.

إن التغيرات التي حصلت في داخل المجتمعات الحديثة بفضل المدنية الحديثة شملت مستويات كثيرة تتناول جوانب الحياة كلها، ومن أجل مجابهة الدول النامية هذه الأوضاع الشائكة المعقدة وإيجاد حلول لمشكلاتها العويصة تحتاج إلى أن تحل مشكلاتها في الداخل أولاً. ذلك لأن حل المشكلات الداخلية يُسهِّل حل المشكلات الخارجية. يثار في الذهن هنا عدد من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة وافية: ترى ما السر الذي يضمن حل هذه المشكلات المعقدة؟ ما الشيء الذي تحتاج إليه هذه المجتمعات؟ هل الابتكار ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة؟ من يحتاج إلى الابتكار؟ ولماذا يحتاج إلى هذا الابتكار؟ ما المستويات المختلفة التي نحتاج فيها إلى الابتكار؟



من دون وسائل تعليمية كافية لا يتحقق الابتكار

ما الابتكار؟

تستخدم في هذا المجال مصطلحات متعددة متداخلة بعضها مع بعض. لعل أهم هذه المصطلحات هو الابتكار والإبداع والكشف والاختراع. يكون من المفيد التمييز بين هذه المصطلحات المختلفة في الظاهر والمتشابهة في الجوهر. الابتكار هو ومضة من ومضات العقل السريعة التي تتضمن الأفكار المجردة والمعنوية، التي قد تكون حلاً لمشكلة، أو عنواناً لمقالة، أو خطة لبحث، أو موضوعاً لعمل فني أو أدبي، أو إيجاد نظرية أو وسيلة أو طريقة، قد تكون هذه الومضة كافية للحل أو تكمل بومضات أخرى غيرها. تتضمن هذه الومضات تحطيماً لقوالب فكرية تسيطر على المرء، أو كسراً لقيود فكرية مفروضة على الفرد. يكون الابتكار بذلك خروجاً عن المألوف، أو انفتاحاً على خبرات الآخرين، أو ارتياداً لطريق آخر غير الطريق الرئيس الذي يسلكه الآخرون، أو مباشرة بأول خطوة نحو ما هو غير معروف، أو وضع خط فكر جديد، أو طرح أبدال مختلفة لمشكلة معروضة، أو إيجاد شيء جديد يؤدي إلى إيجاد أشياء أخرى، أو التوصل إلى إيجاد علاقات جديدة بين الأفكار المطروحة، أو طرح فكرة جديدة أصيلة.

الإبداع هو الإجادة في إتقان عمل ما، وإكماله بشيء من الكمال مع الإتيان بشيء جديد. ليس الإبداع تحسين أداء عمل ما بمهارة عالية فحسب، بل المساهمة في التطوير نحو الأفضل، وإضافة شيء جديد بعد أداء العمل بالمهارة اللازمة. وهو أمر يحتاج إلى الابتكار في الممارسات الفعلية. فالمبدع مبتكر لاشك، ولكن المبتكر ليس بالضرورة أن يكون مبدعاً. فقد أبدع الخالق في بناء الكون وما يحتويه من أجرام سماوية، فهو بديع السموات والأرض، وقد أتقن في صنع كل شيء، والمؤمن مطالب بإتقان عمله بالقدر الذي يجيده.

الكشف هو التوصل إلى أمر غير معروف أو إيجاد شيء مجهول كما يحصل عند اختراع مادة أو إيجاد وسيلة أو آلة أو جهاز أو طريقة أو نظرية غير معروفة سابقاً. وهو يشترك مع الاختراع في هذا المجال، على أنه أوسع منه. لأنه يتضمن أيضا ارتياد مكان جديد لم

يكن معروفًا من ذي قبل كما حصل في حالة كشف أمريكا، أو يحصل في كشف مغارة أو كهف أو آثار قديمة. وهذا أمر يحتاج إلى كثير من الجرأة والشجاعة والتضحية والفداء مع كثير من المبادهة والمبادرة، وتحمل كبير للمسؤولية، وبعض من الاندفاع في المغامرة والمجازفة في الأمر. وهذه الأمور جميعًا هي من ضرورات الابتكار.

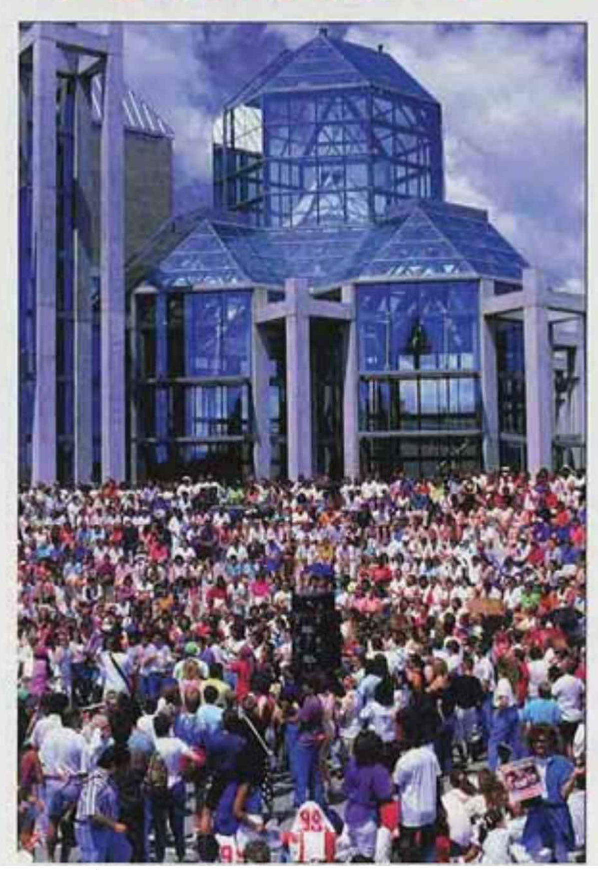
أما الاختراع فهو تحويل الأفكار المجردة والمعنوية المبتكرة إلى أشياء محسوسة وملموسة ومنتجات وخدمات. الاختراع هو إيجاد شيء جديد أو التوصل إلى إنتاج شيء غير موجود نابع من حاجة معينة لدى الإنسان ويسد الاختراع الجديد هذه الحاجة. ولهذا السبب فقد قيل: إن الحاجة أم الاختراع. فالأفكار إذن قد تتضمن اختراع آلة أو جهاز جديد يفيد الإنسان في قضاء بعض شؤونه.

يفهم مما سبق أن الابتكار هو العامل المشترك بين الإبداع والكشف والاختراع. وهو الأمر الذي يؤول إليه في هذه الحالات جميعا؛ ومن دونه لا يتحقق شيء من ذلك.

ينبغي أن يكون النظام التربوي دائمًا وأبدًا سبّاقًا في كل ميدان من ميادين الحياة من أجل توجيه أفراد المجتمع نحو الأفضل والأحسن بشكل دائب ومتواصل

مستويات الابتكار

الابتكار ضرورة من ضرورات الحياة في كل المستويات؛ على أننا رغبةً في تسهيل الأمر، نتناول منها الفرد نفسه، والنظام التربوي، والقطاع الصناعي، ووسائل الاتصال المختلفة، والمجتمع بشكل عام. يكون الابتكار إذن ضروريًا على هذه المستويات جميعًا:



اهتمام واسع في العالم المعاصر بالمراكز العلمية العامة

ـ مستوى الفرد:

تبرز أهمية الفرد في المجتمع في أنه يمثل نواة الجماعات الإنسانية التي تشكل المجتمعات. ويملك الفرد طاقات وقابليات وقدرات متعددة كامنة. وإن استثمار هذه الطاقات والقابليات والقدرات يعود بالنفع على الفرد والمجتمع جميعًا. ومن أجل استثمار هذه الطاقات والقابليات والقدرات فلابد من إخضاع الفرد إلى تربية عامة وإلى تربية خاصة بالابتكار ووسائل تحقيقه. يكون ترك الفرد من دون استثمار هذه الطاقات والقابليات والقدرات هدرًا للفرد بشكل خاص والمجتمع بشكل عام، ومثل هذا الفرد كمثل فقير يملك خزائن ثمينة مطمورة تحت مسكنه لا يدري عنها شيئًا، فلا يصرف الجهود اللازمة من أجل إخراج هذا الكنز الدفين إلى حيز الوجود. ويعيش هذا الفرد حياته كلها فقيرًا، ويموت فقيرًا. يكون الابتكار بذلك ضروريا لكل فرد، وتبرز أهمية الابتكار بشكل خاص بعد التأكيد الذي برز من أن كل فرد يمكن أن يكون مبتكرًا ومبدعًا فيما إذا حصل على التربية والتدريب في هذا الخصوص.

يعيش الفرد الذي يفتقر إلى الابتكار حياة رتيبة تتكرر فيها أمور معينة بشكل مستمر. تكون الحياة مملة ولا طعم لها على الإطلاق. يكون الفرد بذلك قد تقبل ما هو عليه، ولا يبذل الجهود اللازمة من أجل التغيير نحو الأحسن. وتكون الحياة بذلك من أجل الموت. ويكون أمر انتظار الموت رهيبًا لا مهرب منه أبدًا.

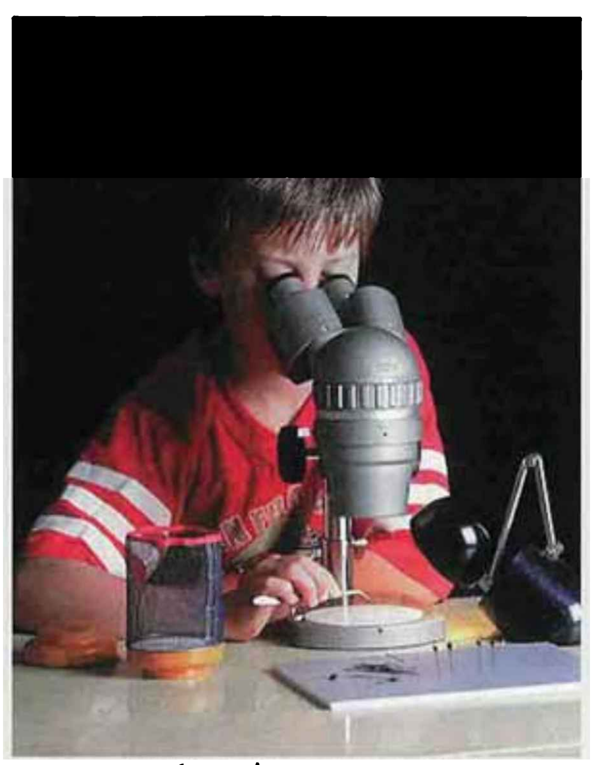
الابتكار ضروري جدًا على مستوى الفرد نفسه؛ ذلك لأن الابتكار إنما يحقق للفرد منافع مادية ومعنوية على السواء. على مستوى المنافع المادية يمكن القول بأن الفرد الذي يعيش في يومنا هذا مختلف عن فرد آخر سبقه بقرن أو قرنين أو حتى بعقد أو عقدين من الزمان؛ ذلك لأن المنافسة بينه وبين الأفراد الآخرين قائمة على قدم وساق في كل مجال من مجالات الحياة المختلفة. يحتاج الفرد اليوم إلى الحصول على قدر معقول من التربية، وصرف سنوات طويلة من حياته في هذا المجال. وهو في هذا يبغي الحصول على مهنة تدر له ما يمكنه من مواصلة حياته في مجتمع ازدادت فيه الحاجات كثيرًا. وهذه الحاجات في ازدياد مستمر، وتغير دائب ومتواصل. لقد أضحى الزواج وتكوين الأسرة مثلاً ليسا بالأمر السهل الميسور في هذه الأيام.

لقد ارتفعت نسبة البطالة في المجتمعات الحديثة ارتفاعًا واضحًا. وأضحى الفرد بحاجة إلى شهادة عالية من أجل الحصول على العمل. ومن المؤسف أن يقال: إن البطالة إنما انسحبت على أصحاب الشهادات العالية أيضًا. وعلى الرغم من أن الحصول على الشهادة العالية يرفع من احتمال حصول الفرد على وظيفة معينة، إلا أن الشهادة لا تكفي وحدها. فأصحاب الأعمال إنما يبحثون عن المهارات التي يملكها الفرد في أداء الأعمال، وعن تلك الخصائص الفريدة الموجودة في الشخص والتي لا يملكها غيرهم من الناس. وكلما كان الإنسان مبتكرًا في أداء عمله كان احتمال حصوله على العمل أكثر، وكان ما يتقاضاه في سوق العمالة الحرة أعلى من غيره. إن المبتكر يكسب الأموال الوافرة تقديرًا لابتكاراته عاجلاً أو آجلاً أكثر من غير المبتكرين. فالمبتكرون بشكل عام يحصلون على أجور عالية موازنة بينهم وبين من هم دون ذلك.

ومن ناحية أخرى فقد أضحت العمالة في هذه الأيام غالية ومكلفة. يحتاج الإنسان إلى مبالغ طائلة لتشغيل بعض العمال من أجل أداء بعض الأعمال المنزلية البسيطة، هذا في الوقت الذي لا يجد فيه الإنسان من يريد، وبالشكل الذي يريد، وفي الوقت المناسب، وبالكلفة المناسبة. ويتجمع لديه بمرور الأيام الكثير من الآلات والأدوات والأجهزة والأشياء العاطلة أو المستعملة التي يمكن الاستفادة منها بشكل أو بآخر في مرفق آخر من مرافق الحياة. كما أضحت الآلات والأدوات من أمثال السكين والمطرقة والفرشاة والمثقب والمنشار التي يمكن استخدامها في التعمير والترميم والتصليح والكشف والإبداع والابتكار بفعل التطور التقاني رخيصة يمكن اقتناؤها من قبل أي فرد. لقد نشرت كتب كثيرة تساعد الفرد على كيفية أداء أعماله المختلفة بنفسه. لذلك أضحى في إمكان الإنسان أن يقوم بكثير من واجباته بنفسه مستخدمًا مهاراته وابتكاراته، ومتذوقًا طعم الأعمال التي يقوم بها، ومقتصدًا الكثير من الأموال التي تفيده في جوانب أخرى من حياته.

> ليس الإبداع تحسين أداء عمل ما بمهارة عالية فحسب، بل المساهمة في التطوير نحو الأفضل، وإضافة شيء جديد بعد أداء العمل بالمهارة اللازمة

وعلى مستوى المنافع المعنوية يمكن القول بأن قيام الإنسان بالأعمال المنزلية، وأداءه كثيرًا من مهامه واحتياجاته اليومية يزودانه بالثقة بالنفس، ويوفران له الاستمتاع بالعمل، ويجعلان حياته سعيدة. إن أداء الفرد لأعماله بشكل مبتكر يجعله بارزًا بين الآخرين، ومقدرًا دائمًا تقديرًا عاليًا، ومعروفًا بين الناس، ويشار إليه بالبنان. وهذا أمر مهم بالنسبة إلى كل فرد، وهو ما يحتاج إليه نفسيا، ويريحه أيما ارتياح، ويبعث فيه


استخدام المختبر العلمي من أسباب تميز الطلاب

الطمأنينة النفسية. ليس هناك من أمر يسعد الفرد مثلما يجده عندما ينتج شيئًا مبتكرًا، أو عندما يبتكر شيئًا جديدًا. يعدّ الإنتاج مصدر اعتزاز ومبعث مفخرة للفرد، وخاصة إذا كان هذا الإنتاج شيئًا خاصًا فريدًا به. فالمؤلفون يسعدون كثيرًا بإنجاز أعمالهم، ويرون كتبهم كالأولاد، ويعتزون بها أيما اعتزاز. وهناك من يضم مؤلفاته على صدره معبّرًا عن حبه الشديد الجارف. ويرعى المزارعون نباتاتهم وحيواناتهم كما يرعون أولادهم، يراقبونها في كل آن وحين. تنشأ علاقات المودة والمحبة بين المزارع والنبات أو الحيوان. ويقال إن النباتات والحيوانات إنما تنمو بالحب والمودة. وكثير منا من يتحدث مع الحيوان والنبات كما يتحدث مع الإنسان.

إن أداء عمل ما بشكل مبتكر إنما يعدّ تحقيقًا للذات التي وضعها ماسلو على أنها حاجة في قمة هرمه للحاجات الإنسانية، وهو عندما يفعل ذلك إنما يحصل على الشهرة، ومَنْ منا لا يريد أن يكون مشهورًا بين الأقران والأحباب بشكل خاص، والمجتمع بشكل عام؟ يوفر الحصول على الشهرة اطمئنانًا للنفس لا يضاهيه أي شيء آخر، وليس هناك من مجال للوصول إلى الشهرة كذلك الذي يصل إليه المبدعون والمبتكرون.

يذكر هول وويكر Hall and Wecker, (ص١٦٤) أن توفير بضاعة أصيلة جديدة ومختلفة، يغير أنماط شراء المستهلكين. إن الأفكار الجديدة إنما توفر منافع لم يختبرها أحد من ذي قبل. إن المبتكرين إنما يعرضون دورات جديدة، ويكتشفون أرضية جديدة. إن الأوائل في ميادينهم هم ممن يقضون على سلبيات شيء ما. إن الأفكار الأصيلة إنما تثير التعجب وتلقى الاهتمام وتلفت النظر وتشد الانتباه. فكل منا يتذكر أن أول إنسان نزل على سطح القمر هو نيل ارمسترونغ. ولكن المرء يشك في أن أيًا منا يستطيع أن يتذكر اسم شخصين آخرين ممن نزلا على سطح القمر أيضًا. إن الانفراد بشيء مايضع الفرد في موقع مميز، ويجعله مركزًا لتناقل الأخبار. إنه يوقف الناس على هذا الشيء، لكي يسجلوا ملاحظاتهم عنه. إن الأوائل إنما يقطفون ثمار الشهرة، ويحتلّون مركز انتباه الناس، ويكسبون الأرباح كثيرًا. يشير هول وويكر إلى دراسة تمخضت عن أن الأوائل إنما يحصلون على حصة من السوق تعادل ٧ر٢ مرة مما يحصل عليه المقلّدون. ولا يقتصر دور المبتكرين على زيادة الثروة الشخصية فحسب، بل يساهمون في زيادة الثروة الوطنية والثروة العالمية على السواء. يؤيد تورانس Torrance (ص ١٣) الرأي الأخير و يذهب إلى أن المخترعين إنما يزيدون العالم ثراء على ثراء.

- **مستوى النظام التربوي:**

التربية هي كشف طاقات الفرد وقابلياته وقدراته المختلفة، والعمل من أجل تطويرها وتنميتها إلى أقصى حد ممكن، لتحقيق منافع مشتركة للفرد والمجتمع معًا. فالفرد يملك طاقات وقابليات وقدرات ورثها عن آبائه وأجداده. وإذا ما ترك الفرد من دون تربية فإن هذه الطاقات والقابليات والقدرات تذهب هباء منثورًا، لا يستفيد منها الفرد أو المجتمع، فتكون التربية من هذا

المنطلق استثماراً طويل المدى لمصلحة كل من الفرد والمجتمع. والتربية عندما تؤدي وظيفتها فإنها إنما تحقق ذلك التوازن الفريد بين منافع الفرد الشخصية ومنافع المجتمع العامة. فلا تضحي هذا من أجل ذاك، ولا تضحي ذلك من أجل هذا. وفي كل بلد نظام تربوي خاص يعمل من أجل تحقيق هذا التوازن الفريد.

ينبغي أن يكون النظام التربوي دائماً وأبداً سبّاقاً في كل ميدان من ميادين الحياة من أجل توجيه أفراد المجتمع نحو الأفضل والأحسن بشكل دائب ومتواصل. يتطلب هذا الأمر من النظام التربوي أن يؤدي دور الريادة في توجيه المجتمع نحو تحقيق مصالح تعود على المجتمع بما فيه الخير والبركة. وليست هناك آفة تبتلى بها المجتمعات مثلما تبتلى في تأخر نظامها التربوي عن القطاعات الأخرى الموجودة فيها.

يعتمد تطور المجتمعات وتنميتها وتقدمها على عقولها المفكّرة وطبقتها العاملة التي تنفّذ عصارات هذه العقول. تشكل التربية والتدريب في ميدان الابتكار ذلك الجزء المهمل من التربية العامة لأسباب تعود إلى صعوبات الميدان وعدم تدرب المعلمين في هذا المجال. وما لم تحصل هذه العقول على التربية والتدريب اللازمين في ميدان الابتكار فلن يكون في الإمكان تطوير المجتمع وتنميته والعمل من أجل تقدمه، ورفع شأنه إلى المستويات العالية، ومواجهة تلك الصراعات التي تتسم بها الحياة العصرية.

يقع عبء إعداد الطاقات (الكوادر) التي تتولى أمر تمشية أمور المجتمع على النظام التربوي، فالنظام التربوي الذي يعتمد على الاكتفاء بنقل المعلومات الجاهزة وتقليد الآخرين لا يستطيع تغيير الكثير من أجل مجابهة التغيرات الكثيرة التي تحصل في الحياة العصرية، ولا يستطيع مجابهة المتطلبات الجديدة التي تفرض نفسها على واقع الحياة. وأمام هذه التحديات أضحى النظام التربوي الذي يكتفي بإيصال العلم فقط إلى الطلبة غير كفء أبداً. ولابد من تشكيل نظام تربوي يعتمد على الابتكار، ويشجعه، ويعمل من أجل تحقيقه. ويكون من الضروري جدا إعداد أفراد مبدعين يتولون تطوير المجتمع بشكل مستمر نحو الأفضل والأحسن، ويتسمون بالابتكار في كل أعمالهم لمجابهة متطلبات هذا العالم المتصارع في داخل البلد وخارجه.

إننا نعيش اليوم في عصر معلومات مكثفة يعرف بعصر انفجار المعلومات. لقد أضحى أيّ علم يضاعف نفسه في كل بضع سنين. وتنخفض هذه السنون بتقدم الأيام. وليس هناك من سبيل لتعلم هذا التراكم العلمي إلا بوسائل تعتمد على الابتكار، وتعمل من أجل تحقيقه.

إننا نعيش اليوم في عصر ثورة تكنولوجية. لقد أضحت التكنولوجيا المتقدمة هي التي تشكل أساس التنمية والتقدم. واحتلت تكنولوجيا المعلومات البارزة في تكنولوجيا الحاسب الآلي (الكومبيوتر) مقدمة القطاعات التي تدرُّ الأموال الطائلة لأصحاب الاستثمارات. إن التكنولوجيا أثر من آثار العمل المبتكر الخلاق، وميدان خصب جداً للابتكار لا ينضب ماؤه أبداً.

> كلما كان الإنسان مبتكراً في أداء عمله كان احتمال حصوله على العمل أكثر، وكان ما يتقاضاه في سوق العمالة الحرة أعلى من غيره

ونتيجة لما حصل من تطور علمي وتكنولوجي هائل في النصف الثاني من القرن العشرين بشكل عام، وفي العقدين الأخيرين بشكل خاص فإن النظام التربوي بحاجة إلى أن يعاد النظر في كل جانب من جوانبه المختلفة. فهو بحاجة إلى إعادة النظر في أهدافه وطرائقه التربوية ووسائله التعليمية ووسطه التربوي وفي تقويمه وقياسه.

إن ترك أمر تحديد الأهداف يخلق نوعاً من العشوائية في النظام التربوي. فالأهداف التربوية الخاصة حسب تصنيف بلوم تنقسم إلى أهداف تربوية ذهنية وعاطفية وعملية. لا يحقق التركيز في الأهداف الذهنية وحدها الابتكار أبداً. ولا يمكن تحقيق الابتكار بصياغة أهداف من نوع واحد أو من المستويات الدنيا

من تلك الأهداف التربوية. لقد أضحى الاهتمام بالمستويات المنخفضة للأهداف التربوية غير كفء لمجابهة هذه الثورة العلمية والتكنولوجية.

لقد بات الابتكار مطلبًا ملحًا جدًا في كل جانب من جوانب هذه الثورة العلمية والتكنولوجية. لذلك ينبغي تحديد الأهداف التربوية العامة للنظام التربوي أولاً، وترجمة هذه الأهداف التربوية العامة إلى أهداف تربوية خاصة واضحة وجلية لكل من المعلمين والمتعلمين، وكل من يهمهم أمر التربية والتعليم في المدارس ثانيًا. لقد أضحت صياغة الأهداف التربوية التي تحقق الابتكار مطلبًا من المطالب العاجلة التي لابد لكل نظام تربوي من وضعه في أولوياته. يحقق الابتكار متى ما تمت صياغة أهداف تربوية خاصة من الأنواع الثلاثة المختلفة. وبصدد هذا الموضوع يؤكد تورانس Torrance (ص ١٢٥) في دراسة قام بها عام ١٩٦٤ و ١٩٦٥م أهمية التطبيقات العملية في الابتكار لدى الطلبة. إن الابتكار موجود في المستويات العليا من هذه الأهداف. وجد هذا الباحث أن الطلبة الذين يمرون بتجربة استخدام المختبر العلمي سنة واحدة يتميزون من غيرهم من الذين لم يمروا بمثل هذه التجربة في النمو الابتكاري والكتابة المبتكرة والأصالة والتخيل والميل المهني نحو العلوم وفي الاختراع وحب المدرسة والدوام المدرسي مع توازي الآخرين في التحصيل الدراسي.

تشكل طرائق التدريس تلك الوسائل التي يمكن بها توصيل الثورة العلمية والتكنولوجية إلى الأفراد والجماعات، والتي يساهم فيها الأفراد بإضافة شيء جديد إلى هذه الثورة. تنقسم طرائق التدريس بشكل عام إلى طرائق تركز في المعلمين، وطرائق أخرى تركز في المتعلمين. إن الطرائق التي تركز في المعلمين تعتمد على إيصال المعلومات الجاهزة بوصفها لقمة سائغة من



التطبيق العملي ترسيخ للابتكار

دون بذل الجهود اللازمة من قبل المتعلمين. تكون هذه الطرائق غير قادرة على تحقيق أهداف من شأنها إجراء التغييرات اللازمة في بنية هذه الثورة العلمية والتكنولوجية؛ ذلك لأن الوقت المخصص للتعليم في المدارس محدود، ولا يكفي لتحقيق مثل هذا الهدف. وليس في الإمكان إيصال المعلومات كل المعلومات بواسطة الطرائق التي تركز في المعلمين. لا يمكن أن يكون الطلبة مبتكرين في تربية لا يساهمون فيها بشكل إيجابي وفعال.

يتطلب الابتكار من المتعلمين أن يكونوا مشاركين إيجابيين في التربية والتعليم. ولما كانت التربية تُعنى بمستقبل المتعلمين فإن المتعلمين ينبغي أن يكونوا فعّالين في تربية تخص مستقبلهم. لذلك فإن الطرائق التي تركز في المتعلمين تستطيع أن تحقق مثل هذا الهدف، وتبرز ابتكارات هؤلاء المتعلمين. تؤكد هذه الطرائق الخصائص الفردية للأفراد بتوفير أبدال مختلفة يختار منها المتعلمون ما يشاؤون حسب احتياجاتهم وقابلياتهم وقدراتهم وتحصيلهم وشخصياتهم واتجاهاتهم وميولهم الخاصة.

إن البيئة الفقيرة التي لا تتضمن وسائل تعليمية كافية لا تستطيع أن تحقق الابتكار. لقد ذكر تورانس عن البيئات الفقيرة أنها لا تستطيع إجراء التطبيقات العلمية

الضرورية من أجل تحقيق الابتكار. وإن الافتقار إلى التكنولوجيا بشكل عام، والمتقدمة منها بشكل خاص، يخلق نوعًا من التأخر عن الآخرين الذين يملكون مثل هذه التكنولوجيا. كما لا يمكن المساهمة وإضافة شيء جديد إلى هذه التكنولوجيا من دون توفير هذه التكنولوجيا، وحلّ ألغازها، وكشف أسرارها المختلفة. تحتاج طرائق التدريس المتركزة في المتعلمين من ناحية أخرى إلى الوسائل التعليمية بالكثرة التي تعطي لكل متعلم القدرة على الوصول إلى هذه الوسائل واستخدامها متى يحتاجون إليها ومتى يشاؤون.

تستخدم الوسائل التعليمية من قبل المعلمين والمتعلمين. تركز الوسائل التعليمية في الجوانب التطبيقية من العملية التعليمية. يبرز جانب التعلم بالعمل في التربية والتعليم. يحقق العمل مع الوسائل التعليمية المختلفة ابتكارات المتعلمين من عدة وجوه. يبرز الابتكار في إعداد مواد الوسائل التعليمية وخاصة الحقائب التعليمية. يكون المتعلمون بذلك مشاركين في الإنتاج. تؤكد دراسة تورانس التي قام بها عام ١٩٦٤ و١٩٦٥م من ناحية أخرى أهمية استخدام الوسائل التعليمية في زيادة الابتكار لدى الطلبة. وجد هذا الباحث أن طلبة المجموعة التجريبية الذين اختبروا تجربة استخدام المختبر العلمي لمدة سنة واحدة وازوا طلبة المجموعة الضابطة في التحصيل الدراسي وتميزوا منهم في النمو الابتكاري والكتابة المبتكرة والأصالة والتخيل والميل المهني نحو العلوم وفي الاختراع وحب المدرسة والدوام المدرسي.

إن الوسط التربوي المبني على التوترات والضغوط والإجبار والإكراه على فعل أشياء معينة دون أخذ رغبات المتعلمين لا يخلق الدافعية في التعلم ولا يحقق الابتكار أصلاً؛ ذلك لأن مثل هذا الوسط يخلق ردود الفعل العكسية لدى المتعلمين. إن الجدية الزائدة في التربية والتعليم يخلق نوعًا من التقولب في السلوك، والذي يعرقل بدوره الابتكار. يكون الوسط التربوي الذي يحد مبادرات المتعلمين ومغامراتهم الشخصية غير واف بالابتكار.

يكون الوسط التربوي الذي يحقق الابتكار مبنيًا على الديمقراطية ومريحًا جدًا، وبعيدًا عن أي توترات وضغوط من كل الجوانب. يستطيع المتعلم في مثل هذا الوسط أن يعبر عن آرائه ويعمل بالحرية الكاملة دون أي قيد أو شرط ودون أي نوع من أنواع التهديد والوعيد المختلفة التي تعرقل ابتكاراتهم، ويكون المزاح طاغيًا في مثل هذا الوسط. ذلك لأن المزاح يؤدي دورًا أساسيًا في إبراز ابتكارات المتعلمين، وتكون المبادرات الشخصية والمغامرات عاملا أساسيًا في تحقيق ابتكارات المتعلمين.

التكنولوجيا أثر من آثار العمل المبتكر الخلاّق

إن التقويم والقياس المبنيين على التهديد والوعيد لا يحققان الابتكار أبدًا؛ ذلك لأن المتعلمين إنما يحاولون أن يسجلوا تلك الإجابات التي يريدها المعلمون، وبالشكل الذي يريدونه، ولا يخرجون عنها أبدًا. إنهم يسجلون في الأوراق الامتحانية ما سمعوه وما قرؤوه بالشكل الذي سمعوه وقرؤوه.

تزول التهديدات من التقويم والقياس اللذين يجريان في وسط التربية المتركزة في المتعلمين. يربط التقييم والقياس بالأهداف التربوية الخاصة التي روعي فيها

أصلا أن تكون من المستويات العالية في تصنيف بلوم. يكون التقويم والقياس بذلك من النوع المفتوح الذي يتطلب التنوع والتعدد والأصالة وإعطاء الأبدال الكثيرة في الإجابات، والتي تكشف جميعًا عن الإبداع والابتكار لدى المتعلمين. تكون مساهمات المتعلمين في إعداد مواد التقويم والقياس وأسئلتهما بارزة وواضحة، ويكون التقويم والقياس من النوع الذي يجريه المتعلم بنفسه بدلا من أن يكون مفروضا عليه من قبل الآخرين.

يؤدي النظام التربوي دورًا كبيرًا في تحقيق أهداف المجتمع. إن البرامج التي تؤكد الابتكار إنما تنمي الابتكار لدى الأفراد. يذكر تورانس Torrance (ص١٣٧) أن المجتمع الياباني إنما يشجع على الابتكار ابتداء من سنوات رياض الأطفال. إن البرامج التربوية جميعها مبنية على الابتكار في الفنون الجميلة مع تأكيد العادات التاريخية والعمل في جماعات صغيرة من أجل الحصول على الإجماع.

ـ مستوى القطاع الصناعي:

لا يمكن لأي بلد من بلدان العالم أن يظل إلى أبد الآبدين سوقا رائجة للبلدان الأخرى، تصدر موادها الخام بأسعار رخيصة، وتستورد بالمقابل بضائع مصنعة بأسعار غالية. أضف إلى ذلك أن الاعتماد على الآخرين يتضمن محاذير سياسية واقتصادية. ونعيش في يومنا هذا في حصار اقتصادي مرير فرضته الدول المتقدمة على الكثير من البلدان النامية التي لا تسايرها في سياساتها الخارجية أو الداخلية. ومن هنا يكون من الضروري إنشاء صناعات محلية والعمل على نوع من الاكتفاء الذاتي التي تفيد أيام الأزمات والكوارث بل حتى في الأيام العادية.

ومع أن الاكتفاء الذاتي الكامل صعب جدا، إلا أن هناك من المرافق التي لابد فيها من الاعتماد على النفس والإنتاج المحلي من أجل الحد من الضغوط التي تستخدمها البلدان الأخرى. تأتي الحاجة إلى إنتاج الأسلحة والغذاء والملبس في مقدمة هذه المرافق. فالسلاح ضروري من أجل تحقيق الأمن الداخلي والخارجي. والغذاء والملبس ضروريان لإدامة الحياة، ولا يمكن للمرء أن يستغني عنهما أبدًا.

ومن ناحية أخرى فإن القطاع الصناعي يستخدم المواد الخام المحلية، ويصنّعها ليبيعها بسعر أغلى لمصلحة أبناء البلد. وهو في ذلك يدفع المنتجين إلى الزيادة في الإنتاج مادام أنهم يجدون لمنتجاتهم سوقًا جاهزة وبأسعار مناسبة. ويصح ذلك أيضًا على المنتجات الزراعية التي يمكن تصنيعها بطرائق مختلفة.

يوفر القطاع الصناعي من ناحية ثالثة العمل لكثير من الأيدي العاملة المحلية. لقد أضحى توفير العمل للبطالة الناجمة في المجتمع هو الآخر مطلبًا من مطالب الحياة الملحة. فالحكومات بحاجة إلى أن تفكر دائمًا في إيجاد مجالات جديدة للعمل، وتوسيع رقعة هذه المجالات. ويشكل المجال الصناعي أحد أنسب هذه المجالات المهمة.

> يواجه القطاع الصناعي المحلي في أي بلد من بلدان العالم خيارات ثلاثة لا رابع لها: وهي التقليد، والتطوير، والكشف أو الاختراع

يواجه القطاع الصناعي المحلي في أي بلد من بلدان العالم خيارات ثلاثة لا رابع لها: وهي التقليد والتطوير والكشف أو الاختراع.

يعني التقليد الاعتماد على البلدان الأخرى في شراء المعامل التي تنتج بعض المصنوعات المحلية. وهو أمر يتطلب إجراء عقود خاصة مع شركات أجنبية من أجل استيراد الآلات المنتجة، ويكون مثل هذه العقود مشروطة دائما لمصلحة الشركات الأجنبية، يلزم شراء بعض المواد التي تساهم في الإنتاج من هذه الشركات، واستخدام علاماتها الفارقة المسجلة الخاصة بها. وهو أمر يضمن رخص الإنتاج موازنة بصرف مبالغ باهظة في البحث والتقصي اللذين لا يمكن ضمان نتائجهما في كل مرة. على أنه يلزم الاعتماد على الآخرين بشكل مستمر.

ومهما يكن من أمر فإن هناك محاذير خاصة في التقليد مع أنه أمر لابد منه في البداية. ولا يخلو التقليد من الابتكار؛ لأنه يتضمن القليل منه. تستطيع البلدان النامية أن تستفيد من رخص العمالة في هذه البلدان، وتحقق بعض الامتيازات في الإنتاج. على أن التقليد يجب ألا يستمر طويلا. فالتطوير والتحوير لابد أن يتبعاه.

فالتطوير هو الاستفادة من خبرات الآخرين وإضافة الخبرات الخاصة عليه. وهو تعديل الشيء بناء على الاحتياجات الخاصة. يتضمن التطوير أخذ بعض الشيء من الآخرين وإكمال بعضه الآخر، الاعتماد على الآخرين في بعض الجوانب، والاستقلال عنهم في جوانب أخرى. فالتطوير نوع من الاكتفاء النسبي، ويضمن التطوير الاعتماد على النفس من ناحية، ويقلل من الاعتماد على الآخرين نسبيًا. التطوير والتعديل والتغيير مطلب ملح من مطالب القطاع الصناعي. يتضمن التطوير كفتين متوازيتين من التقليد والابتكار في آن واحد.

يوازن دي بونو De Bono (ص٤٠) بين الصناعة الغربية والصناعة اليابانية ويشير إلى أن الصناعة الغربية تنتظر تحقيق قفزات كبيرة تتضمن إجراء تغييرات جذرية أو إيجاد مفاهيم جديدة. وهذا ما يدفعها إلى نبذ الابتكار العملي. بينما تحقق الصناعة اليابانية مع مرور الأيام تراكمًا جيدًا بتلك التطويرات والتعديلات الصغيرة والتحسينات المتواصلة وتوصيل الأشياء المبنية على تقليد خبرات الآخرين بعضها ببعض. وفي هذا الخصوص يشير تورانس Torrance, (ص ١٤٦ ـ ١٤٧) إلى أن الصناعيين اليابانيين إنما يجوبون العالم من أجل جمع المعلومات بحيث وصلت طوكيو إلى مرحلة تؤهلها لأن تكون عاصمة عالمية للمعلومات. وبعد توفير هذه المعلومات يدأب هؤلاء الصناعيون إلى اختبار هذه المعلومات وتطويرها بحيث يضمن لهم وضع أشياء جديدة خاصة بهم.

الاختراع هو المرحلة الأخيرة من الإنتاج، وهو إنتاج مصادر الإنتاج وامتلاكه، أي إنتاج الأجهزة والآلات والأدوات الخاصة بالإنتاج. الاختراع هو إنتاج شيء جديد، والحصول على براءة الاختراع، ويحتاج الأمر إلى فرق عمل محلية أو أجنبية تضم مهندسين مختصين في الجوانب المختلفة من القطاع الصناعي، ويتضمن الاختراع الشيء القليل من الاعتماد على الآخرين، ويتطلب الكثير من الابتكار، مع الاستفادة من خبرات الآخرين.

تكسب المبادآت والمبادرات في الاستثمارات الجديدة في التصنيع أصحابها أرباحًا طائلة. إن الأوائل في الميدان يحصلون دائمًا على حصة من السوق هي أعلى من غيرهم. إن الصناعة المبتكرة تربح أكثر من الصناعة التي تعتمد على التقليد.

> تكسب المبادآت والمبادرات في الاستثمارات الجديدة في التصنيع أصحابها أرباحًا طائلة. والأوائل في الميدان يحصلون دائمًا على حصة من السوق هي أعلى من غيرهم

يشير هول وويكر Hall and Wecker, (ص ١٦٤ ـ ١٦٥) إلى علاقة الأصالة والفردية بالنجاح المربح. إن نسبة حصول المنتجات الجديدة والمختلفة عن غيرها على الربح هي ٦٩٪، بينما تكون نسبة حصول المنتجات المماثلة أو التي تختلف عن غيرها قليلا على الربح هي ٣١٪ . وهذا يعني أن الصناعة الفريدة الجديدة المبتكرة تربح أكثر من ضعف الصناعة المقلّدة. وفي هذا المجال يشير هول وويكر Hall and Wecker, (ص ١٦٤) إلى دراسة تمخضت عن أن المبتكرين الأوائل إنما يحصلون على حصة أعلى من السوق بما تعادل ٢ر٧ مرة مما يحصل عليه المقلّدون. ولا يقتصر دور المبتكرين على زيادة ثروتهم الشخصية فحسب، بل يساهمون أيضًا في زيادة الثروة الوطنية والثروة العالمية. يؤيد تورانس Torrance (ص١٣٤)هذا الرأي الأخير، ويذهب إلى أن المخترعين إنما يساهمون أيضًا مساهمة فعالة في إثراء العالم. ولاشك أن القطاع الصناعي بشكل خاص هو



التأمل وملامسة الواقع يحفزان إلى تنمية ملكة الابتكار

الذي يساهم في وضع مبتكرات هؤلاء الأفراد المبتكرين قيد التنفيذ كمنتجات في السوق المحلية أو العالمية. وهكذا تكون الاستثمارات المبنية على ابتكارات الأفراد المبتكرين والمبدعين والفرق العاملة ضرورة ملحة للقطاع الصناعي لتجديد نفسه بشكل مستمر والوقوف صامدا في وجه المنافسات الداخلية والخارجية والحصول على الأرباح العالية.

- مستوى وسائل الإعلام:

يعد التخلص من الجاذبية الأرضية والإفلات إلى الفضاء الخارجي أحد التطورات المهمة التي حدثت في النصف الثاني من القرن العشرين. لقد استطاع السوفييت إرسال المركبة الفضائية سبوتنك إلى الفضاء الخارجي في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي. لقد خلق هذا الحادث نوعًا من سباق إرسال المراكب الفضائية إلى الفضاء الخارجي من قبل السوفييت والأمريكان. تمخض مثل هذا التقدم العلمي الهائل عن إرسال مراكب فضائية أخرى من قبل دول أخرى إلى خارج الجاذبية الأرضية وتثبيتها على مدار تدور فيه لتقوم بمهام كثيرة من مهمات نقل وعكس الموجات الصوتية والضوئية المختلفة. ونتيجة لذلك فقد أضحى الفضاء الخارجي مزدحمًا بهذه المراكب الفضائية. ولقد حصل تقدم كبير في جميع ميادين وسائل الاتصال المختلفة من تلفون وفاكس وراديو وتلفزيون وكومبيوتر وشبكات والانترنت. لقد انعكس مثل هذا التقدم على وسائل الإعلام المختلفة في تسهيل أمور طبع الكتب والمجلات والجرائد ونشرها وتلقي موجات الراديو والتلفزيون وتوصيل شبكات الكومبيوتر إلى القريب الداني والبعيد القاصي. لقد أضحت المنافسة بين هذه الوسائل المحلية منها والدولية في هذا الجو المشحون التي تتضارب فيه مصالح الأفراد والجماعات والمجتمعات أمرًا لا مفر منه.

لقد وفرت التكنولوجيا الحديثة التي تطورت أكثر من

ذي قــبل وتـواصل تطـورها في كـل آن وحين إمكـانات هائلة بفضل الأقـمار الاصطناعـيـة ومحطات الإذاعـة والقنوات التلفازية الفضائيـة وشبكات الكومـبيـوتر. لقد سهل كل ذلك الوصـول إلى المواطنين في الدول الأخرى وهم في عقر دورهم. تكمـن خطورة وسائل الإعلام هذه في أنهـا تعبـر الحدود الـدولية مـن دون جوازات سـفـر، وتدخل البيوت من دون طلب أي إذن بالدخول. ومن هنا فإنهـا تربي مواطنينا فـي عقر دورهم بالشـكل الذي قد لا نرغب فيه، وما هو على عكس تربيتنا الوطنية القومية.

ولما كانت وسـائل الإعلام تؤدي خدمـات دورية تجدد نفسـها بشكل منتظم فـإنها تحـتـاج إلى الابتكار أكـثر من غيـرها من وسـائل الاتصـال الأخـرى. ويبـدو أنه كلمـا كـانت هذه الدورة قـصـيـرة كـانت الحـاجـة إلى الابتكار أشـد. فـالمجـلات تحـتـاج إلـى ابتكار أكـثـر مـن الكتب، وتحـتـاج الجـرائد إلى ابتكار أكثر من المجـلات. وتحـتـاج برامج الراديو إلى ابتكار أكـثـر من كل ذلك. أما الأفـلام السينمـائية وبرامج التلفـزيون والكومبـيوتر فهي بحـاجـة أكـثـر إلحـاحـا مـن غـيـرها إلى الابتكار لجـمـعـهـا بين الاستماع والرؤية. وتخـتلف حاجة البرامج إلى الابتكار بطول الفترة التي تشـغل فيها الشاشـة. وكلما كانت هذه الفترة أقـصـر كـانت الحاجـة إلى الابتكار أشـد. فـالبث الدعـائي لقـصـر فـترتـه أكثـر المجالات الـتي تحتـاج إلى الابتكار، ويظهـر فيـه هذا الابتكار فعـلا. تعدّ الدعـايات التي تلجـأ هذه الميـادين من نشرها لسـد بعض تكاليـفهـا ميدانًا خصبًا جدًا للابتكار.

تؤدي الوسائل الإعلامية وظيفتها في جانبين مهمين لا يقـلان أهمـيـة بعـضـهـمـا عن بعض. فـهي تخـاطب المواطنين وتحـاول بذلك بث روح المواطنة من نـاحـيـة، وتخـاطـب الأجـانب لتـصـدر إليـهم ثقـافـة بلد مـعين من ناحـيـة أخرى. لقـد أضـحـى أمـر نشـر الجـرائد والكتب والمجـلات في هذا الجو المشحـون بالمنافسة يـحتـاج إلى الكثيـر من التجـديد والابتكار. تتطلب البرامج الـتي تعدّ



المشاركة الإيجابية دافع إلى الابتكار

من أجل النشر في الراديو والتلفزيون والكومبيوتر أن تكون جديدة ومبتكرة بشكل مستمر. وإلا فلن تجلب أسماع أو أنظار المستمعين أو المشاهدين، أو أنها لن تؤدي مهمتها بالشكل المطلوب. ويتحول المستمعون أو المشاهدون المواطنون أو الأجانب نتيجة لذلك إلى غيرها من محطات الراديو أو قنوات التلفزيون أو برامج الكومبيوتر. ومن هنا يعتمد أداء هذه الوسائل مهماتها بالشكل الفعال الجاذب على مقدار ما يستطيع العاملون فيها من تجديد وتطوير لبرامجهم، وما يظهرونه من إبداع وابتكار مستمرين في كل إنتاج وبرنامج.

ـ مستوى المجتمع:

يذكر تورانس Torrance (ص١٣٨) أن المجتمع الأمريكي ومنذ البداية قد قدر المغامرات والرغبة في تجربة عدة وظائف والاستقلال في التفكير والحكم والشجاعة في الإيمان والتصنيع والمستوى العالي من الطاقة والعزيمة والثبات والثقة بالنفس وروح المزاح والتنوع والرغبة في تحمل المسؤوليات وحب الاستطلاع. وهذه الخصائص جميعاً موجودة في روح الأوائل وتتطلب المستويات العالية من الابتكار. على أنه ـ وبناء على أبحاثه ـ تأكد له أن المجتمع الأمريكي قد تخلى عن بعض هذه الخصائص مثل المغامرات والرغبة في ركوب الصعاب والاستقلال في الحكم، والشجاعة في الإيمان، والثبات والثقة بالنفس والرغبة في تحمل المسؤوليات والتنوع. ومن أجل تحسين جو الابتكار والاختراع القومي لا بد من إعادة تأكيد هذه الخصائص وإعطائها الأهمية الكبيرة.

الفرد نواة الجماعات التي تكوّن المجتمع، والمجتمع إنما يتكوّن من الأفراد والجماعات. وتنمية الابتكار لدى الأفراد تعني تنمية الابتكار لدى المجتمع. على أن للمجتمع تشكيلاً خاصاً من العلاقات والتنظيمات والمؤسسات التي تؤثر بدورها هي الأخرى في الأفراد. كما أن الأفراد يحتاجون إلى الابتكار في علاقاتهم المختلفة فإن المجتمع هو الآخر يحتاج إلى الابتكار في تنظيم علاقاته الداخلية والخارجية بتنظيماته ومؤسساته المختلفة. إن العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية في مجتمع ما قد تشوق أو تعرقل الابتكار عن طريق وسائل مختلفة من الاستحسان والاستهجان. فالمجتمعات التي تحدد الخيال، وتنبذ الفنون الجميلة والآداب إنما تحدّ من الابتكار. أما المجتمعات التي تشوق الابتكار، وتشجع الفنون الجميلة والآداب إنما تنمي الابتكار.

ولعل إصدار تلك القوانين التي تحمي حقوق المبتكرين والمخترعين يعود بالنفع على الفرد والمجتمع. إن تنظيم براءات الاختراع ودعمها إحدى الوسائل المهمة التي ترفع من أعداد المبتكرين والمخترعين في بلد معين. يذكر تورانس Torrance (ص ١٣٣) أن السياسات القومية والقوانين المحلية إنما تؤثر في الاختراعات، ويورد مثلاً على ذلك اليابان التي أصدرت في عام ١٩٦٠م القوانين اللازمة لحماية المخترعين. وكانت أعداد براءات الاختراع الممنوحة في تلك الفترة في هذا البلد أقل بكثير من الولايات المتحدة الأمريكية. على أن هذه الأعداد بدأت تتزايد نتيجة سنّ هذه القوانين، فوصلت اليابان مستوى الولايات المتحدة في عام ١٩٦٧م. انخفضت براءات الاختراع نتيجة الإهمال في الولايات المتحدة، بينما ارتفعت في اليابان نتيجة ذلك التشجيع حتى فاقت اليابان الولايات المتحدة في أعداد براءات الاختراع في عام ١٩٧٨. وبصدد هذا يقول تورانس Torrance (ص ١٣٤): إنه عندما يخترع الأفراد والشعوب فإنهم إنما يزدادون قوة على قوة، ويستمرون في العيش، أما عندما يوقفون الاختراعات فإنهم إنما يضعفون ويموتون. وكان هذا الأمر صحيحا منذ بداية التاريخ حتى يومنا هذا.

إن أمر تشجيع تنظيمات ومؤسسات المجتمع للابتكار مهم جداً في تطور الابتكار لدى أفراد ذلك المجتمع؛ ذلك لأن ما يشجعه المجتمع يجده أمامه، وما

تشكل التربية والتدريب في ميدان الابتكار ذلك الجزء المهمل من التربية العامة لأسباب تعود إلى صعوبات الميدان، وعدم تدرب المعلمين في هذا المجال


أداء أي عمل بشكل مبتكر تحقيق للذات

يزرعه سيحصده في مستقبل الأيام. وفي هذا الخصوص يورد تورانس Torrance (ص ١٣٢) التجربة الأمريكية التي شجعت فيها الاختراعات في الستينات من القرن العشرين بعد التفوق الذي أحرزه السوفييت في إرسال القمر الاصطناعي سبوتنك إلى الفضاء الخارجي. لقد زادت براءات الاختراعات التي منحت في هذا البلد نتيجة ذلك التشجيع من ٧٦٥٦٥ في عام ١٩٥٨م إلى ٨٤٨٦٤ في عام ١٩٦٢م. كما زادت براءات الاختراع التي دعمت في تلك الفترة من ٤٣٤٠٧ إلى ٥١٠٦٥. وعدّت هذه الفترة العصر الذهبي للاختراع في الولايات المتحدة الأمريكية. وبعد عقد من الزمان قل التشجيع وقلت معه براءات الاختراع التي منحت لهذا الغرض. انخفضت النسبة في عام ١٩٧٨م بمقدار ١٥٪. ونتيجة لذلك بدأت الولايات المتحدة تشتري التكنولوجيا المتقدمة من بلدان أخرى كاليابان وألمانيا ودول أخرى بدلا من أن تطور صناعاتها المحلية.

يبدو من ذلك أن سياسة المجتمع في دعم الاختراعات مهمة جدًا في رفع أعداد الاختراعات في ذلك البلد. يبدو أن المجتمع الذي يشجع على الابتكار والاختراع ينمي في أفراده هذه الطاقات تنمية حسنة تعود بالخير على الأفراد والمجتمع في آن واحد. وفي هذا الخصوص أجرى تورانس Torrance (ص١٢٤) دراسة سأل فيها أطفالا من ١٢ بلدًا في عامي ١٩٩٢و١٩٩٣م أن يكتبوا قصصاً عن مستقبل حياتهم. وحلّل هذه القصص باحثًا عن هؤلاء الأطفال الذين يتخيلون لأنفسهم أن يكونوا مخترعين. لقد اعتلى أطفال اليابان في هذه الدراسة المرتبة الأولى بـ(٣٥٪). احتل أطفال الولايات المتحدة وجنوب إفريقية المرتبتين الثانية والثالثة على التوالي (٢٦٪) (٢٤٪). وكانت هذه النسب متوازية مع أعداد براءات الاختراع التي منحت في هذه البلدان.

الخلاصة

الابتكار ضروري في كل مجال من مجالات الحياة المختلفة وعلى مستويات مختلفة. يأتي الفرد والنظام التربوي والقطاع الصناعي ووسائل الإعلام ومؤسسات المجتمع في طليعة هذه المستويات. تكون الحياة بفضل الابتكار تجديداً مستمراً وتطويراً متواصلا وقوة عظيمة. وتكون من دونه رتيبة ومملة وضعيفة واهنة. إن أمر تقدم المجتمعات مرهون بمقدار دعم الأعمال المبتكرة والمبتكرين على المستويين المادي والمعنوي.

المراجع

-De Bono, E. (1993) Serious Creativity: Using the Power of Lateral Thinking to Create New Ideas. London: Harper Collins.
- Hall, D. and Wecker, (1996) Jump Start Your Brain: A Proven Method for Increasing Creativity up to 500%. New York: Warner.
- Rıza, E. T. (1999) Yaraticiligi Gelistirme Teknikleri. Izmir: Anadolu Mat.
- Torrance, E. P. (1994) Creativity: Just Wanting to Know. Pretoria: Benedic Books.

مصدر الصور: أرشيف الفيصل.

الفكر اللساني التربوي في التراث العربي:

مقدمة ابن خلدون نموذجاً

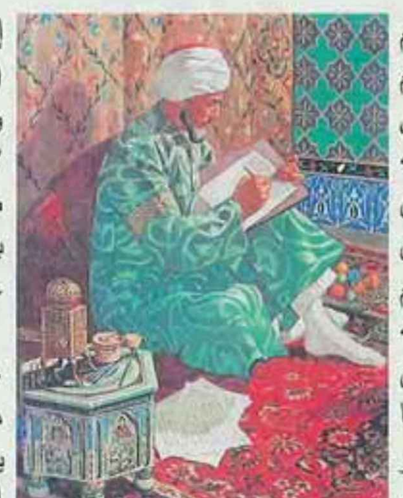
محمد صاري
عنابة ـ الجزائر

لم تحظ أي لغة في الدنيا منذ أن خلق الله الإنسان بما حظيت به اللغة العربية من العناية، إذ قام أصحابها ـ ولاسيما اللغويون منهم وأهل الأداء ـ بالتحريات الميدانية الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة شاهدها تاريخ العلوم اللغوية، فدونوا مفرداتها وتراكيبها وأمثالها وعباراتها، ومطّردها وشاذها، ثم وصفوا كل ذلك بدقة متناهية، واستنبطوا القوانين العامة التي تخضع لها، وغير ذلك مما أعجب به علماء اللسانيات الغربيون في زماننا(١).

ومن أعظم ما تركه أسلافنا «علم النحو»، ميزان اللغة، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية(٢). فليس من شك في أن التراث النحوي والصرفي الذي استنبطه العلماء العرب نفيس غاية النفاسة، وأن الجهد الذي بذلوه فيهما خلال الأزمان المتعاقبة جهد لم يهيأ للكثير من العلوم المختلفة في عصورها القديمة والحديثة، وأنه مازال وسيبقى ينتزع إعجاب الباحثين العرب والأجانب على حد سواء؛ فهو ـ كما يقر غير أبناء العربية ـ «أثر رائع من آثار العقل العربي بما فيه من دقة في الملاحظة، ونشاط في جمع ما تفرق، وهو لهذا يحمل المتأمل فيه على تقديره، ويحق للعرب أن يفخروا به»(٣).

أصالة النحو العربي في القرون الأولى للهجرة

ومن الثابت أن النحو العربي مر، كبقية العلوم، بقانون النشوء والارتقاء، فنشأ بسيطاً ضعيفاً، ثم أخذ يتدرج في النمو والقوة والاستكمال، فانتقل على أيدي أئمته، كعبدالله بن أبي إسحاق (ت: ١١٧هـ)، والخليل بن أحمد (ت: ١٧٥هـ)، وسيبويه (ت: ١٨٠هـ)، والكسائي (ت: ١٨٩هـ)، والفراء (ت: ٢٠٧هـ)(٤)، ونظرائهم من الأعلام من ضوابط بسيطة يقيم بها المعربون ألسنتهم ـ بعد أن تفشى اللحن وضاعت السليقة ـ إلى علم دقيق متطور يدرس لذاته(٥).


ابن خلدون

لقد أرسى «الخليل» وتلميذه الفذ «سيبويه» أموراً صارت مسلمات أو شبه مسلمات. فمن يُمعن النظر في «الكتاب» يدرك بوضوح أصالة النحو العربي عند النحاة الأوائل الذين عاشوا في الصدر الأول من الإسلام. ومن أهم الحقائق التي تدل على فكر أصيل، وتصوّر دقيق، وفهم عميق لطبيعة بناء هذا العلم ـ عند أولئك النحاة ـ تلك الأسس والأصول التي قام عليها، نذكر منها على سبيل المثال: مفهوم العامل، ومفهوم الحد والمثال، ومفهوم الاستقامة، ومفهوم القياس والسماع، ومفهوم العلة، ومفهوم الأصل والفرع(٦).. وغيرها من المفاهيم التي

اكتشفوها من خلال استنطاق النصوص والاتصال المباشر بالواقع اللغوي. فهي مفاهيم تبين بوضوح لا يقبل الشك أن النحو العربي عند سيبويه وشيوخه وتلاميذه منطق، ولكنه منطق رياضي خاص(٧) مسلوخ من روح العربية، وأن وجود هذا الأثر المنطقي دليل على مكانة الجانب العقلي فيه، وهو جانب كان موجوداً إلى الجانب النقلي؛ وقد صار هذا الجانب ضرورياً في البحث اللغوي الحديث، خصوصاً عند التحويليين؛ لأنه أداة أصيلة من أدوات بناء العلم يتحول النحو من دونه إلى مجرد جمع وتصنيف(٨).

ونحن على مسار البحث عن نظرية الفكر اللساني التربوي في اللغة نتساءل هل تسنى لنظرية العرب في اللغة أن تنفذ إلى خصائص الظاهرة اللسانية بالاعتماد على ملابسات اقتنائها وطريقة تحصيلها؟

إن نظريات النحاة العرب الأولين تكتسي أهمية كبيرة، وهذا ليس من حيث إنها ما تزال ذات قيمة كبيرة من الناحية العلمية، بل من حيث إنها يمكن أن تستغل مفاهيمها في الميدان التطبيقي، كالمعالجة الآلية للنصوص وتركيب الكلام الاصطناعي، واللسانيات التربوية(٩).

اللسانيات التربوية

تعد اللسانيات التربوية ثمرة اللقاء بين اللسانيات وعلم التربية. فموضوع اللسانيات التربوية هو الإفادة من حقائق اللسانيات العامة بمناهجها ونتائج دراساتها وتطبيق ذلك كله في مجال تعليم اللغات didactique des langues، أي إنها تستغل معطيات اللسانيات العامة وفروعها الخاصة، وما وصلت إليه بحوثها من حقائق ثابتة لحل مشكلات تربوية ميدانية.

فاللسانيات التربوية حقل تعاوني ما انفكت أطرافه تترامى بتعدد أبعاده، إذ تتفرع مجالات الاهتمام فيه تبعاً لمقاييس الزمن والمادة والموضوع(١١)، فهي من أهم سياقات اللسانيات التطبيقية عامة.

ومن أهم المشكلات التي تتعرض لها اللسانيات التربوية هي البحث الموضوعي في الصعوبات اللغوية التربوية: ماذا يجب أن نعلّم من اللغة؟ وكيف يجب أن نعلّمه؟ وبمعنى آخر: أنها تنظر في المحتوى اللغوي الذي يقدم للمتعلم من حيث الكم والكيف، كما تنظر في محتوى الطريقة أو الطرائق التي تستعمل لتبليغ هذا المحتوى، وفي تأدية المعلم لهذه الطريقة وكيفية تطبيقه لها(١٢).

لقد بذل العلماء العرب جهوداً مضنية في تتبع النصوص واستقصائها، وإعمال الفكر واستخراج القاعدة النحوية؛ وليس يدري أحد مقدار الجهود التي بذلت في استنباط قاعدة نحوية يعرفها أطفال المدارس اليوم. وهذا الإبداع من أهم ما يجيبنا به موروث الحضارة العربية الإسلامية في قضية معرفة الكيفيات المرتبة لسنن الكلام؛ ومن المعروف الآن أن البحث في هذه الكيفيات وسبل تحصيلها يعد من صميم اللسانيات التربوية.

فمما لا شك فيه أن مادتي النحو والصرف تشكلان جزءاً رئيساً في قضايا اللسانيات التربوية بشكل عام، ويعد هذا الجزء من أعقد العناصر اللغوية وأصعبها في مناهج اللغة العربية، ولعل جزءاً كبيراً من ذلك التعقيد والصعوبة يعود إلى استغلال القواعد النحوية من قبل المربين والمعلمين، وفهمهم القاصر والمحدود لمستوياتها وطبيعة أهدافها، أو المبالغة الكبيرة في فهمها والتركيز فيها عند تعليمهم اللغة، فكثيراً ما يتم تعليمها بعيداً عن الغاية المقصودة.


سيبويه

إن اللسانيات التربوية واجهت على مر العصور عدة مشكلات، ومازالت تواجهها، ولعل من أهمها الافتقار إلى مادة نحوية تعليمية مناسبة، يتم إعدادها للمتعلمين وعرضها عليهم في ضوء مجموعة من المقاييس الموضوعية، منها ما يختص بطبيعة المعرفة التي تعد لها هذه المادة، ومنها ما يختص بالدارسين الذين يستخدمونها.

ومن يستنطق نصوص التراث يكشف عن كثير من الأقوال والأعمال التي اهتمت بجانب أو أكثر من اللسانيات التربوية. والذي يهمنا من هذه الجوانب هو المحتوى النحوي المدرَّس قديماً وحديثاً، وآراء العلماء في كيفية انتقائه وطريقة عرضه وتثبيته في أذهان المتعلمين.

لقد أدرك بعض النحاة واللغويين القدامى ضرورة وجود مستوى من المؤلفات النحوية المختصرة والميسرة، كما تنبه بعضهم إلى ضرورة التمييز بين وظيفة بحث ما في النحو من مشكلات، ووظيفة تعليم النحو لبعض المستويات(١٣). وأول ما يتقرر لدينا في هذا المجال قول الجاحظ (ت: ٢٥٥هـ) في بعض رسائله: «وأما النحو فلا تشغل قلبه [أي الطفل] منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل

العوام في كتاب إن كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه. وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به، ومذهل عما هو أردّ عليه منه، من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع. وإنما يرغب في بلوغ غايته، ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور، والاستنباط لغوامض التدبير، ولمصالح العباد والبلاد [...] ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه، وعويص النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر إليه شيء»(١٤).

فالجاحظ يدعو إلى تعليم النشء النحو الوظيفي الذي يجري في المعاملات، فالغاية من تعليم النحو - في نظره - هي إصلاح اللسان والقلم في كتاب يكتب أو شعر ينشد أو خطبة تلقى أو رسالة تؤلف.

وضمنياً، يستفاد من كلام الجاحظ أنها دعوة صريحة إلى ضرورة التمييز بين النحو كعلم والنحو كتعليم، أو قل بين مستويين من مستويات النحو:

- مستوى نظري تخصصي، وينبغي أن يكون مجرداً عميقاً يدرس لذاته وتلك طبيعته. وهذا المستوى من النحو يعدّ نشاطاً قائماً برأسه، أهدافه القريبة الخاصة به هي الاكتشاف المستمر والخلق والإبداع. وهذا هو الأساس والمنطلق في وضع نحو تعليمي تراعى فيه قوانين علم التدريس.

٢- مستوى ثانٍ تعليمي وظيفي نافع لتقويم اللسان وسلامة الخطاب وأداء الغرض وترجمة الحاجة. ومن الفضول الذي لا خير فيه أن يتعمق من كانت هذه غايته في جزئيات النحو، وأن يتورّط أو يورّط في أصوله، ويتيه في شعاب قضاياه(١٥). فالنحو العلمي شيء والنحو التعليمي شيء آخر.

فما النحو إلا وسيلة لضبط الكلام وصحة النطق والكتابة، هذه غايته التعليمية التي أقرها العلماء: «النحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه، من إعراب وغيره كالتثنية والجمع، والتحقير والتكسير، والإضافة والنسب والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها ردّ به إليها»(١٦). إن النحو عند ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) أداء لغوي فائدته الوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صواباً غير مبدل أو مغير.

وإن الاعتبار - في نظم الكلام - يكون بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات. فلو كان النظم يكمن في معاني النحو - كما يقول عبدالقاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) - «لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط، ولم يعرف المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكرونه لا يتأتى له نظم الكلام. وإنا لنراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في النحو. قيل: إن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات. فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: «جاءني زيد راكباً»، وبين قوله: «جاءني زيد الراكب»، لم يضره ألا يعرف أنه إذا قال: راكباً كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في «راكب» إنه حال، وإذا قال «الراكب» إنه صفة جارية على زيد»(١٧).

ما عادت اللغة في زماننا تُعلَّم على أنها ظاهرة مكتوبة، بل على أنها ظاهرة صوتية منطوقة في المقام الأول

لقد أكدت اللسانيات التربوية فعلاً ما ذهب إليه «عبدالقاهر» و«ابن جني»، فقد رفضت رفضاً باتاً بناء تعليم اللغات على القواعد النظرية الصرفة، ونادت بتوجيه الجهود إلى تمرين المتعلمين على اكتساب اللغة من خلال أنماط ومثل لغوية حية يجري تعلمها الواحدة تلو الأخرى؛ لأن اكتساب لغة ما يعني اكتساب آليات لا شعورية، وهذا ما يسميه المختصون في تعليم اللغات بالنحو الضمني(١٨) Grammaire implicite.

ابن خلدون وقضايا التحصيل اللغوي

اشتهر عبدالرحمن بن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) عند عامة الناس بأنه أرسى قواعد فلسفة التاريخ. وكثيراً ما يذكر في الكتب الحديثة بأنه منشئ علم الاجتماع العمراني، وهذا اعتراف بجزء مما أبدعه الرجل.

«فابن خلدون» يجهل قدره كثير من الناس، بل إنهم يعرفونه على أنه عالم اجتماع ليس غير. ولكن هناك من اللسانيين من يجد في المقدمة مخزوناً من الاستطرادات الثرية التي تدل على جملة من الأفكار اللسانية التربوية التي لا تقل أهمية عما توصل إليه البحث اللساني واللساني التطبيقي عند الغربيين(١٩). ومن أهم هذه الأفكار ما يأتي:

- التدرج في عرض المادة والتركيز على المتعلم لكونه جوهر العملية التعليمية: لقد نفذ «ابن خلدون» بحس دقيق كاد ينفرد به، وذلك عند تناوله لقضايا التحصيل عامة، واكتساب الملكة اللغوية خاصة، إذ حظي كثير من القضايا اللغوية في مقدمته «كتاب العبر» بالفحص والتحليل، فراح يستكشف حقائقها ويستقصي تقلباتها، مكتنهاً ظواهرها الخفية.

وأول ما يتقرر لديه في هذا الشأن حديثه عن الطريقة الناجعة لتعليم العلوم عامة، إذ يرى أن تعليم العلوم للمتعلمين «يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً. يلقى عليه [المتعلم] أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويرعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه»(٢٠).

ومعنى ذلك أن الابتعاد عن التعقيد والتزام مبدأ التدرج في عرض المادة المدرسية: من البسيط إلى المعقد، ومن السهل إلى الصعب، ومن العام إلى الخاص، وكذا الانطلاق من حاجات المتعلمين ورغباتهم واستعداداتهم هو الوجه الصواب لتعليم العلوم. وهذا ما تقره اللسانيات التربوية الحديثة.

وبعد أن يقيم ابن خلدون تصوراً للطريقة الناجعة في تعليم العلوم يتناول - بالنقد والتحليل - طرائق التعليم السائدة في عصره، وكيفية تأدية المعلمين لها. فهي - في نظره - طريقة تقليدية بالية، قليلة الجدوى، عديمة الفائدة تُنَفِّر ولا تُشَوِّق، هذا هو واقع التعليم في عصر ابن خلدون: «وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرائق هذا التعليم وإفادته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم، يطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، فيخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها [...] وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم، وأدركه الكلل، ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم»(٢١).

إن التحريات الميدانية، أو ما يسمى بنقل المعاينة بمصطلح ابن خلدون تنم على بصيرة وفكر تربويين عميقين عند صاحب المقدمة؛ فالجهل بطرائق التعليم - كما توحي بذلك أقواله - سبب خطير في تدهور التدريس ونفور المتعلمين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه، على قدر جودة التعليم وملكة المعلم، يكون حذق المتعلم في حصول الملكة.

هذه بعض الأفكار التي يتحدث فيها «ابن خلدون» عن جوهر العملية التعليمية المتمثل في المعلم والمتعلم والمادة والطريقة. أما بالنسبة إلى تعليم الملكة اللغوية، فإن أهم ما يتقرر لديه في هذا الشأن ما يأتي:

- السمع أبو الملكات اللسانية.
- دراسة القواعد لذاتها سبب خطير في ضعف التحصيل.
- تمييزه ملكة اللغة من صناعتها.
- تحديده اللغة بأنها ملكة في اللسان.

السمع أبو الملكات اللسانية (٢٢)

ما عادت اللغة في زماننا تُعلَّم على أنها ظاهرة مكتوبة، بل على أنها ظاهرة صوتية منطوقة في المقام الأول. ولذا، فإن الاهتمام بالنطق والحديث يحتل مقاماً خاصاً في تعليم اللغات الحديثة؛ لأنه الأصل، أما الكتابة فهي ظاهرة تابعة له؛ فالواقع يثبت أن الإنسان يتكلم قبل أن يكتب، ويسمع قبل أن يتكلم.

ومن المبادئ اللسانية التربوية التي أقرها ابن خلدون ونبه على أهميتها في حصول الملكة اللغوية مبدأ السماع audition، والانغماس immersion أو ما يسمى عند جمهور اللسانيين التطبيقيين بـ «الحمام اللغوي» bain linguistique - فأبو الملكات اللسانية - في نظره - هو السمع والإنصات، والشيء الذي يعين المتعلم على فتق لسانه بالمحاورة والكلام والمناظرة هو الانغماس الكلي في وسط لغوي عفوي، فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرماها، وهكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل، وتعلمها العجم والأطفال. هذه فكرة نلمسها عند ابن خلدون في معرض تفسيره لقول العامة: إن اللغة للعرب بالطبع، حيث يقول: «فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها [...] ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم(٢٣).

من أهم المشكلات التي تتعرض لها اللسانيات التربوية هي البحث الموضوعي في الصعوبات اللغوية التربوية: ماذا يجب أن نعلّم من اللغة؟ وكيف يجب أن نعلّمه؟

وهكذا يؤكد ابن خلدون أن خروج الأشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة واحدة، فلابد لها من زمان وتكرار مرة بعد أخرى، أي لا بد لها من ارتياض ومعاودة.

دراسة القواعد لذاتها سبب خطير في ضعف التحصيل

يرى ابن خلدون أن العلوم تنقسم قسمين: علوم غايات، وأخرى وسائل لهذه الغايات. وعلم النحو - في نظره - فرض كفاية لا فرض عين. فهو من صميم العلوم الآلية التي ينبغي ألا توسع فيها الأنظار، ولا تفرع فيها المسائل. ولذا دعا المعلمين لهذه العلوم إلى ألا يستبحروا في شأنها، ولا

يستكثروا من مسائلها؛ لأن ذلك يخرجها عن المقصود، فيصير الاشتغال بها لغواً «... وهذا كما فعله المتأخرون في صناعة النحو [...] لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً، وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها عن كونها آلة، وصيّرها مقصودة لذاتها. وربما يقع فيها لذلك أنظار ومسائل لا حاجة بها في العلوم المقصودة بالذات فتكون لأجل ذلك من نوع اللغو، وهي مضرة أيضاً بالمتعلمين على الإطلاق»(٢٤). وعليه، فإن النحو التعليمي ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة مساعدة لاكتساب الملكة اللغوية، وينبغي أن يدرس على هذا الأساس.

تمييز ملكة اللغة من صناعتها

يميز اللسانيون بين نوعين من المعلومات اللغوية: المعلومات الخاصة بالملكة والمعلومات الخاصة بالصناعة. فالنوع الأخير هو اللغة بوصفها نظاماً وعلماً مجرداً وقوانين. ويمثل هذا النوع جانب البحث، والبحث اللغوي هو من وظيفة العالم بأسرار اللسان. أما النوع الثاني فهو اللغة بصفتها إنجازاً أو تحققاً فعلياً في صورة كلام أو كتابة، ويمثل هذا النوع جانب الاستعمال، واستعمال اللغة هو وظيفة المتكلم. ومعرفة العالم بأسرارها معرفة نظرية، في حين أن معرفة المتكلم لها معرفة عملية(٢٥).

لقد نبه «ابن خلدون» المربين والمعلمين على ضرورة التمييز بين هذين المستويين: اللغة كملكة واللغة كصناعة. ففصل بدقة بينهما في قوله: «إن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم، والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية لا نفس كيفية. فليست نفس الملكة، وإنما هي بمنزلة من يعرف صناعة من الصنائع علماً، ولا يحكمها عملاً»(٢٦).

إن جهل كثير من المربين والمعلمين بهذين المستويين (اللغة كملكة واللغة كصناعة) هو الذي أدى إلى تركيزهم في الصورة النظرية البحتة. وعليه، فإن الحقيقة التي يمكن استنباطها من خلال كلام ابن خلدون هي: على المعلم أن يعلم اللغة ذاتها لا أن يعلم معلومات عن اللغة.؛ لأن ملكة اللغة لا تحصل «بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها النحاة، فإن هذه القوانين - كما يقول ابن خلدون - تفيد علما بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها»(٢٧).

تحديده اللغة بأنها ملكة في اللسان

يرى اللسانيون أن المفردات اللغوية ليس لها معنى في الواقع إلا إذا أدمجت في نص، وتعلقت بحال من أحوال الخطاب. ولذا فإن اكتساب الملكة اللغوية لا يتم من خلال استظهار مفرداتها ولا مصطلحاتها النحوية وحدودها الإجرائية، ولكن من خلال القدرة على التحكم في تراكيبها وأنماطها، مع مراعاة مقتضى الحال. وبصدد هذا الموضوع، يقول ابن خلدون: «اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع.. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال»(٢٨).


الجاحظ

إن اللغة - عند ابن خلدون - مهارة تكتسب كما تكتسب أي صناعة من الصنائع أو مهارة من المهارات(٢٩)، عن طريق مبدأ الارتياض بالمعاودة والتكرار. فلاتحصل الملكة اللغوية بامتلاك المتعلم لألفاظها ومفرداتها، ولكن بامتلاك وسيلة لترتيب هذه الألفاظ والتراكيب في مقامات لغوية مختلفة(٣٠).

بناء على هذا الرأي، يمكن القول: إن البدء بتدريس الجملة التامة، والانطلاق من النصوص العفوية الطبيعية، ورفض فكرة تقديم الاسم على الفعل أو الحرف أو العكس هي الوضع الطبيعي لاكتساب الملكة اللغوية، وعليه فإن «أي نظرية في تعليم العربية للناطقين بها ابتداء ولغير الناطقين بها ستبقى ضعيفة المردود ما لم تنطلق من نظرية تركيبية تتخذ الجملة منطلقاً لها»(٣١).

هذا هو الاتجاه الحديث الذي يدعو إليه المختصون في تعليم اللغات بشكل عام، إذ يسعى أنصاره إلى عرض القواعد النحوية والصرفية على المتعلمين عرضاً وظيفياً، من خلال أنماط وتراكيب بنوية متدرجة في الصعوبة، يكون الهدف منها ترسيخ قاعدة نحوية أو صرفية أو بلاغية معينة في ذهن المتعلم، عن طريق حمله على القيام بسلسلة من التدريبات اللغوية المنظمة، وبتكرار محكم، حتى يصل المتعلم في لحظة

من مراحل التعلم إلى تصور هيئات التركيب، ومواقع المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، حسب ما تقتضيه المعاني بجهد بسيط ووقت أقل.

الخاتمة

إن الحقائق اللسانية التربوية التي وردت في بعض آراء النحاة واللغويين العرب عامة، وفي مقدمة «ابن خلدون» خاصة لا تقل قيمة عن تلك المقاييس التي يراها اللسانيون التطبيقيون ضرورية في أي طريقة تعليمية تتصف بأدنى شيء من الجدية والنجاعة. فالأفكار اللسانية التربوية المبثوثة هنا وهناك في أثناء صفحات مقدمة كتاب «العبر» كالتدرج، والانتقاء، والتخطيط، والعرض، والترسيخ، والحاجات اللغوية، والنحو الضمني... وغيرها تستوجب التسليم - كما يقول أحد الباحثين(٣٢) - بأن ابن خلدون، فضلاً عن أنه فلسف علم الاجتماع، واشتق علم العمران، فإنه مهد للسانيات التربوية؛ ففي مخزون «مقدمته» استطرادات ثرية عن نظرية التحصيل اللغوي، وقد لا أكون مبالغًا إذا قلت إن تلك الاستطرادات تحتاج إلى بحث مستفيض يستقصي جميع جوانبها.

المراجع والهوامش

١. د. عبدالرحمن الحاج صالح، اللغة العربية بين المشافهة والتحرير، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ج٦٦، القاهرة ١٩٩٠م.
٢. أجمع الأئمة من السلف والخلف على أن معرفة النحو شرط في رتبة الاجتهاد، وأن المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم «النحو». فرتبة الاجتهاد متوقفة عليه لا تتم إلا به.
٣. عباس حسن: النحو الوافي، ج١، ط٩، دار المعارف بالقاهرة، ص٣.
٤. يعدّ هؤلاء الأئمة لسانيين كباراً، فـ «عبدالله بن أبي إسحاق» هو أول من بعج النحو، ومدّ القياس، وشرح العلل، والخليل هو مؤسس نظرية العامل، ومخترع الشكل الذي مازال يستعمل إلى يومنا هذا في الكتابة العربية، وسيبويه هو واضع أول كتاب في علم النحو.
٥. المفتونون بالمنهج الوصفي يرون النحو العربي نحواً معيارياً لا نحواً علمياً وصفياً، ولكن اتصال النحاة الأوائل بالواقع اللغوي، أي الاستعمال، يفند هذا الادعاء، ويثبت أن النحو العربي بدأ وصفياً.
٦. انظر هذه المفاهيم عند د. عبدالرحمن الحاج صالح، في بحثه: المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحديثة في العالم العربي.
٧. د. عبدالرحمن الحاج صالح: النحو العربي ومنطق أرسطو، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر ١٩٦٤م.
٨. لقد تفطن «تشومسكي» إلى مفهوم العامل النحوي، كما تفطن إلى أهميته في المنهج التحويلي على صورة لا تبتعد كثيراً عن تلك التي جاءت في النحو العربي، انظر د. عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٤٨.
٩. د. عبدالرحمن الحاج: صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحديثة في العالم العربي، وقائع ندوة جهوية حول تقدُّم اللسانيات في الأقطار العربية، دار الغرب الإسلامي، الرباط ١٩٨٧م.
١٠. إن الوقت الذي يستنير فيه معلم اللغات الحية بما تمده به اللسانيات من معارف عملية حول طبيعة الظاهرة اللغوية قد حان. فكما استطاعت اللسانيات الوصفية أن تزيل عدداً من الأوهام الشائعة التي رددتها القرون الماضية حول اللغة، نستطيع أن نسترشد بها لحل مشكلات لغوية تربوية، كوضع البرامج، وإصلاح القواعد وتبسيطها، ورصد المفردات...إلخ.
١١. د. عبدالسلام المسدي: قضايا في العلم اللغوي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٩٤م، ص١٧.
١٢. د. عبدالرحمن الحاج صالح: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات، العدد ٤، ص٤٢.
١٣. لأنه ليس المقصود من تعليم النحو إخراج كل المتعلمين علماء فيه.
١٤. رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ج٣، ط١، ص٣٨.
١٥. إن النحو التعليمي عند النحاة المتأخرين داخلته شوائب مغرقة في التكلف ومسرفة في التأويل انتهت به إلى حدود منطقية، وتعليلات فلسفية، وتقديرات وتأويلات تبتعد في كثير من الأحيان عن الواقع الحي للغة، انظر د. شوقي ضيف: تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثًا مع نهج تجديده، دار المعارف، ص٣ - ٤.
١٦. ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ج١، ص٣٤.
١٧. عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق رشيد رضا، ط٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١.
١٨. يميز المختصون في تعليم اللغات بين نوعين من القواعد: القواعد النظرية الصريحة Grammaire explicite، والقواعد الضمنية Grammaire implicite. ويرى أنصار الاتجاه الصريح أن تعليم أي لغة لا بد أن يتم من خلال عرض مباشر لقواعدها النظرية. أما أنصار الاتجاه الضمني، فيعتقدون أن الوضع الطبيعي لتعلم اللغة هو عرضها بشكل غير مباشر، وذلك بالتركيز في مثلها وأنماطها. والحقيقة أنه لا توجد مرحلة كلها صريحة، وأخرى كلها ضمنية، انظر مصطلحي explicite و implicite في:
-R Galisson, dictionnaire de didactique des langues, ed Hachette Paris,1976.
١٩. انظر د. عبدالسلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار التونسية للكتاب، ط٢، تونس ١٩٨٦م، ص٢٠٨ - ٢٣٧.
٢٠. ابن خلدون: المقدمة، ج٢، الدار التونسية للنشر - المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ١٩٨٤م، ص٦٩٥.
٢١. المرجع نفسه، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.
٢٢. المرجع نفسه، ص٧١٣.
٢٣. المرجع نفسه، ص٧٢٣.
٢٤. المرجع نفسه، ص٧٠٠.
٢٥. د. تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص ٤ - ٦.
٢٦. ابن خلدون، المقدمة، ج٢ ص ٧٢٩.
٢٧. المرجع نفسه، ص ٧٣١.
٢٨. المرجع نفسه، ص٧٢٢.
٢٩. هذه الفكرة تشبه إلى حد كبير ما ذهب إليه البنويون السلوكيون المتأثرون بالمذهب السلوكي في علم النفس، والذي يهتم بدراسة ظاهرة السلوك فقط، على أساس أنه مكون من عادات يمكن اكتسابها الواحدة تلو الأخرى عن طريق المثير والاستجابة والتعزيز. انظر د. محمود أحمد السيد: اللسانيات وتعليم اللغة، ط١، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة - تونس ١٩٩٨م، ص٨٢.
30 - T. Todorov, recherches semantiques, dans Langage, no 1, mars1966.
٣١. د. عبدالسلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م، ص١٥٤.
٣٢. د. عبدالسلام المسدي: قضايا في العلم اللغوي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٩٤م، ص١٩٢.

الصُّورة الفنّيّة وجمالية الإيحاء

عبدالقادر دامخي
باتنة - الجزائر

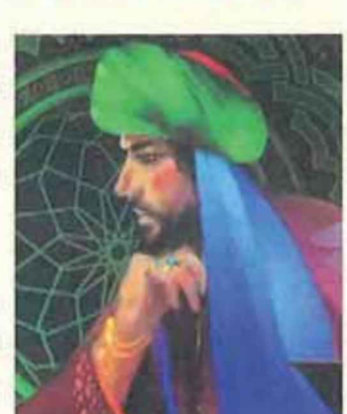
إذا أردنا أن نكتنه سرّ الفن فعلينا أن نحاول اكتشاف صوره. والحديث عن صور الفن يعني تلك الوشيجة المشتركة بين وعي الفنان ونتاجه الفني. وتقوم تلك الوشيجة على المزج بين عاطفة المبدع وتعبيره عن الواقع من خلال ذلك التفرّد الشخصي للفنان الذي لا يخرج عن إطار الدلالة الفنية العامة النموذجية المستندة إلى التفكير العقلي الذي يتيح تعدد الدلالات في تصوير الحياة، وتقديم المثل الأعلى الكفيل بالجمع بين الواقع والإبداع الفني الذي يقوم على تشكيل صور جديدة.

ويقدم الفنان من خلال الصور الفنية عالمًا مشتركًا بين الحياة والخيال عن طريق التداعي النفسي الذي يربط الحياة بالمتخيَّل، ويهيئ المتلقي للدخول إلى عالم المعايشة الفنية الذي لا تنقطع صلته بالممارسة الحياتية: «إن المتلقي يستطيع أن يعايش في الفن ما لم يعايشه في الحياة؛ لأن الفن لا يصوِّر الحياة فحسب بل يقترح مشروع علاقات جديدة للإنسان بالعالم، ويشق بذلك طريق الحرية»(١).

قد يبدو - بداهة - أن الصورة الفنية تمر بمراحل ثلاث: أولاها قيام الصورة في وعي الفنان، ثم تجسدها في الأثر الفني، وانتقالها بعد ذلك إلى وعي المتلقي. ولكن إذا لجأنا إلى هذا التقسيم فإننا نلجأ إليه من أجل تسهيل إدراك طبيعة الصورة الفنية؛ لأننا، في حقيقة الأمر، إنما نتحدث عن عملية تطوّر خفية داخل ذلك التقسيم، إذ إن الصورة الفنية لا تنطلق بسلاسة وطواعية من مرحلة إلى أخرى محافظة على قيم المرحلة السابقة، ناقلة إياها إلى المرحلة اللاحقة.

ليس وعيًا نمطيًا

إن وعي الفنان بصوره، مهما كان وعيًا دقيقًا، يمتلك قوة السيطرة والحيطة، فإنه لا يمكن أن يزعم أنه قد انتقل إلى مرحلة الأثر الفني دون تمحيص وتبديل. إننا إذن لا يمكن أن نتحدث عن وعي فني لدى الفنان إلا حديثًا مجازيًا.



ابن رشد

إننا لا ننكر هذا الوعي، ولكننا لا نستطيع أن نزعم أنه وعي نمطي تنتقل صورته إلى الأثر الفني كما رُسمت سلفًا، كما أننا لا نستطيع أن نزعم أن هذا الوعي سيعيش في وعي المتلقي كما رُسم في وعي الفنان دونما تغيير وإعادة تشكيل.

إن من الخطأ أن نعتقد أن الهيئة الأولى لتشكل الصورة الفنية ترتبط بعامل المصادفة، مسوغين ذلك بتلك المباغتة التي يحس الفنان من خلالها برعشة الإبداع وفرحته(٢)، متناسين أن عامل المباغتة هو نتيجة لخبرات الفنان ومواقفه ونظرته إلى العالم التي كونت الصورة لديه كفكرة. فمهما وصفت تلك الفكرة بأنها خيالية وقابلة للحياة قبل التعرف على تفاصيلها، وأنها بذرة لا نعرف شيئًا عن طبيعتها وعن أي زهرة تتفتح، فإن فكرة الصورة تظل مرتبطة بخيط دقيق بثقافة الفنان وخبراته السابقة ولا مجال للمصادفة فيها.

صحيح قد يعوزنا الدليل القطعي على إعادة كل صورة

إبداعية إلى مركزيتها الثقافية عند الفنان، ولكن هذا لا يدعونا إلى نسبتها إلى عامل المصادفة؛ لأن هذا لا يقدم حلاً في عملية التمييز بين صور المبدعين.

فرعشة الإبداع وفرحة المباغتة اللتان لا ننكر أنهما تحلان بالمبدع لا نستطيع أن نسلم بأنهما جاءتا من فراغ؛ فخبرات الفنان وتجاربه وثقافته هي التي حركت رعشة الإبداع فيه، وما تلك المباغتة اللتان نتيجة لتلك التراكمات الثقافية والتجارب الحياتية التي أخرجها الفنان إلى الوجود عن طريق صوره الفنية التي لا تنقطع عن أصولها الأولى، وإن كانت هذه الأصول غائرة وغائبة ومنقحة ومزيدة فلا يمكن تجليتها.

البحث عن العلاقات جزء أساسي في الصورة، ولكن الوصول إليه لا يتم عن طريق حقائق علمية وبراهين عقلية، بل يتم عن طريق مكاشفة ذوقية لا يمكن خضوعها لتجربة قياسية

جانبان

ويتّحد المفهوم العقلي بالتصور الخيالي في الصورة الفنية، فالأثر الفني يتكون من اشتراك الجانب الحسي مع الجانب المجرّد، وإن بدت لنا سيطرة الجانب الحسي فإن هذا الجانب لا يقدم بمعزل عن الآراء والتأملات والأفكار التي تكشف عنها تلك الفجوات في المضمون الفني. وهكذا يتّحد عالم الحس بعالم التجريد، وهذا ما يفتح الأثر الفني أمام تعدد الدلالات التي تكسبه صفة الاستمرارية.

والاعتقاد السائد أن الفن والمنطق أو الفلسفة على حدي نقيض هو اعتقاد متسرّع لا يستند إلى دليل. فإذا بحثنا داخل التعبير الشعري في قصائد القدماء والمعاصرين مثل المعري وجبران وصلاح عبدالصبور، فإننا نجد تلك العلاقة الوطيدة بين المفهوم والتصور الخيالي. وقد كان ابن رشد (ت٥٩٥هـ) واضحاً في هذا الشأن عندما أشار إلى أن خيال الشيء هو بمنزلة المقدمة للقياس الشعري، وما يراد تخييله وتفهيمه هو بمنزلة النتيجة(٣).

وهذا يعني أن الصورة الشعرية تماثل المقدمة، بينما الغاية التأثيرية تماثل النتيجة. ويتجلى هذا المفهوم في واقع الشعر العربي القديم، فالشاعر كان هدفه في الغالب - إن لم يكن دائماً - إقناع الآخر إمّا بإعجابه به (المديح)، أو بحبه له (الغزل) وإما أن يقنع المستمعين بصحة أقواله (الهجاء - الفخر)، وبشدة حزنه (الرثاء)، وأكثر من ذلك كله هو إقناع المتلقي بأنه مبدع قادر على إثارة العواطف عن طريق الصور الشعرية. «فإذا صحّ أن الشعر وسيلة للإقناع، تكون الصور مقدماته، وفكرة الإعجاب أو العشق الضمنية أو ما أشبه ذلك هي النتيجة. فهو قياس غائم لا حدود له ولذلك ربطوه بالتخييل»(٤).

حل وسط

ويجب ألا يفهم مما تقدم من كلام ابن رشد أن الصورة الشعرية خاضعة للمنطق والقانون، فهي أبعد ما تكون عن ذلك، ولكن وصف ابن رشد للمنطق يجعل من الصورة الشعرية بمنزلة المقدمة في القياس والتأثير في المتلقي بمنزلة النتيجة. وهذا أمر شديد القرب إلى العقل، ويعدّ حلاً وسطاً بين من ينفي المنطق عن الشعر وبين من يقحم الشعر في حومة المنطق الشكلي.

إن الصورة في الفن لا تخضع لمفهوم مادي كما يُوحي بذلك ظاهر اللفظ (صورة)، وهي أبعد ما تكون عن الرصد والوصف والنقل الفوتوغرافي، فهي تحويل تمارسه أداة الفن لتتيح لنا تعبيراً فنياً.

وإذا كانت أداة فن الشعر هي اللغة، فإن التحويل الحاصل عن طريق تلك الأداة هو الكفيل برسم صورة الشعر. وهذا ما يدعونا، عند تحليلنا للصورة الشعرية، ألا نصفها وصفاً نمطياً جاهزاً كما فعل - مثلاً - الأستاذ الولي محمد مع بيت المتنبي الذي يصف فيه القلعة التي بناها سيف الدولة لصدّ هجمات الروم:

بَنَاهَا فأعلى والقَنَا تقْرَعُ القَنَا

وَمَوْجُ المنَايا حَوْلَهَا مُتَلاطِمُ

يقول الأستاذ محمد الولي: «نجده [المتنبي] يصف واقعة معينة هي تحقق الموت ومثوله بأقدار معينة حول القلعة، ولكن المتنبي وهو يصف هذه الواقعة أخضعها لتحويل أنتج صورة بمعنى شيء مرئي هو (الموج... متلاطم). هذه الصورة أي الموج المتلاطم لم تصبح شعرية إلا بسبب التحول الذي تمثله، ولأنها من زاوية أخرى تكون زائدة وفضلة مقابل المعنى الذي يراد توصيله، إن المعنى المقصود هو أن القلعة كانت ميداناً لكثير من الضحايا، أمّا الموج المتلاطم فشيءٌ زائد، وبهذا استحق اسم صورة شعرية»(٥).

إذا نظرنا إلى هذا البيت نظرة عجلى، فإننا نحكم أن المتنبي يصف الموت حول القلعة في أثناء المعركة، وهذا يقودنا إلى أن نفهم أن المعركة قد دارت حول القلعة بعد بنائها. ولكن هذا ما لا يريده المتنبي، أو بالأحرى هذا ما لا تريده الصورة الفنية،

فالبناء والمعركة كانا متلازمين: (بناها... والقنا تقرع القنا). إذًا فهل وظيفة الممدوح في هذا البيت هي بناء قلعة تصد العدو أو التفرغ لمواجهة العدو في المعركة؟.

لا شك أن البناء سابق للمعركة، ولكن المتنبي أرادهما معًا في بيته، ليربط بين عملية البناء وعلوه والمعركة المحتملة (الموصوفة في البيت)، لأن هناك معارك سابقة لهذه المعركة استدعت هذا البناء بالذات، وبذلك يكون هذا البناء من أجل تلك المعركة.

فحالة البناء المرتبط بالعلو (بناها فأعلى) هو بناء يستمد لبناته الأساسية من يوم محتمل (المعركة الموصوفة في البيت)، هذه اللبنات التي أسست عن طريق المعارك السابقة بين سيف الدولة والروم. لذلك فإن البناء السابق منطقيًا للمعركة يحضر في أثناء المعركة: (بناها فأعلى والقنا تقرع القنا)؛ لأنه لا قيمة لهذا البناء ما لم يواجه التجربة (المعركة)، ومن ثمَّ أصبح هذا البناء كأنه بُني في أثناء المعركة؛ لأن كل خطأ في البناء لا يتطابق مع مواصفات المعركة يجعل هذا البناء عرضة للسقوط.

إذًا فنحن أمام بناء ماضٍ وحاضر ومستقبل؛ ماضٍ قام على أساس من الخبرات السابقة في مواجهة العدو، وحاضر في ساعة المعركة لتمحيص تلك الخبرات وامتحانها، ومستقبل لأنه باقٍ بعد النصر. ولكنَّ الشاعر آثر أن يجرَّ الماضي إلى الحاضر ليثير فينا تخوفات المستقبل التي سرعان ما تتلاشى باستكمال قراءة القصيدة.

فالتحول المُنتج للصورة الشعرية تم بواسطة المزج بين البناء والقنا، وعبارة: (موج المنايا حولها متلاطم) هي زيادة في اختيار مواصفات البناء. ولا يمكن الحديث عن التحول في هذه العبارة خارج التحول السابق.

وما قاد الأستاذ الولي محمد إلى النظر إلى هذه العبارة على أنها مركز التحوّل في البيت ومن ثمَّ فهي فضلة تستحق أن تنال اسم الصورة الشعرية - هو استعجاله في فهم المعنى المقصود من البيت: «إن المعنى المقصود هو أن القلعة كانت ميدانًا لكثير من الضحايا». لا شك أن القلعة كانت ميدانًا لكثير من الضحايا شأنها شأن كل أرض تدور عليها المعركة، ولكن ما يقدمه البيت ليس ذلك. إن ما يقدمه البيت هو يقين بالبناء وتوجّس من خوف يكبر عندما يواجه هذا البناء تجربة القنا وتجربة الموج المتلاطم. إن ما يقدمه البيت هو صورة لنجاة تلك القلعة من أن تكون ضحيّة وسط تلك الضحايا في جوِّ اختبارٍ قاسٍ قوامه القنا التي تقرع القنا وموج المنايا المتلاطم.

إنّ هذه التقنية النحوية التي عدت عبارة: (وموج المنايا حولها متلاطم) فضلة، هي التي أوقعت الأستاذ محمد الولي في تعميم الحكم، وإعطاء مفهوم تقني للصورة الشعرية يقوم على مبدأ القوالب النحوية الجاهزة التي تصاغ ضمن قاعدة تقاس عليها جميع النصوص.

وإذا رجعنا إلى النقد العربي القديم، فإننا نجده قد حدَّ من حرية الشاعر، وألزمه العناية بقوة اللفظ وحسن الصياغة مغفلاً جانب التصوير والتخييل. وهذا ما أدخل الصورة في نطاق التزيين والزخرف، مما قلّل من أهميتها كعامل أساسي في تعمق بواطن الأشياء. فالنقاد القدامى نظروا إلى الصورة على أنها زيادة في توضيح المعنى وتأكيده مما أدى إلى إغفال القوى النفسية عند المبدع، والاحتفاء بالصور الحسية ولا سيما البصرية منها. وهذا ما حجب حقيقة أن العمل الفني يجمع بين الواقع والخيال، ولا يقتصر على أحدهما.



المتنبي

ولذلك قام النقد العربي القديم في تذوقه للجمال على نزعة حسية خارجية يمكن أن تظهر بجلاء في شعر الغزل الذي ركّز في جمال الأنثى الشكلي الظاهري دون أن يتجاوز ذلك إلى حرارة العواطف إلا في النادر، حتى، وإن فعل فإن حرارة العواطف تكاد تتلاشى أمام ذلك الحشد من الأوصاف المادية الثابتة والمتكررة لهذا الجمال.

وليس غرض الفن هو تكرار أوصاف مادية بزيادة أو نقصان، وإنما غرضه الأصيل هو بعث تلك الأحاسيس في المتلقي. صحيح أن حماسة المتلقي قد تختلف عن حماسة المبدع وإعجابه، ولكنهما في الأخير يوصفان بأنهما حماسة وإقبال نحو هذا العمل الإبداعي. ولا توجد وسيلة مباشرة لتسليم هذا الإعجاب أو استلامه، بل إن التسليم والاستلام يتمان بطريقة غير مباشرة تنشأ عن طريق إيقاظ النفس وإثارة الأحاسيس. وهذه الوسيلة التي يعمد إليها الفنان في نقل فكرته وعاطفته معًا ولا يتردد المتلقي في الإقبال عليها هي الصّورة الفنية ذاتها. ولذلك كان من البديهي أن تقاس الصورة الفنية بمقدرتها على «نقل الفكرة! أو العاطفة بأمانة ودقة - والصورة هي العبارة

الخارجية للحالة الداخلية - وهذا هو مقياسها الأصيل، وكل ما نصفها به من جمال وروعة وقوة إنما مرجعه هذا التناسب بينها وبين ما تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد، فيه روح الأديب وقلبه بحيث نقرؤه كأنا نحادثه، ونسمعه كأنا نعامله»(٦).

يجب علينا ألا ننظر إلى الشعر على أنه ألفاظ لملء الفراغ، إنما يجب علينا أن ننظر إليه على أنه مجموعة مشاعر وأحاسيس تحيا داخل قوة صاخبة مثيرة، لذلك فإن التصوير في الشعر هو: «عملية ضبط للوجود الظاهر والوجود الباطن وجعل هذه العوالم تدرك بالحس، وبالحدس، وبالعقل، وبالرؤيا»(٧).

مجال لا حدود له

ففي التجربة الشعرية تتحد الذات والموضوع بكيفية بعيدة عن منطق الأشياء، وتنطلق الرؤية في مجال لا تحده حدود. «إن الشاعر الموهوب يفكر بالصور، ولكنه ليس جامع تلفيقات هدفها أن تقول ببساطة: إن هذا الشيء يشبه كذا أو يُذكر بكذا»(٨). إن البحث عن العلاقات جزء أساسي في الصورة، ولكن الوصول إليه لا يتم عن طريق حقائق علمية وبراهين عقلية، بل يتم عن طريق مكاشفة ذوقية لا يمكن خضوعها لتجربة قياسية. إنها مقدرة على إدراك ما لم يسبق لنا إدراكه، وقوة تجمع بين المتناقضات، فتحدث فينا رعشة الفن وخدره.

إن رعشة الفن وخدره هما نتاج الخيال، وقد ارتبطت المخيلة بالقدرة على إحداث الصور. وهذه الصور إما أن تكون استعادة لمشاعر بعد غياب الأشياء التي أحدثتها، وإما أن تكون تمثلات نقوم نحن باختراعها. وهذا ما يدعونا إلى أن نفرق بين شكلين من أشكال المخيلة؛ الأول ذو علاقة بإدراكاتنا. أما الثاني فهو متحرر من العالم الحسي.

وهكذا يبدو الغموض واضحاً في وظيفة المخيلة، ويكمن مصدر هذا الغموض في الوظيفة التي تحددها لها المدارس الفلسفية المختلفة والمتعلقة بإنتاج المعرفة.

وإذا كان قطبا المعرفة قد حُددا بالفهم والابتكار، فإن دور المخيلة من خلال هذا التحديد يتجاوز التعبير عن مظاهر الطبيعة والتأثرات الفردية، وينعتق من المحسوس ليبتكر عالمه الخاص، إذ إن: «الفن ليس نسخة بل تجلٍّ»(٩).

وهم أم خيال؟!

وإذا كان كولردج Coleridge قد فرق بين التوهم والخيال المؤسس للصورة الفنية؛ فالتوهم هو جمع للأشياء ورصفها جنباً إلى جنب دون صهر وتحويل إلى كلٍّ موحد كما يفعل الخيال، فإنه يجب التنويه أنه ليس من السهل الحكم على الصور الفنية بأنها وليدة الخيال أو وليدة التوهم؛ لأن حكماً كهذا يحتاج إلى ناقد عارف متبصر يستطيع أن يميز الخيال من الوهم، ففي كثير من الأحيان تبدو لنا الصورة نتاجاً للوهم؛ لأننا نعجز عن إقامة العلاقات التي توحّد بين أجزائها وتجعل منها كلاً منصهراً بسبب جهلنا للمصادر الثقافية التي انطلق منها الفنان في تشكيل صوره.

إن مقولة: إن الخيال هو المولد الأساسي للصور، ومن ثم فهو الخاصية المميزة للشعر لم تَرُقْ للشكليين، فقد كتب (شلوفسكي): «إن الشاعر لا يخلق الصورة والخيالات، وإنما يجدها أمامه، فيلتقطها من اللغة العادية، ولهذا فإن الخاصية المميزة للشعر لا ينبغي أن تكون مجرد وجود هذه الأخيلة، وإنما الطريقة التي تستخدم بها»(١٠).

إنه لا يمكن أن ننكر أن الشاعر يلتقط أخيلته وصوره من اللغة، ولكننا ننكر أن تكون هذه اللغة لغة عادية؛ إن اللغة العادية لا تستطيع أن تتحول إلى فن، وهي بذلك خالية من كل تصوير وخيال. إن مصدر الخيال التصويري هو رسالة لغوية قابلة أن تتحول إلى فن. ثم إن مرحلة التحول التي تحصل في الرسالة اللغوية تواكبها مرحلة تحول في الخيال كفيلة بنقلها إلى مرحلة الفنية. فالشاعر يبدع صوره وخيالاته جاعلاً منها أرضية لتحول اللغة العادية إلى لغة فنية، واضعاً في الحسبان أنه ليس مجرد منتج للأخيلة، بل منسق بين النسيج اللغوي الجديد الذي تولد عن طريق الفن والنسيج الخيالي المبتكر.

وإذا كانت الشكلية ترفض معادلة لغة الشعر بالخيال، وتضع أساس التمييز الوظيفي بين الصورة في الشعر ومثيلتها في النثر، فإن الشكلية تتكئ على الخيال في هذا التمييز الوظيفي؛ لأن الصورة في النثر العادي تقرب الموضوع من الجمهور وتوضحه، أما في الشعر فإنها تقوم بتكثيف أثره الجمالي المنشود، ولا يتم هذا التكثيف إلا عن طريق امتزاج نسيج اللغة الفنية بنسيج الخيال المبتكر؛ «فالصورة في الشعر

يتّحد المفهوم العقلي بالتصور الخيالي في الصورة الفنية، فالأثر الفني يتكون من اشتراك الجانب الحسي مع الجانب المجرّد

والأدب عمومًا لا تترجم الشيء الغريب إلى كلمات مألوفة، ولكنّها على العكس من ذلك تحوّل الشيء المعتاد إلى أمر غريب عندما تقدمه تحت ضوء جديد وتضعه في سياق غير متوقع»(١١).

لا يمكن أن ننكر أن الشاعر يلتقط أخيلته وصوره من اللغة، ولكننا ننكر أن تكون هذه اللغة لغة عادية؛ إن اللغة العادية لا تستطيع أن تتحول إلى فن

إننا عندما نتعامل مع دور الخيال في العمل الفني على أنه لم يكن مكونًا أساسيًا للتجربة الشعرية، ولم ينقل التجربة الواقعية ويصهرها داخل التجربة النفسية الشعورية، نكون قد حدّدنا طبيعة التّخييل وفق تصور التراث النقدي على أنه «قياس خادع» وإن كنا نؤمن بفاعلية الخيال في النشاط التصويري؛ لأن الإيمان بهذه الفاعلية لا يكفي لإحلال الخيال محلّ الصّدارة في بناء الصّورة. بل لابد من السعي إلى الكشف عن هذه الفاعلية داخل العمل الفني.

إحساس وكشف

وإحساسنا بجمال العمل الفني كفيل بأن يثير في نفوسنا محاولة الكشف عن الخيوط الرفيعة الخفية داخل البناء اللغوي، والذي يقول لنا دون مواربة: إن هذا البناء اللغوي لم يعد يستعمل اللغة استعمالاً عاديًا.

فسر إحساسنا بهذا الجمال في العمل الفني هو انحراف اللغة عن عاديتها، ولكن كيف نستطيع أن نكتشف سرّ هذا الانحراف؟ أو بعبارة أخرى كيف نتمكن من اكتشاف هذا التلاحم الحاصل بين البناء اللغوي والخيال حتى نخرج العمل الفني من إطار التجربة العادية إلى التجربة الشعرية؟

إن إحساسنا بجمال العمل الفني كفيل أن يكون الحافز الذي يشكل لدينا إيمانًا حتميًا بأن الصّورة المشكّلة من خلال العمل الفني هي صورة فنية. وهذا يعني أن الخيال قد أسهم بقسط وافر في نقلها من فجاجة الواقع إلى مرونة الفن. صحيح أن الخيال لم تبرز معالمه، ولكن ذوقنا كفيل بتجلية هذه المعالم والكشف عنها.

إن الذوق إذا لم يتحول إلى ممارسة عملية في الكشف عن أسرار البناء الفني سيظل مجرد إحساس، وربما أصبح إحساسًا مضللاً لأنه لم يعمد إلى محاولة البرهنة على هذا الإحساس. إننا نعترف بصعوبة البرهنة على الإحساس، ولكننا نراها الطريقة المثلى في تعديل هذا الإحساس وتقريبه من الآخرين.

ويعجز الإحساس عن الوصول إلى الآخرين عندما لا يبرهن على أصالته؛ بمعنى عندما يخفق في البرهنة على حكم القيمة الذي أوجده الذوق من خلال تلاحم البناء اللغوي والخيال.

إن البرهنة على حكم القيمة الذي يوجده الذوق هو الكفيل بتقريب أذواقنا من الآخرين سواء بالزيادة في الإقبال عليها أم بالزيادة في النفور منها.

ومقياس الزيادة في الإقبال أو في النفور يتأسس في العمل الفني ذاته وما ينسب إليه؛ فكلما نسبنا إلى العمل الفني خصوصيات متأصلة فيه نجحنا في استقطاب أذواق الآخرين نحو ذوقنا الخاص، وكلما أسرفنا في أحكام جاهزة لا برهان لنا عليها، أو نسبنا إلى العمل الفني أحكامًا لا تنطلق منه وتعود إليه أخفقنا في توصيل أحاسيسنا إلى الآخرين.

وهذا يعني أن أذواقنا في حاجة ماسة إلى فنان يثير كوامنها من خلال صوره العميقة والطريفة؛ وعمق الصّور الفنية وطرافتها يرتكزان على التخييل إلى حدّ بعيد، فلا يكون الشاعر دقيق الوصف والتصوير إلا بمقدار ما لديه من دقة في التخييل. وهذا ما يتيح له القدرة على التركيب والتأليف بين العناصر المألوفة بطريقة تقوده إلى استخراج صورة تبدو غير مألوفة، أو أنها ليست مما تنهض به المحسوسات في ارتباطها بالفهم العادي للأشياء.

توفيق بين العناصر

إن الخيال لا يرمي إلى تحسين الصّورة أو تزيينها لإقناع المتلقي والتأثير فيه، بل يعمل على «تحقيق توافق بين الوحدة والتنوع في نسيج العمل الفني، وإعادة تشكيل المدركات الحسية، وإدراك الارتباطات فيما بينها، وإضافة تجارب جديدة، أو إعطاء هذه المدركات فرصة الدخول إلى مساقات بعيدة وقريبة. وبعبارة أخرى إن قيمة الشاعر الخاصة لا تنفصل عن قدرته الخيالية التي تمكنه من التوفيق بين العناصر، والتي تجعله يكتشف بينها علاقات جديدة. وكأن قيمة الشاعر وأصالته ليستا إلا هذه الخاصية»(١٢).

ويتأسس الإيحاء في الصّورة الشعرية من خلال هذه العلاقات الجديدة التي يكتشفها الشاعر والمرتبطة بقدرته الخيالية؛ والإيحاء هو تضمّن معنىً خفيٍّ إلى جانب المعنى الظاهر. (والإيحاء ميزة الفنون جميعًا: إنها تثير الحلم وتترك

لتذوقها مجال التفكير والاستنتاج. لهذا يُستقبح بعض الشعر التعليمي لأنه يقول لك ما يجب أن تستنتجه»(١٣).

إن عملية الإيحاء في الفنون لا تتم من خلال إطالة النظر في الصورة لإعادة تشكيلها كما هي، بل إننا نحتاج إلى إطالة النظر في إيحاءاتها التي لا نراها.

ولعل أهم ميزة في الفن أنه «لا يمكن فهمه فهماً تاماً، وأنه لا يخلو من حيرة وغموض وكأن الأثر الفني دائم النمو كلما أطلنا فيه النظر»(١٤).

وإذا كان الغموض من مصادر الإيحاء في الفن، فلأنه يتيح تحرك الأفكار والعواطف المختلفة داخل الصورة الواحدة. ولا نعني بالغموض في الفن دخول متاهات ينزلق فيها التخيل فيتحول إلى وهم، بل نقصد الغموض الذي «سرعان ما يشف عن آفاق أرحب عن طريق نوع من الشفافية التي سرعان ما تفجرها مشاركتنا الطبيعية للعمل الفني والتي تبين شيئاً فشيئاً كسائر في الظلام، وسرعان ما يقترب منه ضوء الفكر والوجدان حتى يبين عن نفسه على وجه من الاحتمال»(١٥).

وهذا يعني أن الصورة الفنية غير مطالبة بالشرح والتفسير، إنما عليها الإيحاء وعلينا نحن أن نجتهد في اكتشاف تفصيلاتها من خلال هذا الإيحاء. وهذا ما يجعل الصورة تهدم الذاكرة وتُقيم الإيحاء؛ فمن خلال الإيحاء نقترب من اكتشاف المجهول عن طريق اجتماع الفكر والشعور في وحدة عاطفية. ولعل هذا ما قصد الشاعر (عزراباوند) عندما عرّف الصورة الشعرية بأنها «تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن»(١٦).

ميلاد جديد متكرر

وإذا كانت الصورة الشعرية تقوم على تقريب الانفعالات من القارئ، فإن هذا التقريب يخضع للعلاقة بين القارئ والشاعر. فقد ينفر القارئ من تلك الصور الضحلة؛ لأن الصورة ليست مجرد قدرة على تنسيق لفظي، بل إن جوهر الصورة يكمن في تلك الطاقة الإيحائية التي يمدنا بها ذلك التنسيق اللفظي من خلال تشبعه بثراء دلالي يشد القارئ إليه بكيفية مخالفة تماماً لما هو في الحياة؛ لأن الشعر هو التقاط غريزي لعلاقات نفسية حائرة في واقع وجداني تكاد تنطفئ فيه حدقة المنطق. «ولما كان الفكر موجهاً دائماً إلى الخارج، فإن تجسده يكون في (اللغة) أو (الألفاظ)، وهذه اللغة ليست رداءً للفكر أو قالباً له أو إناء يحتويه، وإنما هي الفكر نفسه مجسداً في ألفاظ لغوية»(١٧). فالصورة لم تعد مكبلة بتلك القيود التي تحبسها في إطار معين، سواء فيما يعرف بالاستعارة أم التشبيه، فقد مضى زمن تلك الحدود الخاضعة لمنطق المماثلة الواقعية الذي خنق حرية الفن زمناً طويلاً بإلغاء عالمه الداخلي الممتد عبر حركة النفس وتخيلاتها غير المحدودة.

إحساسنا بجمال العمل الفني كفيل بأن يثير في نفوسنا محاولة الكشف عن الخيوط الرفيعة المخفية داخل البناء اللغوي

لقد انفردت الصورة الفنية بخصوصية الميلاد الجديد المتكرر الذي لا تشابه بين مواليده إلا في اشتراكهم في الحياة ضمن الإبداع الفني الذي يتيح لهم سبلاً شتى للحياة لا يمكن حصرها عن طريق إخضاعها لقواعد الحياة المنطقية. إن سحب أي صورة فنية لدائرة الأعراف الواقعية هو إلغاء لطاقة الحياة فيها. إن الصورة الفنية هي وحدها القادرة على التعبير عن ظروف ميلادها، وعن الغاية من هذا الميلاد، وعلينا أن نحسن الإصغاء إليها لنكتشف سرّ الميلاد وغايته. فإذا عمدنا إلى وسائلنا القديمة الجاهزة التي نقيس بها صحة كل مولود وصلاحه للحياة، فإننا نفني قدراً هائلاً من أسرار الحياة، ونمنع قدراً هائلاً آخر من الانبعاث إلى هذه الحياة. إننا عندما نهمل المستوى النفسي للصورة عن طريق تمسكنا بالقواعد البلاغية الجاهزة التي تهدف إلى شرح المعنى في إطار موحد لجميع صور الإبداع، فإنما «نضحي بالصورة ذاتها من حيث هي فعل خيال خلاق، ونحولها إلى فعل للوهم لا خلق فيه»(١٨).

إن الصورة الفنية ليست قناة لنقل المعاني، ولا أداة تعكس وجه المشابهة الحقيقية بين طرفين، بل هي حدس يفور في أعماق النفس للكشف عن جذورها الإنسانية الموحدة للعالم. ولذلك فإن إبداع المبدع لشيء بعينه، وتذوق المتلقي لهذا الشيء بالذات ليس الهدف منه ممارسات فكرية وذهنية أو ترصيعات جمالية، بل إن الهدف الحقيقي هو ممارسة الذات المبدعة والمتذوقة لعملية الاتحاد مع العالم بكل مظاهره ومعطياته المحيطة بهذه الذات.

ومن ثم فإنه لا يمكن إغفال العلاقة بين الصورة الفنية والسياق الكلي للتجربة الإبداعية؛ فبقدر اتصاف التجربة الإبداعية بالكثافة والتوتر نكون أمام صورة تفيض بأسرار

الكشف التي لا حدود لها. وبذلك تستحيل الصورة إلى «انحلال للعالم المألوف للأشياء والترابطات والتداعيات التي تثيرها في النفس ثم إعادة تركيب له، نبعًا غريبًا لعلاقات جديدة، طريّة، غضة لم نألفها في تطلعنا اليومي إلى الأشياء»(١٩).

وبهذه الخصوصية للصورة ينشأ عامل الإيحاء عند المتلقي عن طريق فعل الكشف والإدهاش الممارس عليه، فينقله ذلك إلى مراكز استقطاب داخل الصورة لم تعرف من قبل؛ فإذا بنا أمام متلق في تماس متكامل مع الصورة الإبداعية، يقبل عليها بحيوية زائدة ويسلّم لها ذاته لتنحل فيها.

وتتحقق، هذه الفاعلية المدهشة للصورة بفعل النمو المشترك للحقول الانفعالية والدلالية التي ما إن تستقر على هيئة معينة حتى تهتز من جديد لتؤسس حقولاً انفعالية ودلالية جديدة لم تكن في نطاق الإدراك الأول، بل إن هذا الإدراك الجديد قد تشكل عن طريق الاقتناع برفض الطبيعة المحددة والوضع الثابت. ومن خلال الاحتكام إلى هذا المبدأ نكون أمام حقول انفعالية ودلالية لا تتشكل داخل الصورة الإبداعية إلا وهي تحمل بذور فنائها بسبب تلك الطاقة الإيحائية التي تمتلكها الصورة الإبداعية، والتي تملك قدرة تعديل الأشياء وهزها لتقديمها في إطار أمثل.

النقد العربي القديم حدّ من حرية الشاعر، وألزمه العناية بقوة اللفظ وحسن الصياغة مغفلاً جانب التصوير والتخييل

وقد يتم هذا التعديل في لحظة التذوق، بتحول المتلقي من نظر كان قد أسسه حول الصورة إلى نظر آخر تكشف له من خلال زاوية إيحائية أكثر عمقًا في الصورة. وقد لا يتم اهتزاز هذه الحقول الانفعالية والدلالية داخل الصورة الإبداعية إلا بعد عصور طويلة تكتشف من خلالها زوايا إيحائية جديدة ظلت معتمة.

وهذا يعني أن الإيحاء المشكل لحقوله الانفعالية والدلالية في زمن ما ـ مهما طال هذا الزمن ـ لا يغلق الصورة الإبداعية على نحو معين.

إن ذلك الإيحاء لا يشكل إلا ركنًا قد تسرب منه الضوء إلى تلك الصورة وظلت أركانه الأخرى معتمة حتى إذا تمت إنارة ركن آخر تهدم الحقل المعرفي السابق بانفعالاته ودلالته، وفسح الطريق لتأسيس حقل معرفي جديد يظل مهددًا بالسقوط عن طريق إنارة ركن آخر من أركان الصورة الإبداعية التي لا يمكن تحديد أركانها، لأنها لا تتشكل في قالب هندسي يخضع لمنطق الحساب والعدّ.

وإذا أقررنا بمبدأ أن الصورة: «كشف نفسي لشيء جديد بمساعدة شيء آخر»(٢٠)، فإنه يحق لنا أن نتساءل ما مدى مقدار المساعدة التي نتوقعها من الشيء الآخر؟ لأننا إذا اتكأنا على الشيء الآخر، وهو ما يمثل الشيء المعروف فإننا نحقق زيادة في معرفة المعروف ونبتعد عن عملية الكشف.

وعملية الكشف مرادفة للضنى والمشقة، لذلك فإنه من المستغرب أن نقرأ قول الأستاذ عز الدين إسماعيل وهو يتحدث عن علاقة مشاهد الشاعر القديم بمشاعره: «هذا النوع من المشاهد التي يشكلها الشاعر ويلونها بمشاعره غير قليل في الشعر القديم، لكنه يعرض في القصيدة كاللمحة العابرة، فلا يكون له أصداء في القصيدة من حيث هي كل. وقد نجد في القصيدة الواحدة ـ كما هو الشأن في معلقة امرئ القيس ـ صورة من هذا النوع هنا وهناك ـ ولكننا نضني أنفسنا كثيرًا إذا نحن التمسنا خيطًا نفسيًا واحدًا ينتظم القصيدة كلها بكل ما فيها من صور أو مشاهد»(٢١).

لمحة عابرة

إن الإقرار بكثرة المشاهد المشكلة من طرف الشاعر القديم وارتباطها بمشاعره والملونة بأحاسيسه يجعلنا نقر بوجود صورة فنية لها مواصفات انفعالية يجب علينا كشف دلالاتها. إن وصف هذا النوع من المشاهد (باللمحة العابرة) هو الدليل على وجوده بكيفية إيحائية، وإن انتشاره عبر القصيدة (صورة هنا وصورة هناك) هو دليل على استمرار تلك اللمحة الإيحائية العابرة. فكيف السبيل إلى ربط أجزاء تلك الصورة المبثوثة هنا وهناك لإخراج هذه اللمحة العابرة ـ التي هي الإيحاء ذاته إلى الوجود؟.

إن هذا السؤال لا يحتمل إلا جوابًا واحدًا، وهو أنه يجب علينا التحلي بالصبر وبذل جهد عزاؤنا الوحيد فيه ما نحسه من متعة الاكتشاف. وهذا يعني أنه يجب الإيمان والحث على إجهاد النفس وإضنائها من أجل التماس الخيط النفسي المشترك الذي ينتظم القصيدة كلها ويوحد بين صورها ومشاهدها. وهذا ما يحول القصيدة العربية القديمة إلى مجموعة رموز لا مجموعة أغراض. ومن خلال تلك الرموز تنشأ العلاقة النفسية الموحدة داخل الصورة الإبداعية الكلية للقصيدة التي تتولد عن دلالات اللغة لتشكل حقلها الخاص.

إن متعة الصورة الإبداعية في اختفاء خيطها الذي يوحد

القصيدة، وإن الإمساك بطرفه لهو الجائزة الحقيقية التي تعوّض المتلقي عن بذل الجهد.

وتنتشر المتعة في عدد كبير من أولئك الذين يقرون بفكرة الأخذ بذلك الطرف من الخيط، أما الذين يرون أن طرف الخيط الحقيقي مازال مجهولاً فهم يبذلون جهداً آخر من أجل الظفر به، ولا شك أنهم سيظفرون به وإن طال البحث. وعند الظفر به سيحققون جانباً من المتعة قد يتحوّل إليه أولئك الذين كانوا يؤمنون بمتعة سابقة بدت لهم الآن أنها تكاد تخبو أمام وهج المتعة الجديدة المكتشفة. أو قد يخيب أمل أولئك الظافرين بالمتعة الجديدة لأنهم سيكتشفون أن تلك المتعة لم تكن إلا وهماً لم تكتب له الحياة، فيجدون في طلب متعة أخرى.

وتظل الصّورة الإبداعية هي مصدر المتع القديمة والجديدة، القوية والضعيفة. ولا يتم الإيمان بذلك إيماناً كلياً يحدد طبيعة الصورة وقيمتها إلا من خلال إضناء النفس وإتعابها في التماس الخيط النفسي والدلالي الكاشف عن حقل أي صورة من الصور.

إحساس باللذة

إنه لا يمكن لمتذوق الفن الكاشف لصوره الإيمان بأن الصّورة الإبداعية تسلم نفسها له من خلال نظرة عابرة أو قراءة متسرعة لا يُبذل فيها جهد ولا مشقة، لأن خاتمة النظر في أي صورة إبداعية نتيجتها الإحساس باللّذة. ولا يوجد إلا طريق واحدٌ في الفن تسلكه اللّذة هو طريق الألم. وكلما كانت آلام الفنان أو المتذوق أكبر كانت اللّذة المصاحبة للنتاج ولتذوقه عظيمة ومستمرة زمناً طويلاً وشاملة لعدد كبير من المشاركين.

إن هذه اللّذة لا تؤمن بالتعبير الموافق للمنطق، ولا تتولّد عن طريق الإيمان بأن النحو هو منطق اللغة الذي ينظر إليه النحاة على أنه مطابق لمنطق العقل، كما أنها لا تؤمن بالقاعدة القائلة إن الدلالة اللغوية الجادة هي دلالة منطقية، وتبتعد عن الرأي الذي يلزم الشاعر بتفسير معانيه تفسيراً صحيحاً بعيداً عن الاستحالة والتناقض.

لقد وقف القدامى عند قول العباس بن الأحنف:

سأطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُم لِتَقْرُبُوا
وتسكُبُ عيْناي الدمُوع لتَجْمُدا

ووصفوا معاني هذا البيت بالتناقض، ولم يُفهم من هذا التناقض في بيت الشاعر أنه يمكن أن يكون وافر الدلالة أو غنياً من جهة أخرى، لأن للفصحاء قوة إجماع، وهم يتفقون على أن جمود العين يعني بخلها بالدموع عند الحاجة إلى تلك الدموع. لذلك فقد عيب على الشاعر عدوله عن الخطة المرسومة(٢٢).

إن مصدر اللّذة في هذا البيت في خروجه عن الإجماع، لماذا لا نفهم البيت السّابق على أنه «استنفاد الآلام الممكنة»(٢٣)، ولماذا نفهم قول الشاعر: «سأطْلُبُ بُعْدَ الدار عنكم لتَقْرُبُوا» على أنه موقف يحمل طابع الثبات والإصرار كما يفهمه النحويون، ألا يمكن أن ننظر إلى هذا الفعل على أنه «فعل ذاتي ينطوي على دفع أفكار ومصارعة عواطف»(٢٤).

وهذا ما يجعلنا نردّد مع الأستاذ مصطفى ناصف: «إن الفلسفة الحقيقية للغة هي فلسفة الفن»(٢٥). صحيح أن الفن ليس لغة خاصة «ولكنه يسمو بالبشر في داخل ذواتهم»(٢٦) بفضل ما تتكشف عنه صور من جماليات الإيحاء.

المراجع

١. علم الجمال، د. نايف بلوز، ط٢، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٨٣م، ص١٩٠.
٢. السابق ص ١٩١.
٣. تلخيص الخطابة، ابن رشد الحفيد، تحقيق: د. عبدالرحمن بدوي، الكويت، بيروت ١٩٥٩م، ص٩٦، نقلاً عن نظريات الشعر عند العرب، د. مصطفى الجوزو، ط١، دار الطليعة بيروت ١٩٨١م، ص٢٥٨.
٤. نظريات الشعر عند العرب، د. مصطفى الجوزو، ص٢٥٩.
٥. الصّورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، الولي محمد، ط١، المركز الثقافي العربي بيروت - الدار البيضاء ١٩٩٠م، ص٢٠.
٦. أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د-ت)، ص٢٤٩.
٧. الصّورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، د. ساسين عساف، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢م، ص٢٦.
٨. الصّورة والبناء الشعري، د. محمد حسن عبدالله، ط١، دار المعارف، مصر (د-ت)، ص٣٣.
٩. المخيلة: جان برتيس، ترجمة: خليل الجر، ط١، المنشورات العربية، بيروت ١٩٨٤م، ص٨.
١٠. نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٥م ص٨١.
١١. السّابق ص٨١.
١٢. نظرية اللغة والجمال في النقد العربي: د. تامر سلوم، ط١، دار الحوار، اللاذقية، سورية ١٩٨٣م، ص ٢١١.
١٣. النقد الجمالي وأثره في النقد العربي: روز غريب، ط١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٥٢م، ص٩٧.
١٤. السابق ص٩٨.
١٥. دراسة في لغة الشعر رؤية نقدية، د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية - مصر (د-ت)، ص٤١.
١٦. الشعر العربي المعاصر، د. عزالدين إسماعيل، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٧١م، ص١٣٤.
١٧. دراسة في لغة الشعر، د. رجاء عيد، ص٤٨.
١٨. جدلية الخفاء والتجلي، د. كمال أبو ديب، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١، ص٢٦.
١٩. السّابق ص٤٥.
٢٠. التفسير النفسي للأدب، د. عزالدين إسماعيل، ط٤، دار العودة، بيروت ١٩٨١م، ص٩٦.
٢١. السّابق ص٩٠.
٢٢. نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف، ط٢، دار الأندلس، بيروت١٩٨١م ص٥٣.
٢٣. السّابق ص٥٣.
٢٤. السّابق ص٦٥.
٢٥ ، ٢٦. السّابق ص٦٩.



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣٠٢)

شعبان ١٤٢٢هـ - أكتوبر/نوفمبر٢٠٠١م

الفائز الأول: **لينا محمد أحمد صالح - تعز - اليمن.**
الفائز الثاني: **أمل حامد سالم قاسم - عمان - الأردن.**
الفائز الثالث: **عادل فتحي عمر محمد - الزقازيق - مصر.**
الفائز الرابع: **عبدالله الرشيد محمد - الدوحة - قطر.**
الفائز الخامس: **سمر بكر الصالح - الثورة - سورية.**
الفائز السادس: **محمد حسني ذياب - أبو ظبي - الإمارات.**
الفائز السابع: **عامر شفيق عبداللطيف - عمان - الأردن.**
الفائز الثامن: **نجاة عبده ناصر السروري - صنعاء - اليمن.**

حل مسابقة العدد (٣٠٢)

١- وتلفّتت عيني، فمذ خفيت عني الطلول تلفّت القلبُ؟
قائل البيت هو: الشريف الرضي.

٢- الروكوكو: أسلوب في التزيين وفن العمارة، يتميز بالزخرفة البالغة. راج في النصف الأول من القرن الـ ١٨.

٣- الإستريوغرافيا: فن تصوير الأجسام الصلبة على سطح مستو.

٤- «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» كتاب شهير من تأليف: أبي عبدالله محمد الإدريسي.

٥- سبارتاكوس: عبد روماني تزعم ثورة قام بها العبيد ضد روما.

أسئلة مسابقة العدد (٣٠٥)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت:

وإذا تشاجر في فؤادك مرة أمران فاعمدْ للأعفّ الأجمل

☐ عبد قيس بن خفاف البرجمي ☐ المُثقّب العبديّ.

(٢) المثمّن لقب أطلق على الخليفة العباسي: ☐ هارون الرشيد ☐ المعتصم.

(٣) زينب: ☐ اسم لشجرة حسنة المنظر طيبة الرائحة ☐ اسم من أسماء الشهب التي تسقط من السماء مشتعلة.

(٤) الشمس تدور حول نفسها مرة: ☐ كل ٢٥ يوماً ☐ كل ٦٠ يوماً.

(٥) المكوث مدة تساوي: ☐ ثلاثة أشهر ☐ أربعة أيام.

الاسم: .... المدينة: .... ص.ب: .... هاتف: ....

العنوان: .... الدولة: .... الرمز البريدي: .... ناسوخ: ....



شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يوماً من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد ......).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى:	١٠٠٠ ريال.
الجائزة الثانية:	٧٠٠ ريال.
الجائزة الثالثة:	٥٠٠ ريال.
الجائزة الرابعة:	٤٠٠ ريال.
الجائزة الخامسة:	٢٥٠ ريالاً.
الجائزة السادسة:	١٥٠ ريالاً.
الجائزة السابعة:	(اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
الجائزة الثامنة:	مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دوماً، مع تمنياتنا بحظ وافر لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) - الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

التنظيم الاجتماعي والسلوك التكاثري لمجتمعات القرود

أحمد إبراهيم البوق
الطائف - السعودية

يصنَّف السلوك الجنسي على أنه جزء من السلوك الاجتماعي، ولكنه من الأهمية بمكان يمثل العمود الفقري للسلوك الاجتماعي برمته، وأحيانًا إلى جانب كونه هيكلاً للسلوك الاجتماعي، يمثل اللحم والجلد أيضًا. وعلى أساسه تصنف المجتمعات أنها محافظة أو منفتحة، وبين التصنيفين أطياف واسعة. نحن - بالتأكيد - لا نتحدث عن البشر، ولكن عن كائنات أقرب ما تكون إلى البشر، للدرجة التي تستوقف جموع الزائرين لحدائق الحيوان أو الغابات والمناطق التي تنتشر فيها أنواع القرود لا ليتسلَّوا بمنظرها الجميل، ولكن ليتأكدوا كم هي المسافة التي تفصل هذه المخلوقات عنهم.

أم مع رضيعها من قرود المكاك الياباني في منطقة ثلجية في ناجانو، نظام تعدد الذكور والإناث. تصوير (أحمد البوق)

في عام ١٩٦٠م كان الباحثون يعتقدون أن أنواع القرود في العالم لا تتجاوز ١٨٠ نوعًا تنتشر بين خطي عرض ٤٠ درجة شمالاً وجنوبًا من أقصى شرق آسيا إلى أقصى غرب أمريكا الوسطى والجنوبية مرورًا بالقارة الإفريقية. ومنذ ذلك التاريخ اكتشف العلماء أو أعادوا تصنيف المجموعات وتحديدًا باستخدام تقنيات مقارنة المورثات، فازدادت الأعداد أكثر من خمسين نوعًا لتصل إلى ٢٣٤ نوعًا من القرود يتكاثر بعضها على مدار العام، وُلكن يكون لها قمة في التكاثر في بعض الأشهر، مثل قرود كولوبس بينانت الأحمر الإفريقية التي تبلغ قمة تكاثرها بين شهري أبريل/نيسان، ويونيو/حزيران، وفي شهر نوفمبر/تشرين الثاني، بينما يتكاثر بعض أنواع القرود في مواسم محددة في شهر أو شهرين مثل الليمورات التي تنتشر في جزيرة مدغشقر. وبينما تحصل بعض إناث أنواع القرود على أكثر من ٣٠ مولودًا في حياتها، مثل إناث قرود الليمور الفأري الرمادي الليلي المعيشة والتي تنجب في كل حمل بين ٢ و ٤ مواليد، وحملها نحو الشهرين ورعاية الصغار لشهرين، فإن إناث بعضها الآخر من أنواع القرود تكون محظوظة إذا حصلت على خمسة مواليد طوال حياتها التي تمتد أكثر من خمسين عامًا مثل قرود الأورانج أوتان التي تعيش في غابات إندونيسيا وماليزيا والتي يستغرق حملها ٩ أشهر، وتحتاج صغارها إلى نحو ٤ سنوات لرعايتها، والفترة بين الولادتين تصل إلى ثماني سنوات. والقرود في العالم تراوح في الأشكال والأحجام بين الليمور البقمي الفأري الذي يقدر متوسط وزنه ٣٠جم، وهو الأصغر بين أنواع القرود، وذكور الغوريلا التي يصل وزنها إلى ١٧٥كجم، وهي الأضخم حجمًا ووزنًا بين قرود العالم.

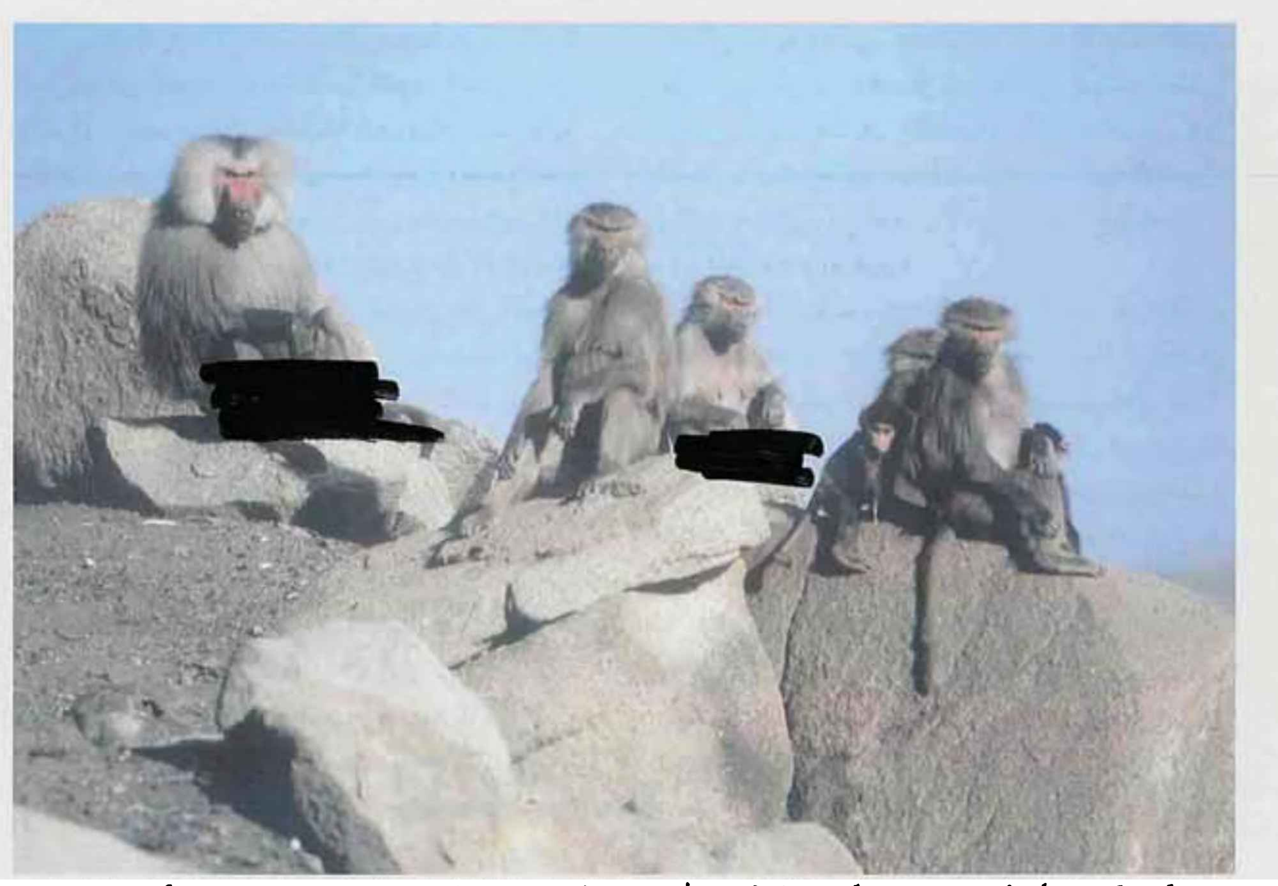
القرود الخضراء في إثيوبيا وهي واسعة الانتشار في إفريقية - تعتمد نظام تعدد الذكور والإناث. تصوير (أحمد البوق)

وبينما تمثل القردة العليا كالشمبانزي والغوريلا والأورانج أوتان والجابون الأقرب للإنسان تشريحيًا وسلوكيًا، فإن قرود الشمبانزي أقرب أنواعها للإنسان وتقتسم معه المورثات بنسبة تزيد على ٩٨٪. ولكم أن تتخيلوا أن ما يفصل الإنسان الذي كرمه الله عن قرود الشمبانزي ليس سوى أقل من ٢٪ من التركيب الوراثي، وعلينا إذًا أن نؤمن أن هؤلاء «أمم أمثالنا».

فكيف تبني هذه الأمم علاقاتها الجنسية من أقصى التحفظ إلى أقصى الانحلال؟!.

أولاً: الانعزال أو التوحد:

يمثل الجنس لدى بعض أنواع القرود ضرورة - فقط - لاستمرار النوع، ولذلك نادرًا ما تلتقي ذكورها بالإناث وهي تفضل المعيشة بشكل منعزل Solitary Foragers مثل معظم أنواع قرود البروسيميتر التي تعيش في شرق آسيا وإفريقية، وكذلك نوع قرود الأورانج أوتان الذي يعيش في غابات إندونيسيا وماليزيا، وفي هذا النوع الأخير الذي يمتد عمره أكثر من خمسين سنة تصل الإناث لسن النضج عند سن السابعة، بينما



عائلة من قرود الربّاح في الجزيرة العربية ويلاحظ الذكر مع أربع من إناثه والصغار (نظام الحريم). تصوير (جوتير) مكتبة المركز الوطني

تصل الذكور لسن النضج عند نحو العاشرة، وللإناث دورة شهرية كل ثلاثين يوماً. وإذا ما كونت هذه القرود التي تفضل العزلة جماعات فإنها غالباً لا تزيد على الثلاثة، وعليه فإن نمط الاتصال الجنسي لدى هذه الأنواع مهمّش إلى درجة كبيرة مثيرة للحيرة.

ثانياً: الزوج المتماسك:

وفي هذا النمط من التنظيم الاجتماعي والاتصال الجنسي يعيش القرود كزوج متماسك ذكر واحد وأنثى وحيدة One male - one female، ويدافع هذا الزوج عن حدود معينة، مثل قرود تايتي التي تعيش في أمريكا الجنوبية، وقرود الجابون وهي من القردة العليا التي تنتشر عدة أنواع منها في جنوب شرق آسيا. وفي حالات كثيرة من هذا النمط الجنسي يدافع الذكر عن أنثاه ضد الذكور الأخرى بينما تبعد الأنثى الإناث الأخريات عن ذكرها، ولعل هذا هو النموذج الذي يتطلع إليه الكثيرون من البشر الرومانسيين.

ثالثاً: تعدد الإناث:

في هذا النمط يستفرد ذكر واحد بعدد من الإناث One male - multi female ويسمى «بنظام «الحريم» وينتشر هذا النمط لدى القرود المتغذية على الأوراق مثل قرود الكولوبس في إفريقية وقرود اللنجور في آسيا، وتكون الإناث مرتبطات بعضهن ببعض، ويبقين في المجموعات للدفاع عن الحدود ومصادر المعيشة، بينما يدافع الذكر الوحيد عن إناثه ضد الذكور المتحرشة. وفي هذا النظام تغادر الذكور في سن يافعة إما لتشكيل

أسر جديدة، وإما للانضمام إلى مجموعات ذكرية عازبة. في النويع الوحيد من القرود المنتشر في الجزيرة العربية في المملكة العربية السعودية واليمن وهو قرد بابون الهامادرياس يشيع نظام «الحريم» في مجموعاته، إذ يكون متوسط نصيب الذكر بين ١ و ٤ إناث، بينما يرتفع هذا الرقم لدى المجموعات المستأنسة التي تعيش على الطرق العامة ومرامي النفايات، وذلك بسبب انخفاض أعداد الذكور نتيجة للحوادث، لذلك قد يصل نصيب الذكر إلى عشر إناث. ولكن كلما زاد عدد الإناث للذكر الواحد قلّت قدرته على ضبطهن. ويتميز هذا النويع بسلوكيات القيادة التي تجبر الإناث على البقاء داخل العوائل بسلوكيات عدائية متنوعة. ولكن الغريب في هذا النويع أنه كلما ازداد حجم القطيع - أي الاكتظاظ العددي في المجتمع - وكان المكان محدوداً، قلّت رغبة الذكور في الاحتفاظ بعدد أكبر من الإناث بسبب استحالة السيطرة عليهن، وينشأ سلوك جديد لتشديد الرقابة على الإناث في أثناء فترة الشبق - والتي تتميز بانتفاخ خلفية الأنثى - يتمثل هذا السلوك بشد الأنثى من ذيلها طوال الوقت أو من شعر رقبتها حتى تنتهي فترة الشبق. فالغيرة على الإناث في هذا النمط سبب لكثير من الصراعات بين الذكور، والتي قد تنتهي في بعض الأحيان بجروح بليغة.

رابعًا: تعدد الذكور:

في هذا النمط تستفرد أنثى وحيدة بعدد من الذكور Multi male - one female وينتشر هذا النمط من التنظيم الاجتماعي والاتصال الجنسي لدى قرود التمارين وقرود المارموزيت التي تعيش في أمريكا الجنوبية. وهذا النظام مضاد لنظام «الحريم» ويسمى متعدد الأزواج Polyandrous وهو ضد نظام تعدد الزوجات Polygynous. فميزة النظام المتعدد الأزواج أن كامل أفراد المجموعة يشاركون في تغذية الرضيع وحمله ورعايته. وفي هذا الشكل الغريب من العلاقات الجنسية من الممكن أن يكون داخل المجموعة عدد من الإناث، ولكن الأنثى السائدة هي المنتجة فقط، أما الإناث الأخريات الأقل سيادة فإن دورتهن الشهرية تثبط هرمونياً فلا ينتجن بويضات حتى يتركن المجموعة أو تموت الأنثى السائدة.

خامسًا: تعددالذكور والإناث:

في هذا النمط تمتزج مجموعات من عدة ذكور وعدة إناث Multi male - multi female، ولهذا التنظيم الاجتماعي والاتصال الجنسي أشكال كثيرة لدى قرود المكاك الياباني، مثلاً، الإناث لا تخرج من المجموعات التي تولد فيها ويسمى بالنظام الأمومي Matri-lineal وفيه تحصل البنت



أحد قرود الشمبانزي في وسط إفريقية - تعتمد نظام الانقسام والاندماج في نمط تعدد الذكور والإناث
تصوير (هوفمان)

على رتبة أمها الاجتماعية، أما الذكور فإنها تخرج من المجموعات التي ولدت فيها عند بلوغها سن النضج. وغالبًا ما تغيّر مجموعاتها كل ٤ سنوات للحصول على المزيد من فرص التكاثر ولتفادي الانغلاق الوراثي. يشيع هذا النمط لدى نويعات قرود البابون الإفريقية المختلفة باستثناء النويع الذي يعيش في الجزيرة العربية وفي أقصى شرق القارة وهو بابون الهامادرياس، إذ يعتمد على نظام تعدد الإناث. أما لدى نويعات البابون الأخرى فلا رابط وراثيًا بين الإناث في العائلة، إذ يكون الذكر هو مركز الاهتمام. وهناك شكل آخر من تعدد الذكور والإناث يسمى مجتمع الانقسام والاندماج Fission - Fusion Community ويبرز هذا النمط في قرود العنكبوت التي تنتشر في أمريكا الجنوبية وتنقسم مجموعات صغيرة من ٣ - ٤ أفراد للتغذية بعضها مع بعض، وغالبًا ما ترحل الذكور البالغة بعضها مع بعض، وهي أسرع في الحركة من الإناث والصغار، ثم تعود وتلتقي بالإناث، وكذلك يوجد هذا النمط لدى قرود الشمبانزي المنتشرة وسط إفريقية وغربها إذ تقوم الذكور الأقرباء بتفلية بعضها والتحرك بشكل جماعي في التغذية والحماية لحدودها، بينما نشاهد مجموعات من الإناث اللواتي لا تربطهن علاقات وراثية مع صغارهن يتجولن بشكل منفصل عن الذكور، ثم تلتقي الذكور بالإناث لاحقًا، وفي هذا النمط ترحل الإناث عند البلوغ إلى قطعان جديدة، وليس من الضروري ثبات هذه الأشكال من التنظيم الاجتماعي والاتصال الجنسي.

التطهير العرقي

لدى بعض أنواع القرود إستراتيجيات عجيبة في التكاثر تتميز بالتطهير العرقي، ومن ذلك نوع قرود لانجور هانومان، وهو من القرود الآكلة الأوراق التي تعيش في الهند وباكستان وبنجلاديش وسيرلانكا وبورما وينقسم هذا النوع ١٥ نويعًا، وهو القرد المقدس في الهند، فقد سجل لدى هذا النوع سلوك قتل الرضيع Infanticide، وهو سلوك عنيف تنتهجه الذكور السائدة الجديدة عند تسيدها على المجموعات، إذ تقوم بقتل الرضّع كافة، وذلك لدفع الإناث للتعجيل بدورتهن الشهرية، والوصول إلى مرحلة الشبق سريعًا. وهذا السلوك العجيب سجل أول مرة في القرود في هذا النوع، ثم سجل في ١٩ نوعًا آخر من القرود، وسجل أخيرًا بشكل محدود لدى نويع بابون الهامادرياس في الجزيرة العربية، كما سجل لدى أنواع أخرى من الحيوانات كذكور الأسود.

> يوجد أكثر من ٢٣٤ نوعًا من القرود تختلف في أشكالها وأحجامها وعلاقاتها الزوجية وطريقة تكاثرها

الذكر السائد في قرود لانجور هانومان يستمر في سيادته على المجموعة مدة تصل إلى ٢٧ شهرًا، وهو الوحيد الذي يُسمح له بتلقيح الإناث كافة في المجموعة في فترة سيادته. ولأن فترة الحمل في هذا النوع تراوح بين ٥ر٥ و ٥ر٦ أشهر، وفترة رعاية الرضع تراوح بين ١٣ و ٢٠ شهرًا، فإن الذكر السائد الجديد يقوم بعملية التطهير العرقي بقتل الرضع كافة لدى إناث المجموعة كي يدفع الإناث للدخول سريعًا في مرحلة شبق جديدة estrus حتى يتسنى لهن الحمل منه ورعاية صغاره قبل أن يتم طرده من المجموعة بالذكر السائد الجديد الذي سيمارس القتل في أطفاله كما فعل هو في أطفال غيره. ولكن هذه الإستراتيجية التكاثرية من قبل الذكور تقابل بإستراتيجية مضادة من قبل الإناث. فهن أصغر حجمًا من الذكور، ولا يستطعن الدفاع عن صغارهن. ففي حين يصل متوسط وزن الإناث إلى نحو ١١كجم، فإن الذكور يزيد متوسط وزنها في هذا النوع على ١٨كجم. وتسعى الإناث دائمًا إلى الحصول على الرضع في أسرع وقت ممكن

ورعاية الصغار بشكل كامل سريعاً قبل أن يتغير الذكر السائد، ويكون مصيرهم القتل. وفي حالة الإناث الحوامل فإن الدورة الشبقية لهن لن تأتي - في هذا النوع تنفتح خلفية الأنثى كدليل على اكتمال الشبق وخروج البويضة من المبيض - وكذلك فإن حصولهن على مواليد بشكل مبكر جداً بعد سيادة الذكر الجديد قد يعرضهن للقتل، فتظهر الأنثى سلوكاً عجيباً يسمى بالشبق الكاذب Pseudoes-trus، وفيه تتضامن الفسيولوجيا مع السلوك لإحداث انتفاخ في خلفية الأنثى توهم فيه الذكر السائد الجديد أنها في مرحلة شبق، ومن ثم تضمن نجاح الحمل والرعاية في ظل الذكر السائد الجديد، ويتقبل الذكر المولود على أنه من نسله.

ولكن ما الذي يحدث للصغار الذين تجاوزوا سن الرضاع عند تغير الذكر السائد وبدء مرحلة التطهير العرقي؟

أشارت بعض الدراسات على هذا النوع إلى أن معاملة الذكور تختلف عن معاملة الإناث، فبينما يستبقي الذكر السائد الجديد الإناث اليافعات داخل المجموعة كعنصر أساسي لزيادة حصته من الإناث، فإنه يقوم بطرد نحو ٦٦٪ من الذكور اليافعة التي شهدت مذبحة إخوانها الرضع، والبقية من الذكور اليافعة تغادر مع والدها الذكر المهزوم الذي كان سائداً فيما مضى والذي هو غالباً أب لها جميعاً.

في هذا النوع يلاحظ أن نحو نصف الذكور اليافعة يعيش في مجموعات عازبة نتيجة لهذه العمليات من التطهير العرقي.

تنافس الحيوانات المنوية

لدى بعض أنواع القرود إستراتيجية غريبة للتكاثر، لا تعتمد على قتل الصغار، أو خداع الذكور بشبق كاذب، ولكن تعتمد على تنافس الحيوانات المنوية. ويظهر ذلك لدى قرود العنكبوت الصوفي التي تعيش في البرازيل، وفي هذا النوع تصطف مجموعة من الذكور اليافعة للاتصال الجنسي الجماعي بالأنثى التي في حالة شبق، وفي أثناء أداء هذه العملية يظهر الذكر الملقّح بعض العداء للذكور الأخرى، بينما ينتظر الجميع دورها، ولكن هذا النوع مسالم جداً لدرجة أنه من أكثر أنواع القرود مسالمة.

إذا كنا نعرف أن حيواناً منوياً واحداً سينجح في تلقيح البويضة فلماذا كل تلك الملايين من الحيوانات المنوية من ذكور متعددة.؟!.

تقول الفرضية: إن كل ذكر ينتج أقصى ما يمكن من حيواناته المنوية ليحظى بفرصة أكبر للتلقيح. وتسمى هذه الطريقة بتنافس الحيوانات المنوية. ويقوم الباحثون بقياس معدّل وزن الخصية موازنة بوزن الجسم الذي لدى الذكور، لأنه كلما زادت النسبة زادت فرص التنافس بإنتاج أكبر كمية من الحيوانات المنوية. وإن كانت الدراسات الوراثية - أخيراً - ستحسم هذا الأمر لتحدد من الفائز بتلقيح البويضة في هذه المنافسة العجيبة.

عالم القرود هذا العالم العجيب المدهش والمبهج الذي استطاع باقتدار أن يعبّر في تراكيبه الاجتماعية وعلاقاته الجنسية عن أقصى درجات التحفظ وأقصى درجات الانحلال، لا يخجل أو يتباهى إن كان في أقصى درجات اليسار أو اليمين، فهو يعبّر عن ذاته كما أوجدها الله، لأنه عالم لا صوت فيه يعلو فوق صوت الغريزة.

المراجع

-The Pictorial Guide to the living Primates. 1996 - Noel rowe. Pogonias Press,east hampton, Newyork.
- Social organisation of hamadryas baboons. Afield study 1968. Kummer, H.S.Karger Basel switzerland, Newyork.
- Socio ecological study of hamadryas baboons at Taif municipal rbbish dump. 1999. mori, A&Boug. A. Annual report. NWRC, Taif, Saudi Arabia.

مصادر الصور: عدسة الكاتب.

إطلاق المرصد الفضائي الأوربي بالأشعة السينية وصوره الأولى

سليمان قيس القرطاس
الجبيل الصناعية - السعودية



تم في ١٠ ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٩٩م إطلاق الصاروخ الأوربي الضخم آريان - ٥ وهو يحمل مركبة مدارية أوربية لحساب وكالة الفضاء الأوربية.

وتعد عملية الإطلاق هذه أول عملية إطلاق تجارية ناجحة لحمولة مدارية لصاروخ آريان - ٥، فقد كانت عملية الإطلاق الأولى مخفقة خسرت فيها وكالة الفضاء الأوربية ٤ أقمار صناعية علمية، بينما حمل في عملية الإطلاق الثانية نموذجين لقمرين صناعيين. أما عملية الإطلاق الثالثة فقد كانت لتجربة مركبة تعود إلى الأرض.

المركبة المدارية هي أضخم مركبة علمية أوربية يحملها صاروخ أوربي، وهي مرصد الأشعة السينية المتعدد المرايا المعروف اختصاراً بـ XMM.

صمم هذا المرصد الفضائي لدراسة المصادر البعيدة لأشعة جاما والثقوب السوداء والنجوم الثنائية والنجوم المتفجرة والظواهر الكونية الأخرى التي لا يمكن دراستها بواسطة المراصد العاملة بالضوء المرئي.

العلماء الأوربيون والأمريكيون يقولون: إن XMM سيكون منسجماً تماماً مع المرصد الأمريكي شاندرا الذي أطلق في يوليو/تموز عام ١٩٩٩م من خلال المزايا المختلفة لكل منهما والمكملة للآخر.

وكان من المقرر أن يشمل فريق المركبات الفضائية لدراسة الأشعة السينية المركبة اليابانية Astro - E ـ لولا تحطمها في إخفاق عملية إطلاق الصاروخ الياباني M - 5 في منتصف فبراير/شباط عام ٢٠٠٠م.

وكانت هناك مخاوف للمختصين الأوربيين في أن يؤدي إطلاق هذه المركبة عبر آريان ـ ٥ إلى فقدانها؛ وذلك لعدم وصول التقنيات المستخدمة في آريان ٥ إلى مستوى الاختبار الكافي لكن آريان ـ ٥ نجح وتمكن من كسب التأهيل لعمليات الإطلاق التجارية القادمة.

وانفصل القمر XMM من صاروخ آريان ـ ٥ ودخل المدار بارتفاع أقصى بلغ ١١٣ ألف كيلو متر، وحضيض بلغ ٨٥٠ كيلو متراً.

وبعد الإطلاق مباشرة بدأت عملية فحص القمر الصناعي وإيصاله إلى ارتفاع ٧٠٠٠ كيلو متر، بينما تم إيقاف عملية الفحص من ٢٤ ديسمبر/كانون الأول عام ١٩٩٩م إلى ٤ يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٠م لتجاوز مشكلة الألفية.

وقررت وكالة الفضاء الأوربية إرفاق اسم نيوتن باسم هذا المرصد الفضائي ليصبح اسمه XMM ـ نيوتن تقديراً لجهود الباحث الإنجليزي إسحاق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧م) في مجال الرياضيات والبصريات والفيزياء، والذي تعد مساهمته في مجال الجاذبية أكثرها شهرة.

مواصفات المركبة ومدارها

مدار المركبة XMM ـ نيوتن شديد الاستطالة، فيصل الأوج في مداره إلى ثلث المسافة إلى القمر، وهو أمر مطلوب يجعل مدة عمل المركبة تبلغ ٤٠ ساعة من ساعات المدار البالغة ٤٨ ساعة للدوران حول الأرض، وهي المدة التي لا تكون فيها المركبة مارة في الأحزمة المشعة المحيطة بالأرض التي تسبب تداخلا مع أجهزة التحسس.

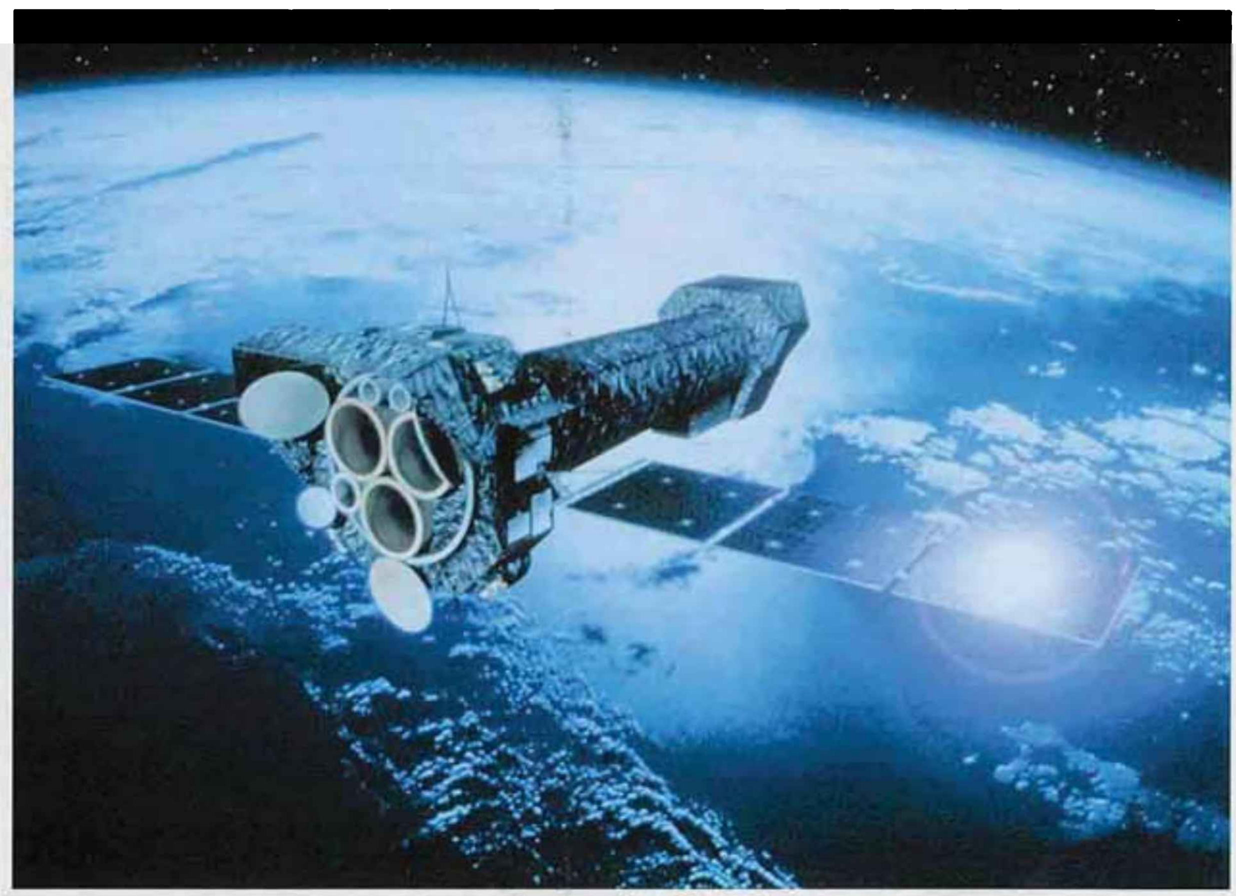
كما أن أنظمة التحكم بالوضع والمدار العالية الدقة التي يحملها هذا المرصد تمكنه من التركيز في الأجرام السماوية لمدة ١٢ ساعة متواصلة.

تم صنع المركبة XMM ـ نيوتن من قبل شركة ديملر كرايسلر أيروسبيس الألمانية، وهي بطول ١١ متراً وتزن نحو ٤ أطنان وتحمل ما يكفي من الوقود الدافع لما يزيد على ١٠ أعوام. كلف صنعها نحو ٧٠٠ مليون دولار، بينما كلفت عملية إطلاقها ١٥٠ مليون دولار موازنة بـ ٥ر١ بليون دولار لتطوير وكالة الفضاء الأمريكية ناسا للمرصد شاندرا، بينما تصل تكلفة تصنيع شاندرا وإطلاقه وتشغيله إلى ٧٨ر٢ بليون دولار.

والمركبة الجديدة هي جزء من برنامج وكالة الفضاء الأوربية ESA لإطلاق مراصد فضائية لرصد



صورة بألوان رمزية ملتقطة بجهاز EPIC لمجموعة مجرات هكسون ـ ١٦.



رسم تخيلي للمرصد XMM - نيوتن في الفضاء

السماء بأنواع الطيف الكهرومغناطيسي شملت المرصد الأوربي بالأشعة تحت الحمراء ISO الذي أطلق عام ١٩٩٥م، والمرصد بالأشعة تحت الحمراء العالية First والمؤمل إطلاقه عام ٢٠٠٦م، وسبق لأوربا إطلاق مرصدين فضائيين بالأشعة السينية هما Rosat الألماني في عام ١٩٩٠م وSAX الإيطالي في عام ١٩٩٦م.

ويذكر أن أهم مرصد فضائي بالأشعة السينية قبل إطلاق المركبة الأمريكية شاندرا والمركبة الأوربية الجديدة، كان المرصد الألماني Rosat الذي سجل أرصاداً لما يزيد على ١٠٠ ألف مصدر للأشعة السينية.

ويستفيد الأوربيون مما لاحظه الأمريكيون للمرصد شاندرا في سبتمبر/أيلول عام ١٩٩٩م. حيث لاحظوا أن الفوتونات أدت إلى إصابة أجهزة التحسس من نوع CCD في المرصد في أثناء مروره بالأحزمة المشعة حول الأرض، مما دعا المختصين في ناسا إلى تحريك هذه المتحسسات خارج المستوى البؤري عند مرور المركبة في الأحزمة المشعة.

وأدى ذلك إلى فقدان مرصد شاندرا لـ ١٠٪ من فاعليته العلمية، لكن هذا الضرر كان من الممكن أن يصبح أكبر لو كانت هذه المركبة لا تتمتع بهذا النوع من المرونة والإمكانات، لذلك فقد قرر مركز التحكم بالمركبة XMM - نيوتن في إسبانيا أن يتم إغلاق غطاء المرايا في أثناء مرور المركبة في نطاق الأحزمة المشعة المحيطة بالأرض لضمان حماية الأجهزة العلمية فيه.

تصميم النظام البصري لـ XMM ـ نيوتن

وتحمل المركبة XMM ـ نيوتن عدداً كبيراً من المرايا يبلغ ١٧٤ مرآة، تصل مساحة سطحها الذي يجمع الأشعة السينية إلى ١٢٠م٢، مما يجعله ذا حساسية أفضل من المرصد الفضائي الأمريكي بـ ٥ مرات على الأقل، مما يسمح له بسبر أفضل لمجاهل الكون من خلال ثلاثة تلسكوبات كل منها له ٥٨ مرآة، الواحدة داخل الأخرى، مما يجعله يجمع ٦٠٪ من الأشعة السينية، وعلى الرغم من كون مساحة المنفذ لكل واحد من تلسكوبات XMM هي ثلث مساحة المنفذ لتلسكوب شاندرا، إلا أن طاقة التجميع لكل تلسكوب تبلغ ثلاثة أضعاف طاقة التجميع لشاندرا، أو ١٠ أضعاف بتلسكوباته الثلاثة.

أما الجودة الخاصة لـ XMM فتأتي من استخدام عدد من المرايا المعدة بدقة للجمع بين السعة العالية مع التركيز الجيد.

بينما يتميز مرصد شاندرا بصور أكثر دقة بتمييز أفضل ١٠ مرات، مما يسمح له بتوفير تفاصيل أكثر دقة للأجرام الباعثة للأشعة السينية.

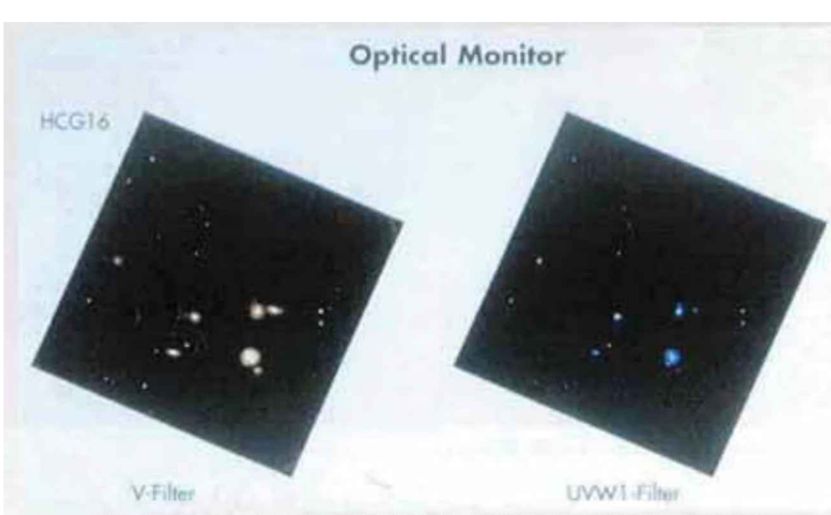
وكما هو الحال في شاندرا فإن المشكلة الكبيرة التي تواجه تصنيع التلسكوب هي منع تشوه المرايا في أثناء تركيبها، فهذه المرايا كبيرة بقطر يصل إلى ٧٠٠ ملم وبطول ٦٠٠ ملم، لكنها يجب أن تكون رقيقة.

وشأنه شأن المراصد الأخرى بالأشعة السينية، فإن عملية تركيز الأشعة السينية تتم من خلال مرايا تنحرف بزاوية صغيرة جداً عن الإشعاع الساقط عليها بدلاً من ٩٠ درجة بالنسبة إلى المرايا العاكسة للضوء المرئي، وهناك شرائح على شكل مخروط متراكز من المرايا لتركيز الأشعة في نهاية المخروط ليدخل ويعالج في أجهزته العلمية.

واستخدمت وسائل دقيقة لصقل المرايا بدقة ١ مايكرون، واستخدمت طريقة الترسيب الكهربائي لطلاء المرايا بالذهب.

الأجهزة العلمية في XMM ـ نيوتن

بعد تركيز الأشعة السينية في التلسكوبات الثلاثة تعالج هذه الأشعة في نوعين من الأجهزة العلمية هما أجهزة تصوير الفوتونات، ومطيافا الانعكاس الشبكي. ويحمل هذا المرصد إضافةً إلى ذلك مقراباً بصرياً يمكنه تصوير الأجرام بالأشعة فوق البنفسجية والتمييز بين ألوانها.



صورتان واحدة بالأشعة فوق البنفسجية وأخرى بالضوء المرئي ملتقطتان بجهاز OM لمجموعة مجرات هكسون ـ ١٦

ويمكن توضيح هذه الأجهزة بإيجاز كما يأتي:

ـ جهاز تصوير الفوتونات الأوربي European Photon Imaging Camera (EPIC): ويحمل المرصد XMM ـ نيوتن ثلاثة أجهزة من هذا النوع تعمل على التقاط صور بالأشعة السينية في كل من التلسكوبات الثلاثة العاملة بالأشعة السينية، ويحتوي كل جهاز سبع وحدات Charge Coupled Device وهي وحدات إلكترونية مصنوعة من أشباه الموصلات تعمل على تحويل الضوء حسب أطواله الموجية إلى إشارات كهربائية، وهي حساسة للأطوال الموجية (١ ـ ١٢٠ أنكستروم).

وتبرد هذه الوحدات بواسطة دائرة تبريد غير فعالة يتم فيها إشعاع الحرارة إلى الفضاء تحفظ هذه الوحدات بدرجة ١٠٠ درجة مئوية تحت الصفر.

ويقوم هذا الجهاز بتسجيل عدد الفوتونات المجمعة بالأشعة السينية، ويحتوي أنظمة إلكترونية لتحويل الإشارة التناظرية الواردة من وحدات التحسس إلى إشارة رقمية، وتمتاز الصور الملتقطة بهذه الأجهزة بأنها ذات مواصفات عالية.

- جهازا مطياف الانعكاس الشبكي Reflection Grating SPectrometer (RGS): يوفران



صورة بألوان رمزية ملتقطة بجهاز EPIC لسديم العنكبوت الذنبية في السحابة الماجلانية الكبرى

إمكانات متوسطة في تحليل الطيف، وقد وضعت مجموعة شبكية مباشرة خلف اثنين من مجموعات المرايا الثلاث بالأشعة السينية قبل أجهزة التصوير EPIC الثلاثة، وكل شبكة تلتقط ٥٠٪ من الحزمتين الضوئيتين المركزتين بالأشعة السينية.

ويتم تسجيل الطيف بواسطة تسع من وحدات CCD يحافظ على درجة حرارتها بـ - ٨٠ درجة مئوية على شكل شريط تختلف فيما بينها في تحسسها للأطياف المختلفة، وتغطي المدى ٥ - ٣٥ أنكستروم من الأطوال الموجية، ويحتوي الجهاز على أنظمة إلكترونية لتحويل الإشارة التناظرية الواردة من وحدات التحسس إلى إشارة رقمية.

ويستفاد من تحليل الطيف في جهازين مختلفين في حذف الأشعة السينية المتشتتة في خلفية الصورة، أو الناشئة عن تأثير داخلي في الجهاز، والتي تؤدي إلى تشويه الأرصاد الملتقطة.

- المرصد البصري Optical Monitor: يوفر صوراً مكملة للصور الملتقطة بالأشعة السينية للمدى ١٧٠٠ - ٦٠٠٠ أنكستروم بواسطة تلسكوب بصري بقطر ٣٠ سم له مرآة رئيسة بقطر ٣٠ سم تعكس الضوء إلى مرآة ثانوية، تعكسه بدورها مجموعة من وحدات الاستشعار بعد مرورها بمرشحة ضوئية.

وهذا الجهاز مزود بسبعة أنواع من المرشحات البصرية بالمدى المرئي وبالأشعة فوق البنفسجية، يحتوي كذلك على أنظمة إلكترونية لتحويل الإشارة التناظرية الواردة من وحدات التحسس إلى إشارة رقمية.

الصور الأولى من XMM - نيوتن

الصور الأولى من المرصد الأوربي بالأشعة السينية أظهرت بوضوح الإمكانات لهذه المركبة وأجهزتها العلمية وتم عرض الصور رسمياً في مركز XMM - نيوتن العلمي في فيلافرانس - إسبانيا.

هذه الصور تم التقاطها في الفترة من ١٩ - ٢٥ يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٠م في بداية عملية تهيئة الحمولة العلمية للمرصد، والتقطت المركبة صوراً لثلاثة مواقع: الأول منطقة واسعة من سحابة ماجلان، والثانية مجموعة هكسون النجمية - ١٦، والثالثة النجم المسمى HR 1099، وهذه الأهداف تم اختيارها؛ لأنها تمثل مصادر متنوعة للأشعة السينية النقطية والموزعة.

مرجل سديم العنكبوت الذنبية

سحابة ماجلان الكبرى، تعرف كذلك بـ سديم ميجور، هي بنصف قطر نحو ٢٠ ألف سنة ضوئية، وتبعد نحو ١٦٠ ألف سنة ضوئية عن الأرض، وهي واحدة من اثنتين من المجرات ذات الشكل غير المنتظم، والتي يمكن رؤيتها بسهولة وبالعين المجردة

في نصف الكرة الأرضية الجنوبي، وهذه المجرات تدور حول مجرتنا (درب التبانة).

الصورة الأولى التقطت بأحد أجهزة التصوير EPIC بالأشعة السينية، وأظهرت المنطقة المسماة ٣٠Doradus من السحابة الماجلانية الكبرى والتي تسمى كذلك سديم العنكبوت الذنبية، وهي مرجل تتشكل فيه نجوم مما تنفثه نجوم متفجرة من كميات هائلة من المادة والصورة تمثل درجات الحرارة حول مليون درجة مئوية، من الأجرام والأوساط المشعة، فاللون الأزرق يمثل اللون الأكثر سخونة، والأخضر متوسط السخونة، بينما يمثل الأحمر المنطقة الأقل حرارة؛ فالشكل الأبيض والأزرق الشبيه بالشرارة المتشكل قرب مركز الجرم الجديد كان غير معروف في الماضي لذلك فإن الباحثين يفسرون الصور الجديدة بأنها بقايا مستعر أعظم Supernova مع غاز ساخن متمدد يولد إشعاعًا بالأشعة السينية بسبب اصطدامها بوسط معين بين النجوم.

وفي الجزء الأيمن من الصورة تظهر بقايا النجم الذي تفجر والذي يعرف بـ Supernova1987A والذي سجل تفجره على الأرض في ٢٤ فبراير/شباط عام ١٩٨٧م وهو أول مستعر أعظم تتم مشاهدته بالعين المجردة منذ عام ١٦٠٤م (نجم كبلر) وبقيت بقاياه مرئية بالعين المجردة لنحو تسعة أشهر؛ أما أكثر مصادر الأشعة السينية سطوعًا في الصورة، وهو في أعلى اليسار منها، فهو بقايا مستعر أعظم آخر هو N157D.

أحد المختصين في تطوير أجهزة EPIC يقول «الصور الأولى مثيرة جدًا بعد جهد طويل استمر أعوامًا كثيرة، وهي كما كنا نأمل، ففي صورة السحابة الماجلانية الكبرى نحن نستطيع رؤية العناصر التي تتجمع لتشكيل نجوم وكواكب والتي جاءت من انفجار نجمي هائل، ويمكننا كذلك أن نرى تشكل نجوم أخرى من انفجارات نجمية سابقة، وهذا ما صُنع جهاز EPIC من أجله».

الأطوال الموجية لمجموعة هكسون ـ ١٦

مجموعة هكسون النجمية ـ ١٦ التي رصدت من جهاز EPIC وبالمرصد البصري بالأشعة المرئية وفوق البنفسجية، هي واحدة من مئات مجموعات المجرات المدمجة التي تم تسجيلها من قبل الباحث الكندي في مجال رصد الأجرام السماوية بول هكسون خلال الثمانينيات.

وكانت معايير هكسون في المجموعات النجمية تتضمن درجة الاندماج وانفصالها عن المجرات الأخرى، والمسافات فيما بينها، ومعظم نجوم هذه المجموعة هي نجوم خافتة، لكن من الممكن رصد عدد قليل منها بواسطة تلسكوب بإمكانات بصرية معتدلة.

المجرات في مجموعة هكسون ذات إمكانية عالية للتفاعل؛ وقد ألقت دراسة هذا الباحث الضوء على تأثير التفاعل في المجرة، وقدّم دراسة متأنية عن ظروف الجاذبية في هذه المجموعات ساعدت كذلك بصورة مهمة على تقديم التفسيرات لما يسمى بالمادة المظلمة Dark Matter وهي المادة الغريبة التي يفترضها المختصون بعلم الكون، والتي يعتقد الكثير من المختصين برصد الأجرام

تحليل الطيف لنجم HR 1099 بواسطة جهاز RGS

السماوية أنها تؤلف ٩٠٪ من الكون.

إن رصد الأجرام السماوية من الفضاء بالأشعة السينية والمرئية وفوق البنفسجية هو ميزة فريدة من المزايا المهمة للمرصد XMM - نيوتن فصورة EPIC أظهرت عدداً من مصادر الأشعة السينية الساطعة في خلفية لما يزيد على مئة مصدر أشعة سينية باهتة يتم كشفها بواسطة هذا المرصد أول مرة.



صورتان واحدة بالأشعة السينية وأخرى بالضوء المرئي ملتقطتان بجهاز EPIC وجهاز OM لمجموعة مجرات هكسون - ١٦ (المصدر ESA)

ظهر الكثير من مصادر الأشعة السينية كمصدر مشوش غير واضح المعالم يترافق مع ضوء المجرات، وفي هذه الحالة تتم العودة إلى الصورة بالأشعة فوق البنفسجية لتسمح للباحث بفهم أكبر لكل جرم، وتحديد نسبة السطوع لمصدر معين ترى بمرشحات مختلفة لتعطي انطباعاً عن درجة حرارتها ومركباتها الكيماوية.

واستخدام هذا المرصد في البحث عن المتغيرات من مصادر مثل هذه، يسمح للباحثين في تعرف الثقوب السوداء المختفية في مراكز كثيرة من المجرات.

HR 1099 وانطلاق سريع

HR 1099 هو سادس نجم سطوعاً وهو على بعد ١٠٠ سنة ضوئية من الشمس، وهو مرئي بالعين المجردة، وأظهر السطوع الهائل له بالصورة من أحد أجهزة EPIC ما كان محجوباً في الحقيقة.

فما ظهر من هذه الصورة أنه ليس نجماً واحداً بل هو نجم ثنائي (أي نجمان يدوران كلٌ منهما حول الآخر بمسافة قريبة نسبياً) فبينما تدور الشمس حول نفسها في ٣٠ يوماً فإن هذين النجمين يدوران الواحد حول الآخر في ٣ أيام.

وهذا الدوران السريع يكون مولدا عنيفاً مما يحرف المجالات المغناطيسية للنجمين في أشكال ملتوية وقياس هذه الظاهرة سيساعد على فهم الطريقة التي تؤثر فيها الشمس في الأرض والمجموعة الشمسية، وتوضح الأشعة السينية هنا أيضاً اكتشافات غير معروفة سابقاً.

اكتشاف العناصر الكيماوية

المعلومات الأولية التي جمعها المرصد XMM - نيوتن في المثالين الأخيرين اتخذت شكل الطيف، وقد وفرها أحد اثنين من أجهزة تحليل الطيف RGS. وكما يحدث في تحليل الطيف المرئي، فإن العناصر المختلفة تمتص وتشع في نقاط معينة وفريدة في الطيف الكهرومغناطيسي، وجهاز RGS يحلل ذلك ليوفر قوس قزح خاصاً بالأشعة السينية ليحدد طبيعة كل عنصر.

والطيف الذي حققه لـ HR 1099 مثال على ذلك. ففي أعلى المنحنى تظهر عناصر كثيرة في مصدر الضوء يمكن الاستدلال منها على وجود أنواع من الحديد والأكسجين والكربون والنيون، ومن هذه التحليلات يمكن تخمين درجة الحرارة، والكثافة، ونسب العناصر الكيماوية.

المراجع

١. نشرات متعددة صادرة عن وكالة الفضاء الأوربية ESA بتواريخ مختلفة عام ٢٠٠٠م.
٢. أعداد من مجلة Aviation Week & Space Technology بتواريخ مختلفة عام ٢٠٠٠م.
- مصادر الصور: وكالة الفضاء الأوربية ESA.



مليون ريال سنويًا لأربعة فروع

[الخدمة الوطنية - الثقافة - التعليم الجامعي - التعليم العام]

مقدمة من صاحب السمو الملكي الأمير

خالد الفيصل بن عبدالعزيز أمير منطقة عسير

فرع/ جائزة أبها للثقافة (٢٠٠,٠٠٠ ريال) ١٤٢٣هـ

مجالات الجائزة ومقدارها

١- الشعر الفصيح: شاعر لديه ثلاثة دواوين شعرية فأكثر مطبوعة (٣٥ ألف ريال).
٢- القصة القصيرة: كاتب قصة قصيرة لديه ثلاث مجموعات قصصية فأكثر مطبوعة (٣٥ ألف ريال).
٣- الرواية والمسرح: كاتب روائي أو مسرحي لديه روايتان أو مسرحيتان فأكثر مطبوعتان (٣٥ ألف ريال) و (تخصص هذا العام للمسرح).
٤- الدراسات الإنسانية والأدبية والعلمية: (الآثار) في المملكة العربية السعودية والمطلوب كتاب أو بحث علمي منشور (مطبوع) عن الآثار في المملكة العربية السعودية أو إحدى مناطقها (٣٥ ألف ريال).
٥ - الفن التشكيلي: فنان تشكيلي أقام ثلاثة معارض شخصية أو عشرة جماعية مع تقديم ثلاث لوحات لا تقل عن ٨٠ سم ولا تزيد على ١٢٠ سم من إنتاجه والوثائق المثبتة لذلك (٣٠ ألف ريال).
٦- التصوير الضوئي: مصور ضوئي أقام ثلاثة معارض فأكثر شخصية أو عشرة جماعية مع تقديم ثلاث صور (٦٠ × ٦٠سم) والوثائق المثبتة لذلك (٣٠ ألف ريال).

شروط وإيضاحات عامة

١- الجائزة مفتوحة للجنسين من السعوديين وأبناء دول مجلس التعاون الخليجي والعرب المقيمين بالمملكة.
٢- أن تتضمن الأعمال الفنية شيئًا من الجديد الذي لم يسبق عرضه.
٣- تقبل الترشيحات من الجامعات والأندية الأدبية وجمعية الثقافة والفنون وفروعها بالمملكة، ومن المراكز الثقافية المعترف بها، ومن الشخصيات الاعتبارية، ويجوز أن يتقدم الفرد بنفسه للترشيح.
٤- لا تقبل مشاركة من سبق له نيل الجائزة خلال السنوات الثلاث الأخيرة.
٥ - تُقدم سيرة ذاتية مفصّلة عن المشارك مع صور المستندات والوثائق المثبتة لها.
٦- ترفق ثلاث نسخ من الأعمال المقدمة.
٧- ألا تكون الأعمال المقدمة قد سبق التقدم بها لنيل جائزة أخرى.
٨- الترشيحات والأعمال المقدمة مع عنوان المتسابق كاملاً بما في ذلك الهاتف والفاكس ترسل أو تسلّم إلى أمانة جائزة أبها (نادي أبها الأدبي) ص.ب ٤٧٨ - هاتف: (٠٧٢٢٦٤٢٣٠) - فاكس (٠٧٢٢٦٢١٦٥)، وبالنسبة إلى الفن التشكيلي والتصوير الضوئي فتسلم إلى جمعية الثقافة والفنون بأبها هاتف (٠٧٢٢٥١٩٧٢) في موعد أقصاه يوم ١٤٢٣/١/١٥هـ وتتولى الأمانة التنسيق مع أمانة الجائزة فيما يختص بالتحكيم وأي ترتيب آخر ولا تعاد الأعمال المقدمة في حال الفوز، أما الأعمال غير الفائزة فبالإمكان استعادتها عن طريق الأمانة.

والله الموفق،،،

الرياض البكر

يحيى بن صديق يحيى حكمي
جازان - السعودية

ألا إنما يخضوضرُ التربُ بالندى
كما في القوافي يلثم البدءَ من بدا

ترنمت النجوى الكنارَ فأسمعت
زمانًا به يغفو تراتيلَه المدى

فأضحى خريفُ الليل وردًا ربيعه
خزامى، وأضحى الرملُ صرحًا ممردًا

إذا غرّد الصحوُ الجنوبيُّ يرتدي
به الشرقُ، نورٌ في عناقيده ارتدى

هنا ركعت روحُ القلالِ على الربى
جمالاً بأنفاس الليالي توحّدا

هنا في الرياض البكر ولْهى تنهّدت
مسافاتُها، عشقَ التجلي تنهّدا

تعطّرت الدنيا لها، ينثر الروى
تفرّدها، والشيخُ منها تفرّدا

هنا لغةُ الإبداع.. نهران أجريا
على موعدٍ، أجرت مع الفنّ موعدا

تفتّقت الصحراءُ تبرًا تقوبُه
صدى سحر «هاروت» تغنّى به الصدى

تجاوزت الأحلامُ غاياتها، فإنْ
سدٌّ وردُ فضِّ «داود» موردا

يُترجم عنّابَ الأصيلِ غروبَه
بفجرٍ.. بإفصاح الأماني تعدّدا

تهيمُ المطايا حملَه من روائع
جنوبيّة «الكاذي» «دروبيّة» الهدى



على رقصات النور يختالُ جيدُها از
دهارًا.. أفدي «جيدَها» لو همى الردى

هنا قلّد التاريخُ للأرض مجدَه
هنا زمنُ الكثبان غنّى وأنشدا

هنا عزفَ الإلهامِ أغرودةَ النُّهى
ففتّقها حرفًا غرامًا معمّدا

ألملمُ أوتارَ العرائس.. أمتطي
من الغيب وحيًا عن خيالي تمرّدا

تفيضُ المعاني ثورةَ الشعر في دمي
فأمتاح شعرًا من كياني تولّدا

فيا درّةَ الأكوان.. ما طار طائرٌ
ولا ناح ورقٌ غير سرّى وغرّدا

تعشّقك النُّوّارُ.. كنتِ السّنا له
وألفيتُ لفظ الكون حرفًا مجوّدا

غدوتِ لمن فلَّ السقامُ غصونه
دواءً وكنتِ النّدَّ لمّا تورّدا

السنونو والشاعر

نذير العظمة
الرياض - السعودية

على شرفتي يستريح السنونو
ويســـألني أين تمضي السنينْ
فتمـتد بالأخضر الرحب عينا
ي حـتـى أكـــون الذي لا يكون
هنا شـــاعـر لا يزول الشـجـا
بجنبيـه حـتى تزول القـرونْ
تـغـــرّب عن داره مـــرة
ومـــازال يرحل فـيــه الحنينْ
غريب، كريش الطيور خفيف
يطير وفي قلبه قـاسـيـونْ
متى يستقر على عتبة الدا
ر ينفض عنه الغبـارَ اليقينْ؟!
هل العــمـــر إلا يقين وشك
وما اختلفت فيـه هند وصينْ
سحابة صيف نظن بها القط
ر لكنهـــا أظمـــأتنا الظنونْ
ومـــا الناس إلا قـــصـــورهم
تبارت مـحـاكـمـهم والطعون
وكم من طعين بلا طعنة
وكم طاعن مـــا دراه الطعين؟!!
وكم من سطور على جبهة
ولكنهـــا لا تراها العـيــونْ
وكم من مـصـــائر مكتـوبة
بلا قلم أنكرتهـــا الجـــبين
هي الأرض مجبولة بالدماء
وفي أبحر الدمع ضل السفينْ!!
يصـــور قـــابيل أشكالهـــا
وتبدعها في المتاه الشجونْ
ألا أيهـــا الطيـــر كـيف تحلـ
ق تلك الربى والخوافي تخون؟!
وكيف ترفرف ملء الفضاء
وحولي يقوم الدجى والسجونْ
تعشش في سقف فلاحة
وأعلو كما امتد برج حصينْ
ونقلق من أجل حـــرية
ويقلقها خبزها والطحينُ؟!



فـــهل أنت إلا جناح وريش
وهل أنـا إلا ســـــراب وطينْ
تدبّ إلى الــعــــيش لـكنه
كما العقل عـشش فيه الجنونْ

ooo

أنـا والسنونـو على مـــوعـــد
نرف مــعًــا فـيـرف الفـتـونْ
نجيء مع الصـيف في فـرحـة
ونمضي إذا هلّ غـــيم هتــون
إذا أقـبل الليل نـأوي إلى العـيـ
ش يأخــذنـا للسكون السكون
على دورة القش أحـــلامنـا
تفـرّخ والشــمس قلب حنونْ
لنـا سـاعـة الدفء في نبـضنا
تـتـك، وتكاتـهـــــا لا تـبينْ
إذا اغــبــر أفقٌ تضــاحك أفقٌ
وراء الغــبــار فـغنّى الحـزينْ
نروح ونـغـــدو إلى ســعــينا
مع الشمس والضوء طيب ولينْ
ألا يا رفــيق الـفــضــاء تمهل
فـقــد كفّ جنحي جـرح ثـخينْ
فـهل أنت غـيــر امـرئ طائر
وهل أنـا في الأرض إلا سنونو
تطيــر وأمـــشي ولكنهـــا
تـقـــدر أقـــدارنـا والمنونْ!!
فــيـا أيهـا الطائر المتـمــرّ
د من عند حـتفه لا يستكينْ؟!!!
سَلِ الوردَ إمـا اكفـهرّ الشتـاء
أيبـقى على حلمـه الياسمينْ؟!!!

رثاء مالك

متمم بن نويرة *

لعمري، وما دهري بتأبين مالكٍ
ولا جزعٍ مما أصاب فأوجعا
لقد كفّن المنهالُ تحت ردائه
فتىً غير مبطانِ العشيّات أروعا
لبيبًا أعان اللبَّ منه سماحةٌ
خصيبًا إذا ما راكب الجدب أوضعا
أغرَّ كنصلِ السيف يهتزُّ للندى
إذا لم يجد عند امرئ السوء مطمعا
فعينيَ، جودي بالدموع لمالكٍ
إذا أرّدت الريح الكنيف المربعا
فتىً كان مخذامًا إلى الرّوع ركضه
سريعًا إلى الداعي إذا هو فزّعا
وما كان وقافًا إذا الخيل أحجمتْ
ولا طائشًا عند اللقاء مروّعا
أبى الصبر آياتٌ أراها، وإنني
أرى كل حبلٍ بعد حبلك أقطعا
وإني متى ما أدعُ باسمك لا تُجبْ،
وكنْتَ حريًا أن تجيب وتسمعا
سقى الله أرضًا حلّها قبرُ مالكٍ
ذِهابَ الغوادي المدجنات فأمرعا

فوالله، ما أسقي البلادَ لحبها،
ولكنني أسقي الحبيب المودّعا
تحيته مني وإن كان نائيًا
وأمسى ترابًا فوقه الأرضُ بلقعا
فإن تكن الأيام فرّقنَ بيننا
لقد بان محمودًا أخي يوم ودّعا
وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنا
أصاب المنايا رهطَ كسرى وتُبّعا
وكنّا كندماني جذيمة حقبةً
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرّقنا كأني ومالكًا
لطول اجتماعٍ لم نبِتْ ليلةً معا
فتىً كان أحيا من فتاةٍ حييّةٍ
وأشجعَ من ليثٍ إذا ما تمنّعا
وحسْبُكَ أني قد جهدْتُ فلم أجدْ
بكفّيَ عنه للمنية مدفعا
وقد غالني ما غال قيسًا ومالكًا
وعمرًا وجزءًا بالمشقّرِ أجمعا
ولو أنّ ما ألقى أصاب متالعًا
أو الرُّكن من سلمى إذًا لتضعضعا

الهوامش

* هو متمّم بن نُويرة بن جمرة بن شدّاد من بني ثعلبة بن يربوع من بني تميم. كان متممٌ قصيرًا أعور، ولكنه فارس معدود، قاتل بني تغلب في الجاهلية، ووقع مرة أسيرًا في أيديهم.

ودخل متمّم مع قومه في الإسلام، ثم كان هو وأخوه مالك عاملين للرسول على صدقات قومهما. فلمّا توفي الرسول وارتدّ عدد من قبائل العرب (أبَوْا طاعة السلطة المركزية في المدينة) ارتدّ معهم بنو حنظلة قوم متمّم ومالك ابني نويرة. ووجّه أبو بكر الجيوش لقتال المرتدين ووجّه إلى بني حنظلة خالد بن الوليد. ويبدو أن خالدًا كان سيئ السياسة فقتل مقتلة عظيمة من بني حنظلة، وقتل مالك ابن نويرة، ثم أحرقه في حديث طويل. وجاء متمّم يطلب من أبي بكر أن يثأر من خالد فلم يمكّنه أبو بكر من ذلك. وأعاد متمّم المحاولة في أيام عمر فلم يمكّنه عمر أيضًا من ذلك. مع أن عمر كان ناقمًا على خالد فعله هذا منذ أيام أبي بكر.

وعاش متمّم بن نويرة مدة بعد عمر بن الخطاب ورثاه، ولعلّ وفاته كانت نحو سنة ٣٠هـ (٦٥٠م).

[تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨١م، جـ١، ص٣٠١].

نص

غزالة النحاس

فوزية العلوي
القصرين - تونس

عمياء تماماً إلا من ضوء القدمين.

أتسلّق في غفلة النهار أبراج جرحك. ألنا الصاعدة إليك أم الوجد يعرج بي على إيقاع الصوت؟

سابع الأبواب مفتوح على البحر والنخل مغموس في دهشة الذهول والسماء حجر أزرق ليس يشبه إلا نفسه.

غزالة النحاس تربض في زاوية البرج ومتكآت مرمية هنا وهناك. طنافس الفردوس تلك أم مهدنا المسروق في غفلة الوقت؟ كم صعدت من أبراج؟! لا أدري...! لكأنها سماوات من بعدها سماوات والمجرات تسفح الضوء، وأنا مقرورة أو محمومة لست أدري كيف ألملم ما تكسّر من عمري على فلق الرخام؟ أصعد أم أنزل وصرير الأراجيح يدفع بي إلى حتفي. سأقول للعصي على القلب: لم تغلق دون نوارسي المرافئ. وقد تربت على رفيف هدبك؟ لم تفزع الظباء وأنت أجمات الخير، وعيونها أبداً معقودة بناصيتك؟ لم تفرق الضوء والشمس أنت ومالي سواك أتهجّى به الدّرب والعشي محيط. أصعد أم أنزل؟ أنزل أم أصعد؟ والبحر طام والأرض موّارة ولا فلك لي؟ كيف أهتدي وقواقع البحر تنحب من بعيد؟ والأمواج يبلغها نشيجي ولفح جوانحي فتزورّ، تضطرب، تتعالى ثم تنداح بلا روح وأنا لا روح لي إلا ما تبقى من النبض يوم رحيلك عني في جبل أنت منحته التسامق قنبا ورششت عليه فتنة اليخضور فزُفّت وارفات الصنوبر فيه إلى النور ورقص الدردار. زهور تلك أم نجوم أخطأت طريقها إلى السماء فاحتضنتها أرضنا المحصبة، أنحني، أتحسسها بأصابعي، أشتمّها، ريح من هذه؟ أو نشر الجنة أبيعت للواجدين أم ذكريات الفضة في مدينة هي أجمل المدائن. أصعد، أصعد، أشهق، أعرج، والأرض تنأى وعيني على قلبي أخاف لو أني أفقده في غمرة الوجد هذه فكيف ألقاك من دونه؟

نجم ونجم ونجم ولا قمر... قلت أمزورٌ هُوَ أمْ يعلم أنه لا يعنيني ووجهك مراق في ردهة الروح يضوع نوره فتتشربه أعضائي جميعاً حتى أخاف على نفسي من الاحتراق؟

أصعد أم أنزل؟ طرق خضراء ومفترق، أبواب، وسراديب ومشاعل خجولة ومتاريس وأصداء طرق وقمر يحترق على كفّ الأفق.

- من؟

- أنا!!

من شكّ الرمحَ المسموم في خاصرة الظبية؟

ما الذي أقعدها هناك؟ وأين صغارها تعطو إلى النجوم؟ معبر الضوء إلى العتمة هذا الرواق أم حكمة النسيان؟ أين أناي وصحائف من هذه التي تهب نفسها للبصر؟ كيف أبصرتها وأنا عمياء؟ أوراق بيض أم ندف الثلج أم نرجس ثمل على حافة الوقت؟ نار زرقاء تومض عند البحر وأصابع الفضة منقوشة على الورق. ماذا تقتفي؟ حروف الحكمة أم طلاسم الجنون؟ فتنة الضحك أم نار البكاء؟ والغزالة ترمقني مجروحة ولم أكن أقوى على الوقوف لأمسح خاثر النجيع تحت قائمتيها الأماميتين. من وهب الباهر

فسحة البرق هذه ومن أسدل ستائر النسيان؟

... البحر قريب فلم لا نُلقي بثقل الأوجاع فيه ونمضي إلى فلك غير ذي جرح؟

محتاج هذا الصدر إلى خوافي الزبد الدافئ الحنّان، والشفاه مترعة برحيق المرجان وسلاف التمر، والقلب في طرب من بعده طرب من فوقه طرب والأذرع تصارع خرير الماء فيصرعها. تنداح تذوب تحت ضمة الموج المفضي بها إلى برزخ الروح.

... والمرايا محيطة بنا كالمجرة... كيف نسيت المرايا؟.... انظر نفسك في صفاء لؤلئها. انظر المرآة في صفاء نفسك.

أفق آخر مفتوح على جنتنا ولم نفطن؟!

أم صفاء القلب لمّا شفّه الوله استحال حريراً وفتنة «ساتان»؟ حدّق ما أبهانا!!.

ما أروع طفلينا فينا، وأعناق النرجس مائلة على بعضها تتعاتب، من أين لك كل هذا البهاء ولي؟ ماذا اللوتس الطالع من عمق المرآة؟ ماذا الفل العبق المفعوم؟ ماذا النيلوفر المرتبك؟! وما لي ثملة ورحيق الكهرمان يزغرد في حلقي؟ وأوصالي ترق فتئن. كعيدان أصفهان؟ يناديني الباب أن أخرجي فها تعالى المدّ وإني أخاف عليك الطوفان، ومن أين الشبح لي، والذراع على أختها معقودة تتراشف معها قهوة الوقت الذاهل عن عمره؟

أتهجى الطريق إلى الباب... ترمقني غزالة النحاس الرابضة في زاوية الحصن المسحورة تناديني، لا تغادري ودمها ينزف. تثقل أوصالي، يهرب مني الباب والسكر يتعتعني والزمان بلا معنى. أعود إلى الغزالة. جرحها عند الرقبة. أنحني ألثم الرقبة.. ريح الجنّ هذه أم خزامى النسيان؟ ألثم ما تحت الرقبة. حبة توت سوداء. يحترق لساني بمذاق العسل المسبي في الغارات المستحيلة.

دمٌ هذا أم شهدٌ؟! أدخل جرح الظباء.

ضميني يا غزالة البرج فمثلك أنزف ولا عشبة تضمد جرحي... يدُه؟! قلت، آه ليَده.. أوَ لَمْ تعلمي أن يده رامت الرحيل بدوني وسبتها مرافئ خادعة. حمامة الأيك كفّهُ، طارت إلى دوحة الوهم. نسيت دوحي وصدري وأراجيح التوت في فرعي. نسيت رمان القلب منثوراً من أول البوح إلى آخر الجرح، نسيت مواويلي وحداء الهزيع الأخير من الوجد. وتفاصيل الرحلة الخارقة. حمامة الأيك ظننتها لا تكن إلا في دوحة الروح ولا يعتريها الهديل إلا إذا توسدت خافق الضلوع أتراها.. عششت في شجر غريب طعمه صابٌ وقد ظنّته رحيقاً.

رمقتني الظبية وقد شعّ إهابُها. أمرتني أن كفّي عن كل هذا العتاب. فها ذه يمامة الرّوح عند الدّوح شاخصة والعين شاخصة والصدر في فرق فخذيها إليك ولا تسرف في العتب. فكلانا مكلوم قتيل وكلانا عبد الوقت لا يعلم إن كان يصعد أو ينزل والأبواب في مفترق الطرق ضالة مضلة والرمح مغروس في الخاصرة فهلا سللته وأرحتني.

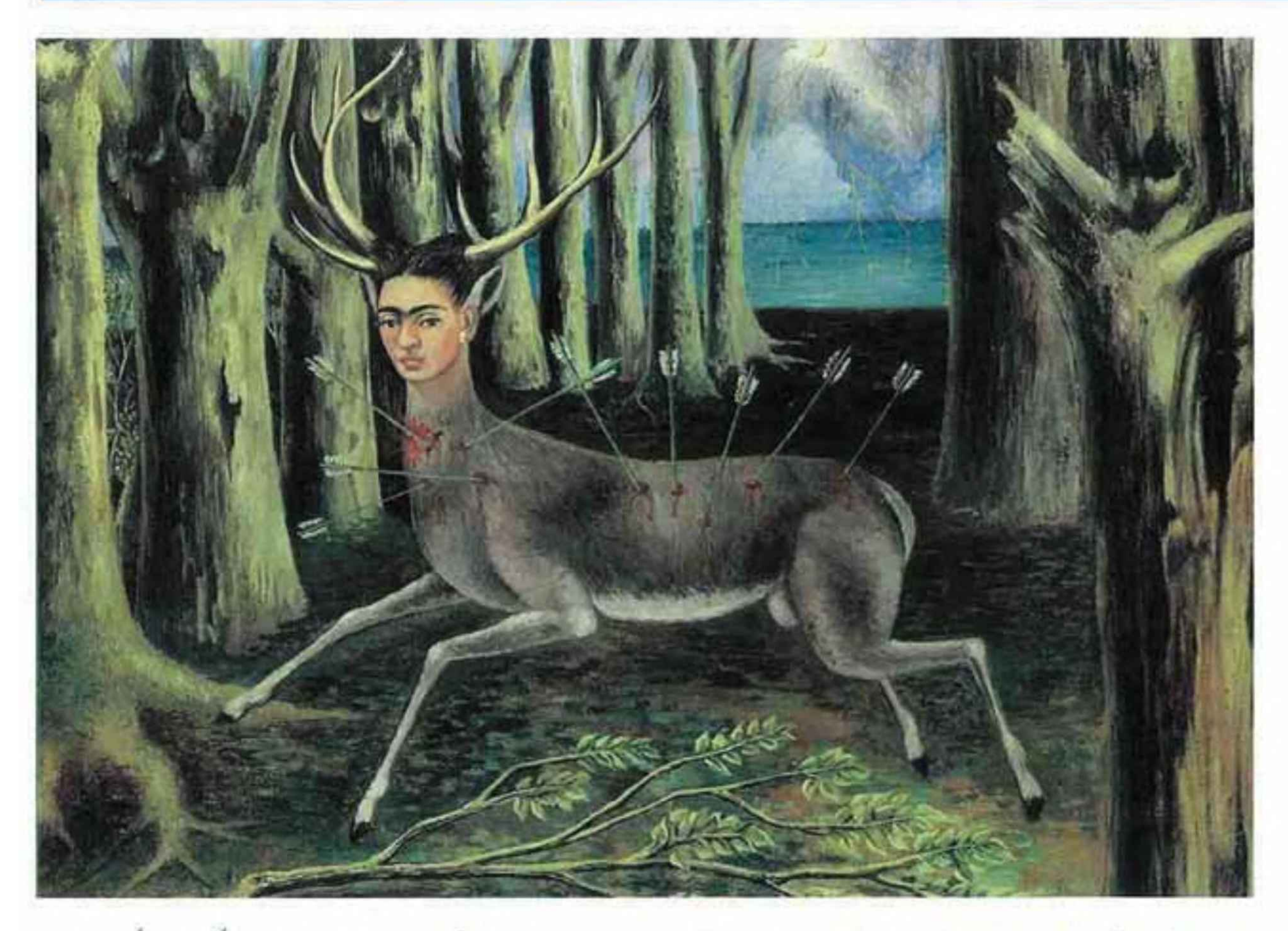
مشيت إلى الظبية والأرض من تحتي تمور والبحر يرغو وصخبه آكل أوصالي. لمست الجلد اللامع. التهبت كفّي، قلت لابُدّ من جلد أو أنزع هذا النصل المسموم وأجفف الدم النّازف وأزيح ما تخثّر منه على صفحة الرّخام. حاولتُ أن أوقف الغزالة على قائمتيها الأماميتين، ارتعشت ثم انهارت. حاولت تحسس الرمح عند خاصرتها فلم أجد له أثراً.

قلت: من نزعهُ؟ ولِمَ الأنين إذن والجرح سيندملُ؟

قالت، هو في الروح منغرس ولا أظنك بالغته.

قلت: هي مثلي إذن فمن أين لي بمن يبلسم كلوم الروح؟ أزّت ريح لسؤالي والتمع البرق والبحر طمى والقواقع اضطربت ونجوم البحر ضجت وأنتَ عتوتَ، وأنا غزالة النحاس الجاثية عند قدميك. أقف والضوء في عينيك يدعوني إلى الماء والصدى قاتلي. أقف ترمقني الغزالة.

طيفان ها هنا منبجسان من لؤلؤ اللحظة، ملتصقان



في شاهق المجرات، ملتحفان ورق التوت منهمران كغيمة مرهقة. محترقان كهشيم الزرع. قمران أبيضان في أفق أبيض منزرعان هكذا بلا سماء بلا أسماء. النبض وحده الاسم فهل يكذب النبض أو يراوغ دم الخلايا؟ وأي خلايا؟ خلايا الماء أم النار أم خلايا الطين تتخلق ساعة الفرح الأول.

يمتلئ فمي بزلال الماء، ينهمر صدري بالياقوت. أنا الموعودة بالسعد، أنا المفعمة بالزنبق، أنا الدهشة الأولى، أنا أوار القرنفل، أنا لذة الزجاج، أنا عنب الليل القصي، أنا فتيت الصندل والمسك، أنا الجازية، أنا الكاهنة، أنا أميرة قرطاج، أنا مالكة حضرموت.

المرآة تضحك من جنوني ومن هذري.

تضحك بملء ضوئها. أنا في المرآة نحن في المرآة طيفان منخطفان.

زجاج المرآة يسيل، يتجدول. أشرب أشرب. عطشي يشتد والقمر في البرج محترق. تتداخل العناصر يتمزق المكان ويتلاشى الزمان، تهبّ غزالة النحاس من رقدتها. تقف على قوائمها شديدة صلبة كمهرة الريح. لا أثر للجرح عند الرقبة. والدم المتخثر فوق صفحة الرخام تبخّر... أتقدم أكثر، أنحني، أقبل فجر الرقبة... ضوء العتبة.

عنب أسود مسفوح وتوت منثور كالعنبرة ينفتح الصدر على مصراعيه يهويني، أمضي في أفيائه الوارفة أحلّ في دمه، أصيره، يصيرني... آه... ليتني كنت مريم! تلتفت الغزالة، تسألني: ناديتني؟!!

أقول: هل أنتِ مريمُ؟!

تومئ برأسها وتطير. والفجر الأزرق انتثر على الورق المكتوب كدنانير الماء.

يوماً ما

هنري لوسون

ترجمة: يوسف عبدالعزيز

أسوان - مصر

ظل المسافران يتحدثان حتى وقت متأخر من الليل في المكان الذي استقرا فيه. كان القمر آخذًا في النزول شيئًا فشيئًا خلال المدى المترامي، وكان رفيق ميتشيل قد انتهى لتوه من سرد حكايته المكشوفة إلى حد ما، ولكن بدا أنها لم ترق ميتشيل الذي كان في حالة نفسية لا تسمح بذلك.

أخذ ميتشيل عدة أنفاس من غليونه، ثم تأمل لحظة وقال: «منذ سنين كنت مغرمًا جدًا بفتاة كانت تأتي إلى منزلنا لزيارة أختي، كانت أجمل فتاة في الدنيا، كان عمرها ثمانية عشر عامًا، وطولها لا يصل إلى مستوى كتفي، عيناها الزرقاوان أوسع عيون رأيتها في حياتي، وشعرها بني لامع يصل إلى ركبتيها، وكثيف جدًا بحيث لا يمكن أن تقيس عرضه بكلتا يديك، أما بشرتها فكانت تشبه الزنابق والورود.

بالطبع لم أتصور أنها ستنظر إلى شخص وحشي جاهل وقبيح مثلي، لذلك اعتدت أن أبتعد عن طريقها كلما جاءت، وأتصرف معها بنوع من الفتور. لم أرد أن يعرف الآخرون أنني أحبها، لأنني كنت أوقن أنهم سيسخرون مني، وربما تسخر هي مني أكثر من الجميع.. كانت تأتي وتتحدث إليّ، وتجلس بالقرب مني على المائدة، لكني كنت أعتقد أنها تفعل ذلك من منطلق طيبتها، وأنها تشفق علي فقط، لأنني ذلك الشاب المعقد الجاف. حقيقة، لقد همت بهذه الفتاة، وبلا مزاح: كنت أشعر بالاعتزاز كثيرًا عندما أتذكر أنها ريفية مثلي، لكنني لم أدعها تعرف ذلك، لأنني كنت أشعر أنها ستسخر مني بالتأكيد.

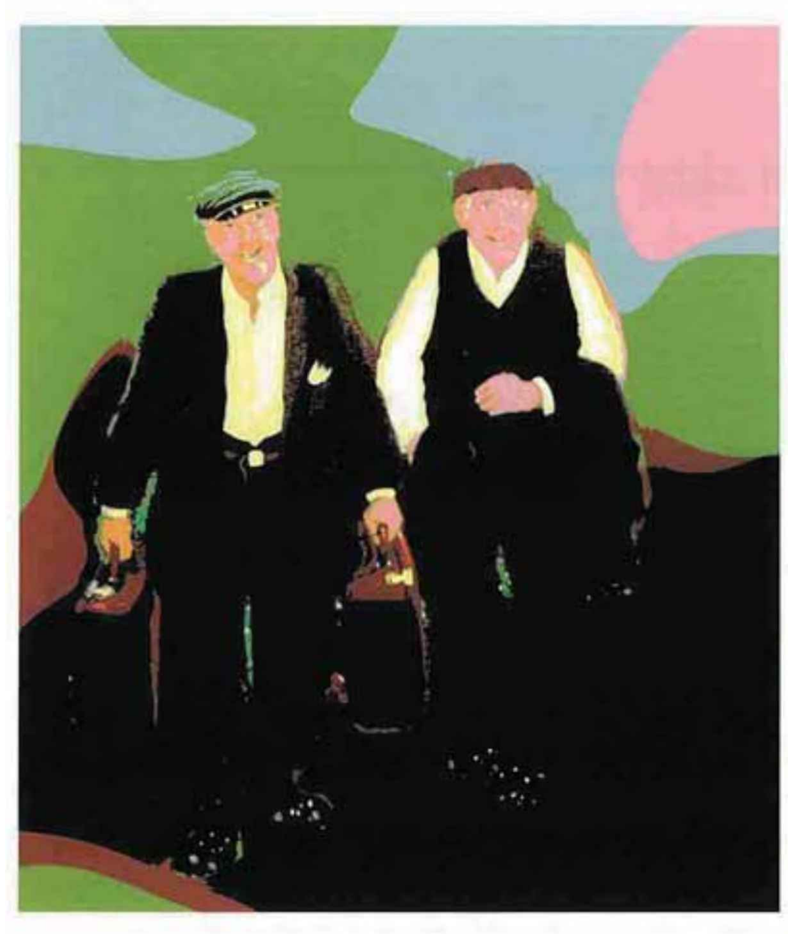
على كل، مضت الأمور في مجراها، إلى أن حصلت على عرض للعمل لمدة عامين أو ثلاثة في محطة قريبة من الحدود. وكان عليّ أن أذهب لأنني كنت في حاجة إلى المال، إلى جانب أنني أردت أن أبتعد لأن رؤيتها لم تكن سوى زيادة في أحزاني.

وفي الليلة التي غادرتُ فيها، جاء الجميع إلى محطة السكة الحديدية لكي يودعوني؛ بما فيهم الفتاة التي أحببتُها. وعندما كان القطار على أهبة الانطلاق، رأيتها تقف بمفردها بعيدًا في الجانب المظلم من الرصيف. ظلّت أختي تلكزُني بمرفقها، وتعابثني، ولكنني لم أفهم ما كانت تقصده، وفي النهاية قالت: «اذهب وكلّمها أيها الأحمق، اذهب وسلم على إيدي Edie».

لذلك ذهبت إلى حيث كانت تقف، وعندما أدار الآخرون ظهورهم، قلت مادًا يدي إليها: «إلى اللقاء يا آنسة براون، لا أظن أنني سأراك مرة أخرى، الله وحده يعلم متى سأعود، أشكرك على مجيئك لوداعي». عندئذ أدارت وجهها ناحية النور، فرأيتها تبكي، وجسمها يرتجف، وفجأة أخذت تصيح: «جاك! جاك!، ومدّت ذراعيها هكذا». ثم مدّ ذراعيه فيما يشبه العناق.

كان ميتشيل يتحدّث بنبرة كأنها ليست صادرة منه، كان رفيقه يتطلّع إلى وجهه المهيب، وعينيه الشاخصتين إلى النار المشتعلة في كومة الحطب.. سأله رفيقه: «أظنّك عانقتَها وقبلتَها بحرارة في تلك اللحظة؟!»

ردّ ميتشيل باقتضاب: «أظن ذلك. ثم إنّ هناك بعض الأمور التي قد لا يريد الإنسان أن يمزح فيها. لا بأس. أرى أن ندفع بأحد الأكواز(١) في النار، ونتناول كوبين من الشاي قبل أن ننام».



وبينما هما يشربان الشاي، قال رفيق ميتشيل: «أعتقد أنك ستعود وتتزوجها يوماً ما». رد ميتشيل: «يوماً ما! فعلاً! يبدو أنه كذلك. أليس كذلك؟!. كلنا نقول يوماً ما!» . كلمة اعتدت أن أقولها منذ عشر سنين، ولتنظر إلى حالي الآن. ظللتُ أضرب في الأرض خمس سنين، وفي السنتين الأخيرتين صرتُ مقيداً بالعمل على الطريق، ولا أمل في ترك هذا العمل، إلا بالذهاب إلى أفضل منه، وماذا بيدي كي أحصل على العمل الجيّد؟ من الصعب أن أعود إلى البيت وأتزوّج من دون قرش في جيبي أو ملابس جديدة، ولا حيلة في الحصول على ذلك كما تعلم. لقد أقسمتُ ألا أعود إلى البيت من دون مال، وما عدا ذلك فلا. ولكن أين هي أيام المال؟ لقد أصبحت في عداد الذكريات.

انظر إلى ذلك الحذاء! لو تجولنا في المدينة لقيل: إننا متشردون ومتسولون، وما الفرق؟! أعرف أنني كنت غبيًا في اختياره، لكني دفعتُ فيه ثمنًا، عموماً.. لم يبق للمرء سوى أن يتسكّع ويتسوّل به من أجل أن يشتري أحسن الملابس، ويظلّ يتسوّل حتى تكبر سنُّه، ويصبح مهملاً وقذراً، ثم يشيخ ويصبح أكثر إهمالاً وقذارة، ويعتاد التراب والرمال، والحرّ والذباب والبعوض، تماماً مثلما يفعل أيّ ثور، ثم يفقد الطموح والأمل، ويقنع بمثل هذه الحياة الحيوانية ككلب، وحتى يصبح خُرجه(٢) جزءاً منه، ويحسّ بأنه تائه ومضطرب وخفيف الأكتاف من دونه، ولا يبالي إذا كان سيجد عملاً آخر أم لا! أو حتى يعيش كآدمي، ويبقى في هذه الحال حتى تحلّ روح الحيوان محلّ روح الإنسان فيه.. تُرى من يهتم به عندئذ؟!.

لو أننا لم نجد عملاً على الطريق أمس، ربما كنّا متْنا وتعفّنّا في هذا القفر.. من يدري؟ وربّما يجدنا أحد في النهاية، لكن قد يكون الأمر غير مُجْد عندئذ أن يترك شؤونه ويذهب للإبلاغ عنّا.. اللعنة!. وأخذ ميتشيل يدخّن لحظات في صمت موحش كئيب، ثم أفرغ غليونه من الرماد، وتنهّد قائلاً: «على كلٍّ، أنا متعكر المزاج قليلاً الليلة، أعتقد أنه من الأفضل أن ننام أيها الرجل العجوز، فإنّ أمامنا غداً طريقًا طويلاً وجافًا». وفرشا خُرجَيْهما على الرمال، ثم رقدا، ولفّ كلّ منهما جسده ببطانيته، وغطى «ميتشيل» وجهه بقطعة من القماش، لئلا يوقظه ضوء القمر.

الهوامش

١. مفرده «كوز» وهو إناء معدني يشرب به الماء.

٢. الخرج: وعاء من قماش ذو شقين، يحمل على الكتف أو على الدابة.




تعقيبًا على:

إمارات إسلامية في مدغشقر

يوسف شلب الشام

في العدد (٢٩٦) من مجلتكم «الفيصل» نشر موضوع «إمارات إسلامية في مدغشقر» للأستاذ يوسف شلب الشام. ويعالج الموضوع قضية مهمة في ثقافتنا العربية هي ضعف الاهتمام بما يسمى «الأطراف»، وهي تلك المناطق التي تقع بعيدًا عن مركز الحضارة الإسلامية. وقد شهدت إفريقية نشأة دول إسلامية تفاوتت في حجمها ودرجة قوتها في غرب القارة وشرقها ووسطها. وعندما رحل العلامة المصري الدكتور صبري السربوني - رحمه الله - تاركًا مؤلفًا مخطوطًا يتجاوز ألف صفحة عن حضارة العرب في الكونغو، وباللأسف الشديد لم ير كتابه النور. وشهدت منطقة شرق إفريقية دولة البوسعيديين التي كان مركزها منطق تنجانيقا وزنجبار، ومازال آثارها ماثلة تشهد على وجود عربي قوي رحل وبقيت آثاره. ولئن كان الكاتب قد بذل جهدًا واضحًا في استخلاص صورة هذه الجزيرة النائية، إن ثمة ملاحظات ينبغي إبداؤها:

أولاً: إن الكاتب اعتمد على ثلاثة مراجع فرنسية، ولم يكن مسؤولاً - بالطبع - عن غياب مرجع عربي لتاريخ الجزيرة، غير أنه مسؤول - بغير شك - عن تبنّي تحيزات المؤرخين الفرنسيين، إذ انتقلت هذه التحيزات نتيجة النقل عن هذه المراجع دون التوقف عند تحيزات أصحابها لتحييدها. ولعل أكثر هذه التحيزات وضوحًا، وصف الحاكم الذي تولى نقل أنماط الحياة الغربية بأنه «كان أكثر تبصرًا بالمستقبل» ص٣٢، ويبرهن الكاتب على ذلك بأنه رأى أن السبيل إلى مقارعة الأطماع الاستعمارية هو في السير في مضمار الحضارة الغربية. وقد يكون هذا الحاكم نفسه معذورًا في هذه الفترة من التاريخ التي كان الغرب فيها يقهر عالم الجنوب، وكانت قدراته التنظيمية والعسكرية تصيب النخب الثقافية بالصدمة والإحساس بالعجز. أما الآن بعد أن قطعت أمم كثيرة من الجنوب شوطًا طويلاً في نقل نمط الحياة الغربي وأساليبه في التنظيم الاجتماعي، وما تؤكده هذه التجربة أن «التغريب» لم يؤد إلى «التحديث». فتجربة الغرب جزء من سياق حضاري مختلف، ومع نجاح التجارب التنموية في آسيا صار النظر إلى الغرب بوصفه «مركز العالم» موضع شك قوي. وفي العالم الإسلامي بالتحديد أدى التغريب إلى تبعية الدول، وشقاء المجتمعات، وترسيخ التخلف، ولذا فإن الكاتب جانبه التوفيق عندما تبنّى هذا المنطق.

ثانيًا: في السياق نفسه الذي تحدث فيه الكاتب عن التغريب وضع تعلُّم اللغات الأجنبية ضمن مجموعة من الإجراءات التي يراها إيجابية، وهي بالفعل كذلك، ولكن كلغات أجنبية لا كبديل عن اللغة الوطنية. ففي السياق نفسه يضيف أن هذا الحاكم تخلى عن الحرف العربي، وكتب اللغة الملغاشية بحروف لاتينية و«لما توفي إداما كان قد وضع البلاد على عتبة حضارة جديدة» ص٣٢، فهل التخلي عن الحرف العربي مؤهل لدخول نادي الحضارة؟ إن التخلي عن الحرف العربي والكتابة بحروف لاتينية طُرحت كفكرة، وطُبِّقت بالفعل في عدة دول، لعل أشهرها

تجربة أتاتورك في تركيا. وغني عن البيان أن تخلي أي أمة تدين بالإسلام عن الحرف العربي، يبني حاجزاً بين الناس وكتابهم المقدس، فهل أدت عند تطبيقها إلى تحقيق التقدم؟ إن تعامل الكاتب، بدا محايداً وهو يصف هذا التحول، متأثراً بأفكار تغريبية عن اللغة العربية بوصفها عاجزة عن استيعاب المتغيرات التي تستجد.

ثالثاً: بتأثير المصادر نفسها اختصر الكاتب سيطرة الاستعمار الفرنسي على البلاد في عبارة هادئة: «وأبدى الملجاشيون شجاعة كبيرة في القتال، ولكنهم أخذوا على غرة عندما تمكن لواء فرنسي سريع من الوصول إلى العاصمة»ص٣٣. مع أن حقيقة الأمر أن استيلاء فرنسا على مدغشقر لم يكن نتيجة حرب بالمعنى المتعارف عليه؛ بل جاء عقب مجزرة بشعة راح ضحيتها آلاف المدنيين، ولم تراع فيها قوانين الحرب. فحسب مصدر «فرنسي» أيضاً هو كتاب «تمجيداً للسيف» الذي أصدره فيني دوكتون عام ١٩٠٠م، وهو أحد القادة العسكريين الذين حكموا هذه الجزيرة حسب هذا المصدر:

«كانت البارجة [موربريز] تنتظر قرب الشاطئ إلى وصول الفرقة، وقد جاء عميل وكالة السفريات البحرية «المساجيري ماريتيم» في مورونداف إلى مصب نهر (تسيريبيهين) تلبية لدعوة ضابط الفرقة. إن هذا العميل هو السيد «ساما» الذي كان يسكن البلاد منذ سنوات طوال، كان يعرفها تمام المعرفة، وكان معروفاً فيها، وله علاقات تجارية مع السكان داخل البلاد، يثق به (السكالافيون)*، وكان مرتبطاً بصورة خاصة برباط الدم مع زعيم إقليم دامبيك الملك توير. وفي مدغشقر يجري تكريس أخوة الدم بين شخصين في احتفال مهيب تحف به بعض الرسميات. يُجرح الصدران، وتمتزج الدماء، ويشرب الأخوان من المزيج، وهكذا يكون كلاهما مديناً للآخر، منذ هذا الاحتفال، بالإخلاص المُتبادل، والحفاظ على العهد».

«وأهل مدغشقر يحترمون هذا الميثاق، ويعتقدون أنه ليس بالإمكان خرقه بارتكاب عمل غادر. ذهب السيد (ساما) إلى أمبيك، أما البحار حامل العلم (بلوت) فقد رحل في الوقت نفسه مع بعض البحارة عن طريق نهر (تسيريبيهين). ولقد أقام الملك ضيافة باذخة لهؤلاء السادة، وكذلك البحارين والحمالين والخدم الوطنيين الذين كانوا يرافقونهم. وكان الملك يثق ثقة تامة بأخيه (ساما) فبحث معه كيفية إعداد استقبال عظيم للقومندان الذي أعلن اقترابه من ذلك الإقليم. وفي سبيل إضفاء أهمية أكبر على الحدث، دعا الملك (توير) إلى أمبيك جميع وجهاء الإقليم، وأبرز الوجوه من جيرانه، وجاء هؤلاء مع راياتهم ومع الكثير من الموسيقيين وقارعي الطبول، فكانوا ينشرون في الاحتفال جواً من الحماسة والمرح».

«وفي صباح ٢٩ آب/ أغسطس علم قائد البحارين (بلوت) والسيد (ساما) أن الفرقة الفرنسية قد وصلت إلى مسيرة ساعتين فقصدا إلى معسكرها. وكانا يظنان أنهما سوف يعودان في اليوم نفسه إلى أمبيك... وعند اجتماعهما بالقومندان (جيرار) أنبأاه بالموقف الطيب في البلاد، ولكن القومندان وكأنه لم يفهم أقوالهما، نبه قائد البحارين أن عليه، في اليوم التالي، أن يشترك في الهجوم مع بحاريه. لقد بدأ الجنرال (غالياني) حملته بضربة موفقة، وكان القومندان (جيرار) يريد أن يؤكد بضربة مماثلة استيلاءه على «مينابي»، فصرخ (بلوت) ورفيقه محتجين ظناً منهما أن ثمة سوء تفاهم. وعندئذ كرر القومندان أوامره بلهجة حاسمة لا تقبل الرد، وبالإضافة إلى ذلك أمر أن يسجن التاجر وقائد البحارين في المعسكر، لكي يمنعهما من العودة إلى المدينة وإنذار السكان. وبعد لحظة جاء الملك «توير» بدوره راجياً تقديم فروض الولاء، فرفض (جيرار) استقباله، وأمر أن يُجاب بأن القومندان سوف يحمل بنفسه الأوامر إلى المنطقة».

«وفي منتصف الليل بدأت الجيوش تسير، وكانت تتقدم سراً عبر الغابات والأدغال الكثيفة الواقعة قرب أمبيك، وأحاطت بها في صمت. واحتلت المدفعية موقعاً تستطيع منه، عند اللزوم، تدمير المدينة وسحقها. وفي الصباح الباكر، ومن ست جهات معاً دخل المهاجمون إلى المدينة النائمة. واقتحم السنغاليون المنازل وبدأت المجزرة. والسكان، وقد فوجئوا بالهجوم، ودون أن تكون لديهم وسائل للمقاومة، ذهبوا جميعاً ضحية الحراب. وخلال ساعة، ظل أولئك الذين لم يُقتلوا من الضربة الأولى، يحاولون الفرار.

وكنا نراهم وفرقنا السوداء تطاردهم مسربلين بدمائهم التي تسيل من جراحهم الطرية، يركضون كالمجانين، ثم يدركهم الجنود ويطعنونهم مجدداً، فيدوسون مترنحين على أجساد رفاقهم، أو ينطلقون ليموتوا على حد الأسلحة الفتاكة التي يحملها الجنود الاحتياطيون الكامنون على الأبواب».

«والملك (توير) والوجهاء وجميع السكان سقطوا جميعاً تحت طلقات الرماة في تلك الصبيحة. وكانت الأوامر قد صدرت إلى الرماة بألا يقتلوا سوى الرجال، ولكن حين تجاوزوا هذه الأوامر لم يردعهم أحد، فقد أسكرتهم رائحة الدماء، ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً.. وحين ارتفعت شمس الضحى، لم تكن المدينة سوى كومة فظيعة من الجثث يهيم الفرنسيون في أثنائها، وقد أجهدتهم كثرة الضرب. وكان ثمة عدد منهم يحس بأنه يكاد يختنق من الخجل، وكان أولئك هم بحاري (السوربريز) الذين كانوا، على الرغم منهم، السبب في اغتيال الناس الذين احتفوا بهم في الليلة السابقة وأضافوهم».

«وعند الأصيل ارتفع ضباب خفيف بسبب الحرارة، وكان هذا هو دماء الضحايا الخمسة آلاف، وروح المدينة التي تتبخر عند المغيب، وحين انسدلت ظلمات المساء، كانت تخرج آهات تُصعِّدها شفاه الجرحى الذين أجهز عليهم إجهازاً سيئاً... وحسب أحد الفرنسيين فإن الأعمال التي قام بها الجيش أضحت كافية، فطلب الإذن بالسماح له بإنقاذ الجرحى فلم يحصل على هذا الإذن. وفي الليل مات الجرحى».

تلك ملامح الغزوة الاستعمارية الفرنسية على مدغشقر، وهي صورة خطها قلم فرنسي لم يصف إبادة المدنيين بأنها حرب، وتؤكد عباراته أن الجريمة امتدت إلى الجرحى الذين تُركوا ـ عمداً ـ ليلحقوا بالقتلى.

ممدوح الشيخ

المنوفية ـ قويسنا ـ ١٤٥ شارع الجلاء ـ مصر.

الهوامش

• كان في جزيرة مدغشقر إمارتان مسلمتان هما: بوينا وميناسي، والسكالافا هم المسلمون.

ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات ردود وتعقيبات

تصويبات واستدراكات حديثية

الحج صياغة عميقة ليُسر الشريعة

نشرت لنا مجلة الفيصل «الأثيرة» الغراء تصويبات واستدراكات حديثية في عدد شعبان ١٤٢١هـ وقد دفعني الحرص على الأحاديث النبوية الشريفة والسنة النبوية المطهرة وكذلك قيام المجلة بنشر «التصويبات والاستدراكات الحديثية» التي نكتبها إلى مواصلة الكتابة في هذا الصدد بعد قراءة متأنية جداً للموضوعات الدينية التي تحمل في طياتها الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة خاصة.

وفي أثناء قراءتي المتأنية لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ رقم (٢٨٢) بدت لي الملاحظات الآتية التي تستوجب التصويبات والاستدراكات.

أولاً: في موضوع «من البيان النبوي» ذكر الكاتب حديثاً نبوياً في مجال الاستشهاد على صور البيان النبوي. ومن عجب أنه لم يخرّج هذا الحديث الذي بنيت عليه المقالة برمتها. وكان ينبغي تخريج الأحاديث وتحقيقها إذ إن المقام هنا مقام استشهاد على البيان

النبوي، ولذلك وجب التبيين والاستيثاق عن الحديث الذي تدور حوله المقالة خاصة، وعن باقي الأحاديث عامة.

والحديث الذي استشهد به على البيان النبوي هو «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لايقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها» انتهى بنصه دون تخريج علمي وتخريج الحديث كالآتي:

- خرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام(٣٠).

- خرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، وذلك من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه(٣٧).

- خرجه أبو داود برقم (٤٨٢٩).

- خرجه الترمذي برقم (٢٨٦٩).

- خرجه النسائي برقم (١٢٤/٨، ١٢٥).

ثانياً: ورد في الموضوع السابق ما نصه: «ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم..: «إن الذي ليس في قلبه شيء من القرآن كالبيت الخرب».

والحديث ضعيف وهذا بيانه:

- في سنده قابوس بن أبي ظبيان ليَّنَهُ الحافظ في «التقريب»، وفي الباب عن ابن مسعود عند الدارمي موقوفًا عليه. (قاله شعيب الأرناؤوط في تعقيبه على الحديث بذيل رياض الصالحين».

- ضعفه الألباني في كتابه «مشكاة المصابيح»، وكذا في تعقيبه على الحديث بذيل رياض الصالحين.

ملاحظة علمية

الحديث وارد في كتب الحديث بلفظة «جوفه» بدلاً من لفظة «قلبه».

ثالثًا: في مقالة «الحج صياغة عميقة ليسر الشريعة» والمقالة طيبة ونافعة وفيها فوائد جمة أبرزها كما ذكر الكاتب نفسه في عنوانه أن الحج صياغة عميقة ليسر الشريعة، ومما لا شك أن الفائدة ستعظم لو أن الكاتب قام بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة الواردة بالمقالة، ويؤخذ على الكاتب عدم التزام تخريج كل الأحاديث الواردة.

رابعًا: في مقالة «المرأة المسلمة في عصر الوحي والتنزيل» قدمت الكاتبة صوراً مشرقة للمرأة المسلمة في عصر الوحي والتنزيل وأبرزت إعلاء الإسلام لمكانة المرأة واستشهدت بما يربو على خمسين حديثًا وواقعة تؤكد وتدعم رؤيتها، ولاشك في صحة ما ذهبت إليه.

والمقالة جيدة ونحن بحاجة إلى مثل هذه المقالات في عصر طغت فيه الغوغائية، وتقليد الغرب، ومحاولة اقتلاع المرأة من جذورها، وإبعادها عن إسلامها وعقيدتها وأخلاقها. ولكن الكاتبة من ناحية الإسناد والعزو فاتها أنه ينبغي أن يكون الإسناد والعزو إلى كتب الحديث، وليس إلى غيرها مهما كانت القيمة العلمية للكتب الأخرى في مجالها.

فقد أصابت الكاتبة في عزوها وإسنادها الأحاديث إلى كتب السنة ودواوينها، وقد فعلت ذلك أحيانًا، وجانبها الصواب في عزوها وإسنادها الأحاديث إلى بعض كتب السيرة والفقه والطبقات.

وآمل من الكتّاب عامة وكتّاب الفيصل خاصة مراعاة عزو الأحاديث وإسنادها إلى «كتب الحديث ودواوين السنة، وكذلك مراعاة تخريج الأحاديث وعدم تركها من دون تخريج، وكذلك عدم الاعتماد على السماع من العامة، بل التأكد من وجود الأحاديث في مظانها من كتب الحديث ودواوين السنة، وعدم الاعتماد على شهرة الحديث وانتشاره، فليست شهرة الحديث وانتشاره دليل صحته، بل دليل صحته هو وجوده مخرجًا ومحققًا في كتب الأحاديث ودواوين السنة.

محمد نجيب لطفي

الفيوم - العدوة

مكتب بريد العدوة - الرمز البريدي ٦٣٧٤٤ - مصر.

الميثولوجيا الإغريقية في المسرح العربي المعاصر

مراجعة: يوسف الطالبي
مكناس - المغرب

طلع علينا الدكتور يونس لوليدي بعد كتابه البكر «الأسطورة بين الثقافة الغربية والثقافة الإسلامية» الذي انكب فيه على تحديد المفهوم، وضبط المصطلح، فيما يخص الأسطورة، بكتاب آخر موسوم بعنوان «الميثولوجيا الإغريقية في المسرح العربي المعاصر»، وهو كتاب يدخل ضمن مشروع الباحث الفكري الذي يروم من ورائه إلى تقريب الميثولوجيا الإغريقية إلى القارئ العربي، ومحاولة ملامسة العلاقة القائمة بينها وبين المسرح، ثم الرغبة الملحة التي تسكنه، للكشف عن الأسباب الثاوية وراء سعي الكتاب المسرحيين العرب إلى استلهام الميثولوجيا الإغريقية أكثر من غيرها، كما يرمي إلى اقتراح تحليل يناسب خصوصيات المسرحيات ذات البناء الأسطوري، وهذا ما يؤكده الأستاذ الباحث في مستهل كتابه.

ولأهمية الكتاب، ووجاهة قضيته، وتميز تناوله، سنعمل على إضاءته من أجل تقريب القارئ العربي إلى انشغالات باحث عشق المسرح، فدخل معه في حوار عبر مستويات مختلفة: تمثيلاً، وإخراجاً، وبحثاً، وتدريساً، ونقداً، وتنظيراً.

الأسطورة الإغريقية والمسرح

ينهض الكتاب على ثلاثة فصول، ففي الفصل الأول يتناول الباحث الأسطورة الإغريقية في علاقتها بالمسرح: طبيعتها ومدار تحركها (الآلهة، الأبطال، الكون)، لينتقل للحديث عن علاقتها بالمسرح الإغريقي مروراً بارتباطاتها بالمسرح الغربي وانتهاءً بحضورها في المسرح العربي....

أما في الفصل الثاني فيتطرق إلى علاقة المسرحية ذات البناء الأسطوري بالواقع، مبتدئاً بالمسرحية ذات البناء الأسطوري المنفصل عن الواقع من خلال مسرحيتي توفيق الحكيم «بيجماليون» و«الملك أوديب» ثم «أمومة» لعلي عقلة عرسان، مثنياً بالمسرحية ذات البناء الأسطوري المتصل بالواقع دارساً إياها من خلال مسرحية «أوديب» لوليد إخلاصي، ومسرحية «الحداد يليق بأنتغون» لرياض عصمت، منتهياً إلى المسرحية التي يمزج بناؤها بين الأسطورة والواقع، مستدعياً مسرحية «إليكترا الجديدة» لحسن حمادة، ومسرحية «عودة البصر للضيف الأعمى» لأحمد عثمان، وأخيراً مسرحية «بروميثيوس ٩١ أو بغداديات» لمحمد الكغاط.

الميثولوجيا الإغريقية في المسرح العربي المعاصر

د. يونس لوليدي

فاس: أنفو برانت
Info - Print
١٩٩٩م، ٢٧٠ص.

بينما نجده في الفصل الثالث والأخير يقترح تحليلاً ينسجم والمسرحيات ذات البناء الأسطوري، من خلال مقومات الفرجة، واقفاً في العنصر الأول على هذه المسرحيات بين القراءة والعرض قبل أن يأتي على العناصر المكونة للفرجة فيها: أسماء الشخصيات، والفضاء الدرامي، والديكور، والتوابع المسرحية، والإضاءة، والأزياء، والموسيقى، والرقص، والأصوات الاصطناعية.

هذا هو الكتاب مع مقدمة وضعها له الباحث وخاتمة.

لقد نجح الدكتور يونس لوليدي إذن في وضع اليد على الجانب الأكثر إثارة لإشكاليات متراكبة، ومتداخلة، مادامت الأسطورة تعد إطاراً مناسباً، لبحث ذي نكهة تعددية، وأفق ممتد.

ومن ثم كان الاختيار متلائماً، مع أفق الباحث المنسجم بالتنوع في الطرح، والتركيب في الرؤية، ومن ثم فقد اتجه باختياره للأسطورة الإغريقية، وحضورها في النص المسرحي، إلى ما يمثل أساساً منهجياً، وفي الآن نفسه اتساعاً مجالياً، يمكّن من تحقيق ذلك الانتقال من الحيز الشعائري الضيق، إلى الاستثمار الفني الممتد.

ولاشك أن التمييزات المنهجية التي حرص الكاتب على إيلائها الأهمية المعرفية التي تستحقها، قد جعلته ينكب على ما تحفل به الأسطورة الإغريقية على وجه الخصوص من خصوبة، سواء على مستوى عوالمها، أو على مستوى ما تقدمه من إمكانات التناص.

انتماء إلى دنيا الإنسان

ولعل من أهم الملاحظات التي عمل المؤلف على إبرازها واستثمارها طول بحثه، هي أن الميثولوجيا الإغريقية لم تكن تنتمي إلى عالم الدين وحده، وإنما تنتمي إلى دنيا الإنسان عامة، والإغريقي خاصة، مادامت طبيعتها تتوافق إلى حد بعيد مع طبيعة الإغريق الذين كانوا «يتميزون بطبيعة مركبة، ويملكون خصائص متناقضة. فهم، وإن كانوا فنانين وشعراء، يتذوقون الجمال بكل أشكاله، ويتمتعون بخيال خلاق، إلا أن هذا لم يمنعهم من الالتصاق بالواقع كباقي الشعوب التي تقوم حضارتها على الفلاحة والتجارة». (ص ٣ ـ ٤) إن تأكيد الباحث على هذه المعطيات، يأخذ أهميته المنهجية الكبرى من كونه يرتبط بمختلف الإشكاليات التي تشكل بؤرة البحث ومداه في وقت واحد.

لقد كان تأثير الميثولوجيا الإغريقية في الإبداع عموماً تأثيراً عميقاً، مادامت تحتوي في ذاتها على ما يستثير اهتمام الكاتب المسرحي بوجه خاص. من ثمة فقد توقف الباحث عند مختلف تجليات الجديد الذي حمله، فقد تبلور معها مفهوم التداخل بين المتناقضات، كما ركز في ما يمثل اختلافاً في الرؤية على المستويين الوجودي (الأنطولوجي) والمعرفي، حيث تتبدى الميثولوجية الإغريقية حافلة بما ينبئ عن عمق في التناول وشمولية في النظر. ويعزز هذا المنحى ذلك الصراع الذي تعكسه ـ على خلاف ميثولوجيات أخرى ـ بين الحياة والموت، والنور والظلام، والخير والشر، والسعادة والشقاء.

وفي عرض المؤلف لطبيعة الميثولوجيا الإغريقية، يظهر طرحه لآراء متعددة على المستويين التزامني والتطوري، إذ نلمس العودة إلى أفكار الكتاب والمفكرين الإغريق الذين أعملوا العقل في كل مناحي حياتهم، ومارسوا تفكيراً عميقاً في مجموعة من القضايا التي استطاعوا أن يجدوا لها معالجات خاصة ومتميزة، وهو ما يتأكد مثلا من خلال استحضار الباحث لرأي إديث هاملتون Edith Hamilton الذي جاء فيه أنه «على الرغم من أن الجزء الأكبر من الميثولوجيا الإغريقية يتكون من حكايات تتعلق بالآلهة، فإنه مع ذلك لا ينبغي أن نرى فيها نوعاً من «التوراة» الإغريقية، أو عرضاً للديانات الإغريقية» (ص١١) وهو ما انتهت إليه استنتاجات الدكتور يونس لوليدي إذ يقول: «وهكذا يمكن أن نلاحظ أن الأسطورة الإغريقية حاضرة في كل المجالات، إنها حاضرة في الحياة الدينية، والاجتماعية، والسياسية، ومجسدة على المسرح، ومرسومة على الأواني.» (ص٢٣) وهذا الاستنتاج يتوافق مع إشكالية البحث التي تهم جانب صلاحية هذه الميثولوجيا للاستثمار الفني لأنها ليست ذات بعد أحادي. وهذا ما يظهر بوضوح من خلال إشارة الكاتب إلى أن توظيف الأسطورة للمسرح الإغريقي نفسه لم يكن «توظيفاً للأسطورة برمتها، وإنما كان توظيفاً لجزء معين منها، أي إن المسرحية تقام على حدث معين من أحداث الأسطورة أو على موقف من مواقفها.» (ص٣٠) إن هذه الإشارة التي تأتي في بداية الكتاب ستكون ذات أهمية منهجية كبرى عند تناول الباحث لعلاقة المسرح العربي بالميثولوجيا الإغريقية.


علي عقلة عرسان

حرية وانفتاح

كما يظهر من جانب آخر تركيز الباحث في بعد مهم في الميثولوجيا الإغريقية، هو بعد الحرية الذي كانت تقدمه هذه الميثولوجيا لكل قراءة فنية، فقد كانت تمنح الشاعر التراجيدي الإغريقي مثلا «حرية اختيار الموضوعات، والأحداث، والشخصيات، كما أنها تمكنه من الإبداع ومن إعطاء التأويلات الخاصة. والأسطورة نفسها عندما يستلهمها أكثر من شاعر، وتخضع لأكثر من تفسير وتأويل، فإنها تعكس التطور الذهني والأخلاقي السريع الذي تعرفه الأجيال المتلاحقة» (ص٣٧) وهذا التركيز على الانفتاح الذي يسم النص الميثولوجي الإغريقي هو الذي سيمثل مرتكزاً منهجياً مهماً على امتداد مقاربة الباحث التي تعي جيداً أن أفق هذا النص القصدي أوسع من أفق مؤلفيه أو من شروط

إنتاجه الاجتماعية ـ النفسية (السوسيو ـ سيكولوجية Socio – Sycologie)، وبذلك كان الدكتور يونس لوليدي يدرك تعدد التلقيات الإبداعية التي يمكن أن يتعرض لها هذا النص، لكونه يتجاوز مجرد التعبير عن خلفيات، إلى مورد لاستثمارات إبداعية مختلفة وخلاقة.

ومن أهم ما يبرز الاستثمار المنهجي الموفق للمعطيات العامة التي قدمها الباحث في حديثه عن الميثولوجيا الإغريقية، تنبهه إلى أن جوانب خاصة من هذه الميثولوجيا دون غيرها، هي التي ستحظى بالرواج الاستلهامي. وهو ما يكشف عن قوة هذه الجوانب، في إثارة انتباه الكتاب، وقدرتها على الاستجابة لشتى التساؤلات التي تطرحها الحالة الإبداعية في مختلف متغيراتها.

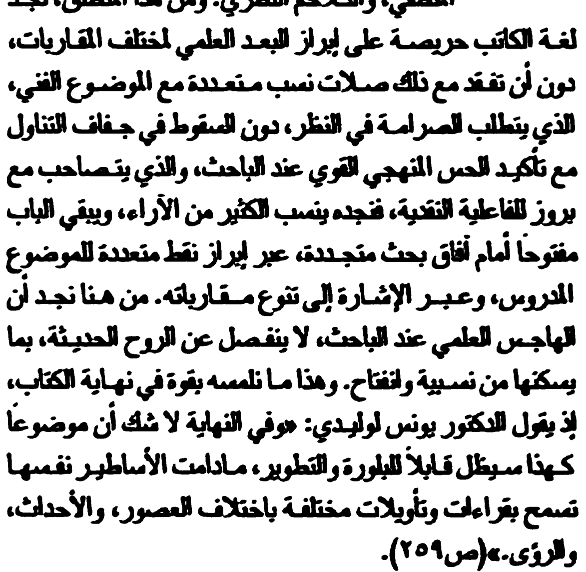
وكما تُقدّم مقاربة الباحث ذلك السعي للإحاطة المتعددة والمختلفة بالميثولوجيا الإغريقية، يتكرر الأمر نفسه عند تعرضه لعلاقات هذه الميثولوجيا بالمسرح الغربي، والمسرح العربي فيما بعد. وهذا ما نجده في أحد استنتاجات الكاتب المهمة، إذ يقول: «وهكذا نلاحظ أنه منذ أبدع سوفوكليس تراجيديته الخالدة عن أوديب، وإمكاناتها الفكرية والفنية لا تكف عن اجتذاب كتاب المسرح على مختلف العصور، ولعل ذلك راجع إلى ثراء هذه الأسطورة وعمقها الإنساني، وما تتيحه من فرص الإبداع والخلق، وراجع كذلك إلى أنها تجعل الناس أمام حقيقتهم الشخصية والاجتماعية بطريقة مباشرة ومؤثرة أكثر من أي أسطورة أخرى» (ص٤٧). وفي هذا السياق لم يغفل الباحث أن يبرز اتساع الحضور الميثولوجي الإغريقي في النص المسرحي الغربي، عبر عدة أمثلة أبان من خلالها أن الرجوع إلى مصادر مشتركة لم يكن ينفصل عن الوصول إلى نتائج مختلفة، وهذا ما يفصح عن عمق الاستثمار الفني، وغنى النص المرجعي.

إن وقوف الباحث عند علاقة الميثولوجيا الإغريقية بالمسرح العربي، يفصح عن إرادة معرفية في كشف مجموعة من الارتباطات البيّنة والخفية، في علاقة هذا الجنس الحديث عربياً، مع هذه الميثولوجيا التي امتلكت الامتداد التاريخي، والحضور الإبداعي، من خلال عدد هائل من نصوص المسرح الغربي، التي توقف المؤلف عند عدد كبير منها. من هنا كان إبراز علاقة الميثولوجيا الإغريقية بالمسرح العربي، يتجاوز مستوى الإضاءة التوثيقية، التي تبغي تسطير الخصوصيات التي وسمت هذه العلاقة، وجعلتها تتميز بعدد من الملامح. وفي هذا الإطار وجدنا اهتمام الباحث بالعودة إلى هذه العلاقة، لإبراز الحضور المتميز لنص توفيق الحكيم المسرحي ليس كنص مؤسس فقط. بل كنص لا يمكن القفز عليه، في أي تناول لعلاقة المسرح العربي بالميثولوجيا الإغريقية. إذ انطلق الكاتب من تساؤلات مهمة تعبر عن عدم ركونه إلى ما ترسخ في الأذهان من أفكار، وأحكام، حول هذا الجانب. ومن ثم نجده يلاحظ أن استلهام الحكيم لأسطورة أوديب على وجه الخصوص، كان ذا دلالة مهمة، لأنه كان يعدّ «أن مأساة أوديب هي أقل المآسي الإغريقية غرقاً في «الميثولوجيا الدينية»، وأكثرها وضوحاً ونقاء، وأقربها إلى النفس في إنسانيتها المجردة. وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يسير بالأسطورة مساراً مخالفاً لأحداثها الأصلية». (ص: ٦٠ ـ ٦١).

إن ما يلفت الانتباه في رؤية الدكتور يونس لوليدي، ذلك النزوع الحثيث، إلى عدم الاكتفاء بالوقوف عند الظواهر، بل إلى تحليلها بعمق، عبر إبراز النظر الشخصي، الذي لا يلغي أبداً موضوعية الطرح، ولا اتساع المجال، بحيث يبدو جلياً أن الباحث يستند إلى معرفة دقيقة بالموضوع الذي يتناوله بالدراسة، وهو ما يظهر في تأكيده مجموعة من التمييزات المنهجية التي تكشف عن عدم استسهال الخوض في مثل هذه القضايا، وفي اعتماده على ما تراكم لديه من إلمام قوي بالمسرح ومكوناته، وما عرفه تاريخه من تحولات.


توفيق الحكيم

وفي هذا السياق يبدو أن المؤلف يقيم الكثير من التناسبات المرجعية والمفاهيمية بين مختلف أجزاء بحثه، مما يفيد اهتماماً قوياً بجانب التماسك المنطقي، والتلاحم النظري. ومن هذا المنطلق، نجد لغة الكاتب حريصة على إبراز البعد العلمي لمختلف المقاربات، دون أن تفقد مع ذلك صلات نسب متعددة مع الموضوع الفني، الذي يتطلب الصرامة في النظر، دون السقوط في جفاف التناول مع تأكيد الحس المنهجي القوي عند الباحث، والذي يتصاحب مع بروز الفاعلية النقدية، فنجده ينسب الكثير من الآراء، ويبقي الباب مفتوحاً أمام آفاق بحث متجددة، عبر إبراز نقط متعددة للموضوع المدروس، وعبر الإشارة إلى تنوع مقارباته. من هنا نجد أن الهاجس العلمي عند الباحث، لا ينفصل عن الروح الحديثة، بما يسكنها من نسبية وانفتاح. وهذا ما نلمسه بقوة في نهاية الكتاب، إذ يقول الدكتور يونس لوليدي: «وفي النهاية لا شك أن موضوعاً كهذا سيظل قابلاً للبلورة والتطوير، مادامت الأساطير نفسها تسمح بقراءات وتأويلات مختلفة باختلاف العصور، والأحداث، والرؤى.»(ص٢٥٩).



ترجمة عرار لرباعيات عمر الخيام

مراجعة: جعفر العُقيلي
إربد - الأردن

تُعَدّ ترجمةُ الشاعر مصطفى وهبي التّل (عرار) لرباعيات عمر الخيام أول محاولة أردنية للإطلالة على هذا الشاعر الفارسي، وإبداعاته الفنية، وفلسفته في الحياة، وهي الترجمة العربية الثامنة للرباعيات بعد المختارات التي ترجمها أحمد حافظ عوض (١٩٠١م)، وعيسى إسكندر المعلوف (١٩١٠م)، ووديع البستاني (١٩١٢م)، ومترجم مجهول (١٩١٢م)، وعبدالكريم شكري (١٩١٣م)، وعبداللطيف النشّار (١٩١٧م)، ومحمد السباعي (١٩٢٢م).

كما تكتسب هذه الترجمة - التي يعود تاريخُها إلى عام ١٩٢٢م - أهمية خاصة، بصفتها أول تجربة عربية لترجمة مختارات من الرباعيات عن لُغتها الأم، فقد استندت الترجمات السابقة إلى ترجمات إنجليزية للرباعيات أبرزُها منظومة (فيتزجيرالد) المشهورة.

وعلى الرغم من أهمية هذه الترجمة (العرارية) للرباعيات، وريادتها من الناحية التاريخية، فإنها لم يُقيَّض لها أن تُجمع بين دفتي كتاب، واكتفى أصدقاءُ عرار ودارسوه بذكر قصته معها، واختيار عدد منها ضمن أبحاث وموضوعات وكُتب عنه وعن شعره، وظلّت الرباعيات قصيّة عن الدراسة المنهجية، والبحث والتحقيق الدقيقين، حتى جاء كتابُ (رُباعيات عمر الخيام - ترجمة مصطفى وهبي التّل «عرار») الذي حقق الرباعيات فيه، واستخرج أصولها ودَرَسها الدكتور يوسف بكّار، والصادر عن دار الجيل (بيروت) ومكتبة الرائد العلمية (عمّان) في (٢٨٥) صفحة من القطع المتوسط، مشتملاً على مدخل حول المترجم والترجمة، ونصوص الرباعيات وعدد من اللاحق المتعلقة بالموضوع.

عرار وآثاره

يورد الباحثُ في معرض حديثه عن عرار وآثاره، أنّ من بين المخطوطات التي تركها عرار ثلاث مقالات تتصل بالخيام هي «الخيام - توطئة»، و«عمر الخيام وابن ميمون»، و«الروح الشعرية»، إذْ تتحدث المقالة الأولى عن جغرافية البلاد التي أنجبت الخيام، ويبدو أن الشاعر كان ينوي أن تكون هذه الصفحات توطئة لكتاب كان يُعدُّه عن الخيّام مدفوعًا بأنه «أحد النوابغ الذين قضى إهمالُ المؤرخين في الشرق، وأخذهم بقشور الأخبار دون لبابها من غير تمحيص أو تدقيق، وما لحق بالكتب الشرقية من الضياع والعفاء، قضى بأن تحوم حول شخصيته الشكوك والشبهات، وأن تكون سيرته مسرحًا لتضارب الأقوال، وعقيدته موضعًا لتباين الآراء».

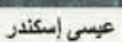
ويتناول عُرار في المقالة الثانية ما جاء في كتاب «نزهة الأرواح» للشهرزوري عن الخيام وعن بعض شعره العربي، ليطعن في أقوال شانئ الرجل فيه من خلال

رباعيات عمر الخيام
ترجمة
مصطفى وهبي التّل
(عرار)
حققها واستخرج أصولها ودرسها
د. يوسف بكار
دار الجيل، بيروت، ومكتبة الرائد العلمية، عمان، ٢٨٥ص

الرباعيات فقط، بأنّه كان «سكيرًا عربيدًا وابن حان ونضو ألحان»، وينتهي عرار إلى أنّ الخيام كان «حُر التفكير، وكانت حريّة فكره على الطريقة التي جعلته نظيرًا لابن سينا وابن ميمون»، بينما حاول في المقالة الثالثة أن يتكئ على «صورة» في ترجمة محمد السباعي للرباعيات، ليكشف من خلالها عن لبّ المقصود بالروح الشعرية.

وقد بدأت علاقةُ عرار بالخيام، عندما وقعت عيناه على ترجمة «رباعيات الخيّام» لوديع البستاني عند صاحب حانوت في إربد كان يتردد عليه قبل أن يلتحق بمدرسة «عنبر» بدمشق، وتمكن من قراءتها في الحانوت، ويبدو أنها راقت له وأعجبته، حتى إنه نظم - فيما يُقال - بعد أيام


مصطفى وهبي التل


عيسى إسكندر

من ذلك، قصيدة في «مُخمّسات» تأسّى فيها بالخيّام وتأثّر بالرّباعيات، وقد اعترف لاحقًا، بالأثر الخيّامي فيه، من خلال ترجمة البستاني بخاصةّ، في مقالة نشرتها له مجلة «مينرفا» في عام ١٩٢٥م، نقله «بكّار» في كتابه هذا.

وقام عرار بترجمة ١٥٥ رباعية مختارة من الرباعيات عن كتاب بالتركية مطبوع في الآستانة بعنوان «رباعيات الخيام» بقلم الأديبين حسين دانش (أستاذ الأدب الفارسي في دار الفنون بالآستانة سابقًا) والدكتور رضا توفيق، وظلّت الترجمة المخطوطة حبيسة الأدراج حتى عام ١٩٢٥م، إذ نشر الشاعر اللبناني أمين نخلة في ذلك العام ترجمة نثرية لاثنتي عشرة رباعية للخيّام، في مجلة «مينرفا» اللبنانية، لم تعجب عرار، فكتب نقدًا لها وللمقدمة التي وضعتها المجلة للرباعيات، وأشفع نقدَهُ بترجمة لما ظنّهُ أصولاً للذي ترجمه أمين نخلة «ولما لم يكن مطمئنًا إلى أصلٍ واحدٍ بعينه لكلّ رباعية مما ترجم نخلة، فقد لجأ إلى التخمين وترجم بعضها غير رباعية واحدة من الأصول الفارسية، واتكأ في نقده على ترجمة وديع البستاني».

وبذلك عاد عرار إلى ترجمته المتروكة وحاورها واختار منها أكثر ما يحقق له هدفه، بعد تهذيبها وتشذيبها، حتى استقرّ على أربع وعشرين رباعية هي الأصول التي اعتقد أن أمين نخلة ترجم عنها، ثم نشرها في مجلة «مينرفا» بعد أن أضاف ثلاث رباعيات مترجمة لم تكن في المخطوط المنجز سابقًا.

بين عرار ونخلة

ويرى الدكتور يوسف بكّار أنّ عرار وُفّق إلى أن يعرف أصل بعض رباعيات نخلة أوّل مرة، وإلى أن يعرف بعضها من خلال حدسه، وترجمته رباعيتين أو أكثر، لكنّه لم يُوفّق إلى معرفة أصل الرباعية التاسعة، بالإضافة إلى أنه لم يترجم سوى أصول - أو ما خيّل إليه أنّ أصول - تسع رباعيات فقط ممّا ترجم نخلة.


محمد السباعي

ويفسر بكار عدم اهتداء عرار إلى أصول رباعيات نخلة رأسًا، وفي لجوئه إلى تخيّل بعضها وتركه ما لم يترجمه منها، بمعرفة عرار المتواضعة «الضئيلة» بالفارسية، علاوة على أنّ الأصل الذي ترجم عنه أمين نخلة مختاراته (على الأغلب) هو ترجمة (فيتزجيرالد) الإنجليزية.

وبعد ردّه على نخلة، عاد عرار، ونشر رباعيات أخرى في أحد أعداد المجلة، ثم نشر ثماني عشرة رباعية في عدد آخر، مما استفزّ نخلة الذي ثارت ثائرته، فبعث رسالة إلى «مينرفا» قال فيها: «لكن الذي فهمته هو أنّ الأديب (يقصد عرار) لم ينسب إلى ترجمته الصحة، إلا لأنه يترجم بعض تلك الرباعيات حرفيًا ترجمة جعلتنا نتساءل: أعربيّة نحن نقرأ أم فارسية؟!» وحين اطلع عرار على هذا الكلام، ردّ عليه بمقالة يبين فيها حدود معرفته باللغة الفارسية والتركية، ويؤكد - حسب ما يعتقد -

أن ترجمته «أقرب الترجمات المعروفة إلى الأصل الفارسي، وأحفظها لأسلوب الخيام» ويشرح أسباب هذا الرأي.

لكنّ المساجلة بين عرار ونخلة توقفت عند هذا الحدّ، وظلّ مخطوطُ عرار الذي يضم الرباعيات منسيًا، حتى إن محمود المطلق، رفيق الشاعر الذي نسّق ديوان «عشيات وادي اليابس» ونشره عام ١٩٥٤م بعد وفاة عرار، لم يكن يعلم بأمر هذا المخطوط، ولم يتجاوز ما ذكره عن ترجمة الرباعيات الإشارة إلى ما نُشر منها وحسب.

أما البدوي الملثم يعقوب العودات الذي أعدّ كتاب «عرار شاعر الأردن» عام ١٩٥٨م فقد ذكر أن معن التلّ فاجأه بالدفتر المخطوط في أثناء الإعداد لطباعة الكتاب، ومرّت السنون، حتى أعطى الدكتور سعيدُ التّل في أواخر الثمانينيات من القرن الفائت عيسى الناعوري الدفتر القديم، ليُخرجه إلى النور، فقام بإخراج الرباعيات وتحريرها، وأودعها في مكتبة الجامعة الأردنية (المجموعات الخاصة) بعد أن وضع مقدمة عن الشاعر والخيّام والرباعيات وبعض ترجماتها الأخرى.


أحمد حافظ عوض

وبعد دراسة مستفيضة لما أورده الناعوري والبدوي الملثم عن الرباعيات، يخلصُ الدكتور يوسف بكّار إلى أنّ الاثنين تدخلا في بعض المواطن في تغيير الألفاظ في عدد من الرباعيات، لأمور تتصل بالنحو والمعنى.. وتفاديًا للهنات والعثرات، اتّبع بكّار في تحقيقه للرباعيات منهجًا من أساسياته التنبيه على أخطاء الترجمة أو عدم دقتها في عدد من الرباعيات، والنهوض بتصحيحها أو إعادة ترجمتها في الهوامش، والإشارة إلى ما انتاب بعض الرباعيات من تصرّف الزيادة والنقص، أو ما دلف إليها من تفسيرات واستطرادات استلهمها المترجم عرار من أجواء الرباعيات وأفكارها، ورأب صدوع قليلة بزيادة بعض الألفاظ التي يتطلبها النحو والتركيب والمعنى.

وألحق بكّار بالكتاب مقالتين للمترجم نفسه عن الخيّام والرباعيات، وترجمة أمين نخلة وترجمته هو (عرار) وبعض ما يتصل بها، وهما المقالتان اللتان نُشرتا في «مينرفا» اللبنانية، ولم يطّلع عليها أكثر المهتمين بعرار ومَن كتبوا عنه، إلا من خلال كتاب البدوي الملثم «عرار شاعر الأردن» الذي أباح لقلمه أن يتدخل فيهما قليلاً لما فيه نفع صديقه عرار، كما اشتمل الكتاب على ترجمة أمين نخلة للرباعيات والمنشورة في «مينرفا»، ومقالة للباحث د. بكّار هي قراءة دقيقة متأنية لكتاب البدوي الملثم.

ونورد هنا طريقة ترجمة عرار للرباعيات كما ذكرها في مقالته الثانية المنشورة في «مينرفا»، إذْ يقول: «فأنا قبل كل شيء لستُ مُتضلعًا من الفارسية لدرجة تجعلني أسلم من العثار في النقل، فمعرفتي لغة الرباعيات تنحصر في إتقاني قواعدها الصرفية والنحوية فقط، واقتنائي معجمًا فارسيًا أستعين به أكثر من عشرين مرة في ترجمة كلّ رباعية، ولذا لا تراني أحسن الإنشاء ولا المكالمة بالفارسية، كما لا أستطيع فهم أي كتاب أقرؤه بها - خلا رباعيات الخيام - إلا بصعوبة زائدة...


أمين نخلة

إنّي أتقن اللغة التركية إتقانًا لا بأس به، واللغة التركية، كما لا يخفى على من عرفها، تتألف من ثلاثة أثلاث أحدها فارسي، كما تتألف الفارسية من ثلاثة أحدها عربي».

وأخيرًا، لا بدّ من التأكيد أن تحقيق الدكتور يوسف بكّار للرباعيات وترجمتها، لا يقلان أهمية عن هذه الترجمة، فقد قدّم في كتابه هذا خلاصة جهد دؤوب استند فيه إلى مصادر ومراجع مختلفة، باحثًا في الأصل الذي ترجم عنه عرار، بمنهجيّة وبحث واضحين، وراصدًا الأخطاء التي وقع فيها الشاعر وغيره فيما يتعلق بموضوع الرباعيات وترجمتها.

جروتوفسكي وفلسفة التحدي

محمد مصطفى المصري
كفر الشيخ - مصر

ولد جرسي جروتوفسكي Jerzy Grotowski في عام ١٩٣٣م في مدينة رزيزوق شرق بولندا، ونال دبلوم التمثيل من كلية كراكوف المسرحية، وأكمل فيها دراسته للإخراج المسرحي، وعين فيها مدرسًا لفترة.

أهمية جروتوفسكي

قد لا يعني جروتوفسكي(١) شيئًا بعد للقارئ العربي، والحقيقة أنه صاحب أحدث وأهم منهج في التمثيل المسرحي في الوقت الحاضر، فلا ينظر إليه على أنه رجل مسرحي عادي، بل يزداد الاهتمام بدراسته ومتابعة أعماله بوصفه فيلسوفًا ومنظرًا وصاحب مفهوم مسرحي جديد يحققه بشكل علمي، فهو لا يكتفي بالنظريات، ولكنه يؤكد فلسفته من خلال تطبيقات وتمارين تجريبية، يواصلها بنفسه يوميًا مع أفراد فرقته المسرحية وبشكل حياة كاملة.

ولكي ندرك أهميته يمكن أن نتأمل كلمات المخرج البريطاني بيتربروك الذي بدأ مخرجًا في الأربعينيات، ثم عمل مخرجًا لفرقة شكسبير الملكية في الستينيات ويرأس حاليًا المركز الدولي للبحوث المسرحية في باريس الذي أسسه عام ١٩٧٠م.

يقول بيتربروك: «إن قوة عمل جروتوفسكي، وصدقه، ودقته، لا يمكن أن تخلف وراءها سوى أثر واحد: التحدي، لا لعدة أيام، ولا مرة واحدة في العمر، بل كل يوم». فجروتوفسكي هو حقًا أسطورة مسرحنا المعاصر. فهو مخرج (مسرح المعمل) ومبدعه، والأستاذ بالمعهد الفرنسي للفنون المسرحية، والحاصل على جائزة الدولة التقديرية في بولندا من المرتبة الأولى، والأستاذ الشرفي بجامعة


جروتوفسكي

بيتسبورج. والذي يُعد من أعظم رجالات عصرنا في حركة الإصلاح المسرحي العالمي بجوار المسرحي الروسي ستانسلافسكي.. والمصلح المسرحي البولندي أوستيرفا، ومايرهولد، وبريخت، وأرتو(٢).

جوهر منهجه

لا يرمي جروتوفسكي إلى تلقين الممثل طائفة من القواعد والإرشادات، وإنما يسعى دائمًا إلى مساعدة الممثل على النضج الذي يصل إليه عن طريق التوتر البالغ، والتجرد، والتعرية الباطنية(٣).

وقبل أن نتعمق في شرح هذه التعبيرات التي قد تكون غريبة على آذاننا يجب أن نعرف أن جروتوفسكي بدأ تجاربه المهمة في أواسط الستينيات، مع مجموعة من الأفراد المؤمنين برسالة المسرح، والتفوا حوله مرتبطين به ارتباطًا وثيقًا من البدايات الأولى لنشاط هذا المسرح بمدينة (أوبول) ببولندا في مسرحه المكون من ثلاثة عشر صفًا، حيث لا يتعدى جمهوره خمسين متفرجًا(٤)، كان ذلك في الأعوام من ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٢م. أنشأ مسرحًا بلا مسرح!! بلا خشبة مسرح تقليدية!! بلا ديكور ولا إكسسوارات!!.. مسرح فقير في كل شيء!! ولكنه غني في المحتوى والشكل!!

في البداية عدوه دجالاً مشعوذًا، رفضوه ولفظوه، ولكنهم في النهاية، وحينما اكتشفوا أنه ساحر مسرحي مبدع لفن المسرح،

منحوه أعلى مرتبة ومكانة جعلت من مسرحه: أهم تجربة من المدارس الراسخة والمعتمدة في الفن المسرحي.. وتعد أول مدرسة مهمة الآن في فن الممثل والمخرج المسرحي(٥).

منابع أفكاره

ـ مدرسة المخرج الروسي ستانسلافسكي(١٨٦٣ ـ ١٩٣٨م):

استطاع ستانسلافسكي أن يخرج بفن التمثيل من مجرد أداء عفوي ـ لا يحكمه في أحسن الحالات إلا حالة الإلهام عند بعض العباقرة من الممثلين ـ إلى منهج وأسلوب، يقوم على عناصر كثيرة، وعلى تدريب متواصل للجانب الذهني والجسدي عند الممثل. فقد اهتم ستانسلافسكي بتعبير الممثل الداخلي. ويعدّ الإحساس من الداخل هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها فن التمثيل الحق بدلاً من التعبير السطحي الذي كان يعتمد على اللعب بعضلات الوجه والمبالغة في الأداء المسرحي(٦).

ـ منهج المخرج الروسي الطليعي مايرهولد وأسلوبه (ت:١٩٤٢م)(٧):

وهو تلميذ ستانسلافكي كانا يجعلان من الممثل الشيء الرئيس فوق خشبة المسرح.. فهو يغني ويرقص.. كما أن مايرهولد كان يرى أن نجاح الأداء متوقف على درجة الكمال التي يتحكم بها الممثل في أطرافه وعضلاته.. فقد كان يرى أن جوهر المسرح هو: أن يجتذب المتفرج كي يستخدم خياله.. حتى يرى المتفرج ما يريده المخرج أن يراه. وكان اهتمامه يتركز حول شكل المسرحية لا مضمونها.

مدرسة بريخت ومنهجه (١٨٩٨ ـ ١٩٥٦م):

وهو من الفنانين الذين جددوا في الفن المسرحي، وجمع بين عظمة المفكر وعظمة الأديب. وكان بحثه عن شكل جديد للمسرح لم يكن مطلباً جمالياً خالصاً، وإنما كان ضرورة تحتمها الأوضاع الاجتماعية الجديدة في عصر العلم.

وكان يرى أن المسرح أداة يسهم في عملية التحول الاجتماعي لصلحة الطبقات المقهورة، وأطلق عليه اسم «المسرح الملحمي»(٨) الذي يختلف عن المسرح الأرسطي الذي يجعل الخوف والشفقة في نفس المشاهد لكي تطهره من الانفعالات الضارة، فيخرج من المسرح مستريحاً ومتجدد المشاعر حتى يمكنه أن ينسجم مع مجتمعه، ويتحقق هذا في المسرح بإيجاد حالة من الإيهام بالواقع يشد المشاهد نحو الاندماج مع البطل فينسى نفسه تماماً. ويرى بريخت أن جمهور هذا المسرح يخرج مستريحاً دون أن يتعلم أو يتهذب، فالمسرح عند بريخت وسيلة للإنعاش العقلي، ولذلك كان يحطم أي إيهام بالواقع حتى يحتفظ المشاهد بوجوده المنفصل عن الأحداث. ولذلك استعان بريخت ببعض الحيل والوسائل حتى يظل المشاهد بعيداً عن الاندماج ليكون له رأي وموقف تجاه الأحداث.

منهج أونتنان آرتو(١٨٩٦ ـ ١٩٤٨م):

وكما جاء على لسانه: «لقد بدا لي المسرح الحقيقي دائماً كأنه ممارسة فعل خطير مخيف تنمحي خلالها فكرة المسرح والمنظر. ويهدف هذا الفعل إلى التحول العضوي الفيزيقي لجسد الإنسان. لماذا؟ لأن المسرح ليس استعراضاً تشرح فيه الأسطورة بطريقة وهمية رمزية، بل المسرح بوتقة نار ولحم حقيقي مسرح يعاد فيه تركيب الأجساد بالتشريح ودروس العظام والأعضاء ومقاطع الألفاظ، مسرح دم، مسرح يمنح جسداً خلال كل عرض، شيئاً لمن يمثل، وشيئاً لمن جاء ليشاهد التمثيل، ثم إن المرء لا يمثل، بل يفعل»(٩). فماذا يقول جروتوفسكي عن هذه المنابع وهذه المناهج المختلفة؟. يقول جروتوفسكي: «لقد درست كل المناهج المهمة المتعلقة بتدريب الممثل في المسرح الشرقي وخاصة أوبرا بكين، وكاثاكالي في الهند، ومسرح نو الياباني. ومع ذلك لا أستطيع أن أقول: إن المنهج الذي نبحثه متألف من مجموعة فنيات مأخوذة من هذه المنابع. مع أننا أحياناً نقتبس منها عناصر تفيدنا، نحن لا نريد أن نعلم الممثل منظومة من المهارات التي سبق تقريرها، أو نعطيه (جراب الحاوي)، هنا في معملنا كل شيء يتركز لإنضاج الممثل»(١٠). وقبل أن نتوغل في تاريخ هذا المسرحي المبدع نلقي نظرة سريعة على معمله المسرحي هذا الذي يتحدث عنه.

بريخت

المعمل المسرحي

إنه ـ كما يشير الاسم ـ معمل علمي منقطع للبحث في عالم فن الممثل والتمثيل على وجه الخصوص، وليس مسرحاً بالمفهوم الذي نفهمه. ومن خلال هذا المعمل أخذ جروتوفسكي في تجريب أفكاره، وتطبيق نظرياته في محاولة للوصول إلى منهج شامل لتدريب الممثل. فلم يحدث أن استطاع مخرج كبير منذ المخرج الروسي ستانسلافسكي أن يبحث، بمثل هذا العمق والنظرة الشاملة، في طبيعة فن التمثيل ومعناه وأدواته، أو في العمليات العقلية والجسمانية والشعورية التي تعدّ جزءاً لا يتجزأ من هذا الفن العريق.

نحو مسرح فقير

في الفترة من عام ١٩٥٧م حتى عام ١٩٥٩م عمل جروتوفسكي مخرجاً في مسرح (تياترستاري) في كراكوف وقدم العروض المسرحية الآتية: «الكراسي» تأليف الكاتب الفرنسي

الروماني الأصل يوجين يونسكو - أحد كتاب مسرح اللامعقول، و«العم فانيا» تأليف: أنطوان تشيكوف (١٨٦٠ - ١٩٠٤م) أحد أبرز أدباء روسيا، و«آلهة المطر» تأليف البولندي كرزيستون. ثم انتقل جروتوفسكي إلى مسرح (تياتربولسكي) في مدينة بوزنان، وقدم الجزء الأول والثاني من «د. فاوست». وتم تكليفه بإدارة مسرح (تياتر ١٣ رزيدوف) ومسؤوليته في مدينة أوبول وعمره (٢٦ سنة)، وفي هذا المسرح بدأ - ومعه مساعده - الناقد المسرحي والأدبي لودفيك فلازين - بتنفيذ فكرة (المعمل المسرحي).. وقد انتقل هذا المعمل إلى العاصمة الثقافية مدينة (فروكلاف) التي تهتم بالتجديد في الفن المسرحي في القطاعات الشرقية في بولندا، وقد أخذ المعمل وضعه وأصبح معهداً علمياً للبحث في فن التمثيل، ثم انتقل هذا المعمل إلى مدينة (فرانسواز) وهي العاصمة الثقافية للقطاعات الغربية في بولندا(١١). وفي عام ١٩٦٨م ظهرت أول طبعة لكتاب جرسي جروتوفسكي «نحو مسرح فقير»، ثم ظهرت طبعته الإنجليزية الأولى في إنجلترا عام ١٩٦٩م، وقد أعده بوجنيوباريا - وهو واحد من أهم وألصق تلامذه جروتوفسكي به، وقدم له المخرج البريطاني بيتربروك. فما هو هذا المسرح الفقير؟!

يشرح جروتوفسكي نظريته، فيقول: «ينفد صبري أحياناً عندما يسألني سائل: ما هو الأصل في عروضك المسرحية التجريبية؟ وهذا يفترض مسبقاً أن العمل المسرحي التجريبي لابد أن يستخدم تكتيكاً جديداً في كل مرة، ويفترض كذلك أن نتيجة العمل التجريبي لا بد أن تكون إسهاماً جديداً في فن المسرح مثل: المناظر المسرحية التي يستخدم المخرج في تصميمها بعض الأفكار من فن النحت المعاصر، أو يجعل الممثلين يؤدون بأسلوب شخصيات الكباريه النمطية أو مهرجي السيرك، ولكن عروضنا في العمل المسرحي تسير في اتجاه آخر تماماً، فنحن نحاول في المقام الأول أن نبحث في تحديد طبيعة المسرح التي تميزه من سائر الفنون. فقد اكتشفنا أن في المسرح كثيراً من العناصر الزائدة عن الحاجة، وأنه بالإمكان إلغاء هذه العناصر.

فالمسرح يمكن أن يكون من دون (ماكياج) أو ملابس أو مناظر مسرحية، ومن دون مكان للتمثيل منفصل عن مكان الجمهور، وكذلك دون إضاءة أو مؤثرات صوتية، ولكن لا يمكن أن يوجد المسرح من دون العلاقة الوجدانية والإدراكية المباشرة، وعلاقة التواصل الحي بين الممثل والمشاهد، وهذه - حقيقة - نظرية قديمة، ولكننا نضعها موضع التجربة الفعلية، لأنها تغير فكرتنا عن المسرح بوصفه تجميعاً لفنون إبداعية مختلفة كالأدب، والنحت والرسم والعمارة والإضاءة والتمثيل، فهذا المسرح التجميعي هو المسرح المعاصر الذي نطلق عليه «المسرح الغني»، الغني بأخطائه. والمسرح الغني يحاول الهرب من المأزق الذي تضعه فيه السينما والتلفاز من حيث استخدامهما للإمكانات الآلية، كالمونتاج، وتغيير المكان. وحاول المسرح الغني تعويض هذا النقص بالدعوة إلى (المسرح الشامل)، وتم إدخال الإمكانات الآلية في مجال المسرح مثل استخدام شاشات السينما للعرض الخلفي في أثناء التمثيل على خشبة المسرح.. ولكني أقول إنه مهما حاول المسرح أن يتطور آلياً باستخدام الإمكانات الميكانيكية، فستظل تكنولوجيا المسرح أقل فاعلية، وأدنى مرتبة من تكنولوجيا الفيلم والتلفزيون، ومن ثم فإنني أدعو إلى الفقر في المسرح»(١٢). كيف يكون المسرح بعد أن يتم إلغاء كل من: مؤثرات الإضاءة، والنص المكتوب؟!! فلنتأمل معاً كيف يفكر جروتوفسكي الذي يتحدى كل الأنماط المتوارثة، ويخرق كل ما هو متعارف عليه.. إنه يحدث الصدمة التي تمزق القناع.



تشيكوف

مؤثرات الإضاءة

يقول جروتوفسكي: «ولقد تخلّينا عن مؤثرات الإضاءة، مما كشف لنا عن إمكانات واسعة تتعلق باستخدام الممثل لمصادر الضوء الثابتة من خلال التعامل مع الظلال وبقع الضوء، وبمجرد أن يجد المشاهد نفسه في منطقة مضاءة يبدأ هو أيضاً في أن يؤدي دوراً في العرض، وهذا له مغزاه بوجه خاص، ومن المهم هنا أن أقول: إن الممثل يستطيع من خلال التدريبات والتكتيكات الشخصية لكل منهم أن يكونوا مصدراً للضوء المنبعث من داخلهم هم».

الماكياج

يقول جروتوفسكي: «ولقد تخلّينا أيضاً عن الماكياج، والأنوف المستعارة، والبطون التي يكبر حجمها بوضع وسادة عليها، ووجدنا أنه من البراعة المسرحية البالغة أن يتحول الممثل من نمط إلى آخر، ومن شخصية إلى أخرى أمام الجمهور بطريقة فقيرة مستخدماً جسمه ومهارته الحرفية فقط، وذلك باستخدام عضلات الوجه، والدوافع الباطنية له، تجعله قادراً على استخدام وجهه كالقناع، وهذا التعبير له تأثير مسرحي باهر»، ويشهد على هذه الكلمات وصدقها مؤلفا كتاب «المسرح التجريبي من ستانسلافسكي إلى اليوم» إذ يقولان: «يقول جروتوفسكي عن الماكياج: إنه ليس سوى إلصاق قناع على وجه الممثل، ورغم ذلك

فإن ممثليه يلوون قسمات وجوههم بحيث يخلقون أقنعة أكثر جموداً من الماكياج.. وأنت حين تراقب ممثلاً مثل (إليك جينيس) يستعد لدوره بملامح وجهه فإنك تشهد عملية تحول داخلي لا شك فيها».

الملابس

يقول جروتوفسكي: «وبالمثل فإن الملابس المسرحية ليس لها قيمة في حد ذاتها، وإنما تستمد قيمتها من علاقتها بشخصية معينة، وما تقوم به من أفعال من الممكن تصويرها أمام الجمهور في تناقضها مع الأفعال التي يقوم بها الممثل».

العناصر التشكيلية

يقول جروتوفسكي: «قمنا بإلغاء العناصر التشكيلية التي لها وجود مستقل عن نشاط فن الممثل، واستطاع الممثل، بتدريبه الشاق، أن يجعل من جسده هذا الديكور، فبالاستخدام المنضبط للحركة والإيماءة يحول الممثل الأرض إلى بحر أو قطعة الحديد إلى كائن حي».

الموسيقى

يستكمل جروتوفسكي كلماته: «وكذلك إلغاء الموسيقى بنوعيها (الحي والمسجّل) ساعدنا على تدريب الممثل كي يتحول العرض كله إلى موسيقى من خلال توزيع الأصوات وتصادم الأشياء، فالنص المكتوب في حد ذاته ليس مسرحاً، وإنما يصبح مسرحاً فقط من خلال أداء الممثلين له، أي بفضل تلوين الصوت، وارتباط الأصوات بموسيقى اللغة نفسها».

النص المسرحي

يقول جروتوفسكي: «أيمكن أن يكون مسرحٌ من دون نص؟ نعم.. فتاريخ المسرح يؤكد ذلك في تاريخ تطور الفن المسرحي، كان النص واحداً من آخر العناصر التي أضيفت إليه، وكل عرض مسرحي مبني على موضوع عصري هو مواجهة بين الخواص الظاهرية للأيام الراهنة وجذورها العميقة ونوازعها المختبئة. والقيمة الكاملة للنص تكتمل بالفعل حين تنتهي كتابة النص أدب، ونحن قد نقرأ المسرحيات كجزء من الأدب، وفي فرنسا تسمى المسرحيات الصادرة في كتب (مسرح) وهذا خطأ في رأيي؛ لأن هذا ليس (مسرحاً)، بل هو (أدب درامي)، في المسرح - إذا أردت - تكون وظيفة النص مثل وظيفة الأسطورة بالنسبة إلى الشاعر في الأزمنة القديمة. وأنا لا أقدم عرضاً مسرحياً لأعلّم الآخرين شيئاً أعرفه بالفعل. إنني أكثر حكمة بعد العرض لا قبله، فأي منهج لا يبدأ من نقطة البحث عما لا نعرفه منهج رديء»(١٣).

قواعد المسرح الفقير

- ليس هناك ما يسمى بمسرح شامل، وما يقدم بهذا الاسم هو لغو شامل.
- إن الاستعانة بأي عناصر أخرى مسرحية أو غير مسرحية محاولة مخفقة.
- لاداعي لخشبة المسرح، وأي قاعة خالية بها ممرات بين الشاهدين تؤدي الغرض.
- لا داعي للموسيقى الآلية، ويفضل الأنغام البشرية وإيقاعات أقدام الممثلين.
- ليس للإضاءة العادية أهمية، شعلات النيران تؤدي الغرض، وتجعل الجمهور مشاركاً.
- لا داعي للتنكر، فعضلات الوجه ونبضات الممثل الداخلية تصوغ عدة أقنعة.
- لا شيء مقدس.. فأي أسلوب للتعبير مقبول، بشرط حسن توظيفه بشكل سائغ.
- الاستفادة من عيوب الممثل، ولا يجوز التفكير في إزالتها، بل يجب تحويلها إلى مزايا.
- الملابس والإكسسوارات شركاء للممثل، فهو يجعل منها كائنات حية يتعامل معها.

الاهتمام بحركة الجسم والصوت ورسم الشخصية بمساعدة الإيماءات الموحية هي التي ستوقظ في المشاهد المشاعر الكامنة، وتدفعه إلى المشاركة فيما يحدث.

يونسكو

- لابد من إيجاد صلات مباشرة بين الممثلين والجمهور، يلمسه، يثيره، يستفزه.
- الاستفادة من المظاهر العضوية (الفسيولوجية) كاللهاث أو ضيق التنفس، وكذلك العرق الغزير، كما يمكن الإيحاء بأن هذا العرق دم إذا اقتضت الحالة الدرامية للعرض.
- إمكانية تحول الممثل بسهولة من شخصية إلى أخرى على مرأى من الجمهور.
- إمكانية تبادل الأدوار في أثناء العرض، فمثلاً يؤدي ممثل روميو دور جولييت والعكس(١٤).

مراحل فنية

عزيزي القارئ، أعتقد أن ملامح فكر هذا المسرحي الكبير جروتوفسكي قد اتضحت الآن؛ ولذلك نقترب أكثر لنشاطه الدائم، ونحاول التعرف والتأمل في مراحل عمره الفني.

المرحلة الأولى: في هذه المرحلة يكون فيها جروتوفسكي

مخرجاً مفسراً، مسرحياً ومعلماً موجهاً المخرجين والممثلين.. مقترحاً عليهم التدريبات الخاصة لعروضهم المسرحية، وكانت المهمة الرئيسة هي التدرج في تغيير الأشكال والصيغ المتبعة داخل العروض المسرحية، وتحليل قيم التركيبة الفنية المنبثقة من ظواهر العلاقة بين (الأدب - العرض) كما نشاهد في العرضين المسرحيين: (أورفيوش - قابيل) أو العلاقة بين خشبة المسرح وصالة العرض المسرحي، كما نشاهد في العروض المسرحية الآتية: (قابيل - شاكونتالا - الأجداد - كورديان)، أو العلاقة بين (المشاهد - الممثل) كما نشاهد في العرضين: (الأجداد - كورديان). وقد أفرزت هذه المرحلة كذلك علاقة فنية جدلية مبدعة أثارت كثيراً من النقاش والجدل حول مشكلة تشكيل المساحة المسرحية التي ألغت - بوعي وفكر - الحاجز التقليدي بين خشبة المسرح والمشاهدين، لتخرج هذه المساحة بشكل فني موظف درامياً، يجعل المشاهدين يشاركون في الحدث المسرحي، ويتواصلون معه، كما فعل في مسرحية «الأجداد» للشاعر البولندي آدم ميتسيكفيتش (١٧٩٨ - ١٨٥٥م)(١٥)، وكما فعل في عرض «مأساة د. فاوست» للمؤلف المسرحي الإنجليزي كريستوفر مارلو. فقد جعل جروتوفسكي الأحداث تدور في قاعة عريضة، والمشاهدين يجلسون حول موائد خشبية مستطيلة تشبه قاعات الطعام في الأديرة، وكأنهم ينتظرون رئيس الدير لتلاوة صلاة الغداء. ود. فاوست يحيي مدعويه، ونعرف أنها الوجبة الأخيرة قبل استشهاده، أو منحه جسده للشيطان تماماً، كما قدم المسيح جسده لتلاميذه في عشائه الأخير. وقد لاحظ جروتوفسكي تحول أعين المشاهدين إلى الاحمرار والشحوب، كما يقول جروتوفسكي: «كان باستطاعتنا سماع تنفسهم».

المرحلة الثانية: في هذه المرحلة تكثف نشاط جروتوفسكي بداية من العرض المسرحي المهم: «أبو كاليبسيس كوم فيجوريس» فنجده منظّراً ومكتشفاً لفكرة (المسرح الفقير) ومطبقاً لها، وقد خرج بمسرحه إلى دائرة العالم الخارجي، واحتلاله مكان الصدارة في حركة المسرح العالمي الجديد.

وبانتقال فرقة جروتوفسكي إلى مدينة (فراتسواف) البولندية تتحقق خطوة مهمة هي تخلي مسرح جروتوفسكي تخلياً كاملاً عن الأدب، بوصفه المادة الوحيدة للتفسير الفني في العمل المسرحي. وعلى المستوى التطبيقي يستعين جروتوفسكي في هذه المرحلة بفنون ليست مسرحية، مثل: الفنون التشكيلية والموسيقى مع صيغ وأشكال فنية أخرى ناتجة من بحثه الدائم في المسرح بصفته معادلاً موضوعياً لفكرة «الطقس الجماعي» الذي يتوحد فيه كيان بشري تختلف عقائد أفراده وتتباين، ويُعد الممثل فيه هو الوارث الوحيد للمسرح. فكان جروتوفسكي يرمي من وراء ذلك إلى وقوفه بجوار أداء فن الممثل على حساب الحدث المسرحي الذي يصبح فيه الممثل أضحية للوجود الإنساني. وفي عام ١٩٥٦م ينتقل بفرقته إلى مدينة (فراتسواف)، ويكتب دراسته المهمة «قريباً من مسرح فقير»، وكان العرضان المسرحيان: «الأمير الذي لاينثني» و«أكروبوليس» انعكاساً لهذه المرحلة(١٦). وقد وضع جروتوفسكي لهما السيناريو المسرحي، وقام بإخراجهما. ويصف أرفنج واردل نهاية عرض «أكروبوليس» الذي قدم في أدنبرة عام ١٩٦٨م: «لقد استحالت وجوه الممثلين إلى أقنعة جامدة، والعيون يبدو أنها قد نسيت النوم منذ أمد بعيد، والأجساد الواقفة منتبهة على نحو ميكانيكي يبدو أنها تجاوزت كل حدود الاحتمال. إنني لا أكاد أذكر صورة مسرحية أشد تأثيراً من زفاف جاكوب إلى عروسه التي تحولت لكومة نفايات، وتلك الأغنية الرقيقة أمام الأفران. في هذه اللحظات يحس المتفرج بأن جروتوفسكي يخلق الأسطورة أكثر مما يكتشفها»(١٧).

لا يرمي جروتوفسكي إلى تلقين الممثل طائفة من القواعد والإرشادات، وإنما يسعى دائمًا إلى مساعدة الممثل على النضج الذي يصل إليه عن طريق التوتر البالغ، والتجرد، والتعرية الباطنية

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة السبعينيات لمسرحه، فهي مرحلة أسفار جروتوفسكي إلى الهند عام ١٩٧٠م، وتعد هذه هي المرحلة الثالثة له إلى الشرق بعد رحلاته وبحثه عن إلهامات ومنابع جديدة لمسرحه في آسيا الوسطى عام ١٩٥٦م، والصين عام ١٩٦٢م. ويعقب ذلك تغير واضح في معمله المسرحي يُعد إنجازاً للآثار المترتبة عما يطلق عليه في منهجه بالطريق السلبي: أي الرفض للمسرح التقليدي لمصلحة ما أسماه بـ (القداسة)، وتلقى فكرة القداسة أو اللقاء المقدس - حيث إن جروتوفسكي مهتم بأن يعرض العملية الروحية للممثل، فبعد سنوات من التدريبات الصارمة يصل بالممثل إلى تلك النقطة من الوعي الحاد تماماً كما في لحظة الوجد، بحيث يصبح الممثل منفتحاً تماماً لحظة العرض، فإنها مشكلة أن يعطي الممثل نفسه، يعطيها كاملة وبكل صميميتها العميقة تماماً، كعطاء الحب. فالممثل راهب يخلق الفعل الدرامي، ويقود الجمهور إليه، في الوقت نفسه تلقى الفكرة ترحيباً واستجابة في المؤتمر المسرحي الذي عقد في جامعة نيويورك في الثالث عشر من ديسمبر/ كانون الأول ١٩٧٠م.

فكانت دعوة جروتوفسكي بتنظيم لقاء مقدس للفنانين ولمحبي المسرح وعاشقيه هي بمنزلة برنامج خاص أطلق عليه «الجبل المشتعل الرامز»(١٨) ليقوموا بإبداع عمل مسرحي يُعرض في الهواء الطلق، معتمداً على الاستثارة الفطرية لوجدان المشارك في التعبير اللحظي الفوري عما نشعر به، ويفكر فيه في اللحظة الآنية التي يعايشها في أثناء اللقاء، ويمكن أن يكون هذا التعبير الفطري إيماءة أو رقصة أو غناء، وربما يكون صراخاً أو حواراً، وأحياناً يكون منولوجاً داخلياً. فالمبدأ الأساسي هو التعبير الصادق الواضح عن النفس بشكل تلقائي عفوي. وفي عام ١٩٧٥م يصبح معمل جروتوفسكي المسرحي ملتقى جديداً في بولندا لفناني المسرح العالميين، يستمر ثلاثة أسابيع، وقد وضع هذا اللقاء العلمي - حيث تم طرح القضية الفنية للمسرح في منهج علمي كظاهرة إبداعية خلاقة ومؤثرة في الوجود الإنساني - حجر الأساس لنشوء (جامعة البحث في فنون المسرح) يقومون فيها بتوحيد التجربة، وتدارس الظاهرة في لقاءات متواصلة بهدف الوصول إلى ما أبدعته قرائح الفنانين في ميدان المسرح.

جروتوفسكي.. وتيار الثقافة الفاعلة:

لقد أفرز هذا اللقاء - لقاء ١٩٧٥م الذي جمع مبدعي المسرح ومفكريه ومنظريه، ومن بينهم: بيتربروك، وبارو، وشايكين، وجريجوري، ورونكوني، وشتاين، وجروتوفسكي، وغيرهم - ما أطلق عليه (تيار الثقافة الفاعلة) ولكي نقترب من معناها، نتأمل كلمات جروتوفسكي إذ يقول: «إن تلك الظاهرة التي أطلقنا عليها مصطلح Para Teatralna، إذا نظرنا إليها من منظور المسرح فسنجد أنها في جملتها تعني: الآثار المترتبة على (انكسار الأسوار) لهذا المسرح المتمسك بالتقاليد والمتعارف عليها في حدود أطر المسرح المغلقة. وفيما قبل كانت الصورة تبدو على الوجه الآتي: لا يوجد كل من المشاهدين وخشبة المسرح معاً في كيان متوحد، إنهما فضاءان مسرحيان منفصلان. أما الآن فالأمر يبدو بشكل آخر، الفعل المسرحي يحدث في المكان الذي توجد فيه الحادثة الدرامية، والمشارك فيها المشاهدون أولئك الذين يقومون بفعلها، فإذا قلنا لأنفسنا (الحدث يحدث في الغابة) فينبغي أن يحدث في غابة حقيقية، وليس في ديكورات تمثل غابة، وإذا قلنا: «هذا الحادث يحدث في الشمس» فلابد من أن تشرق الشمس في أثناء الحدث. باختصار تتشكل بهذه الطريقة الهوية الكاملة للمكان والزمان والحدث. فلا يوجد حينئذ ممثلون بالمفهوم الذي يفيد أن شخصاً يحقق شيئاً في مواجهة شخص آخر، وشخص ثالث يراقب الاثنين، إنهم فقط بشر يؤدون أحداثاً بعينها (أفعالاً حقيقية) مع أناس من الخارج، وهم مشاركون (فاعلون)، إنها بنية عامة مدخلية، بنية ممهدة لتلك الأحداث التي تحدث، حيث نرى الفعل (ينشأ) - من الشيء - بأسلوب طبيعي داخل معماره الخاص في بنائنا الذاتي أو خارجه، يمكن أن يحدث ذلك على الطريق، وعلى سبيل المثال: حيث يسير الجميع، ففي الطريق يحدث فعل يكون متوقعاً حيث الإمكانات تُخلق حوله لتحقيقه، في تلك اللحظة ينبثق الحدث من المشاركين، ويتم ذلك؛ لأن شخصاً ما سمح بالانبثاق والتفجر الفعلي. وخُلقت حوله ظروفه الملائمة». ويستكمل جروتوفسكي كلماته قائلاً: «الحدث هنا هو ذلك الذي يحدث في لحظة معينة، عندما يكتب الكاتب أو الشاعر كتاباً أو ديواناً، فإنه يكتب عن نفسه، عن حياته، عن قدره، عن إلزامه نفسه.. والتزاماته تجاه الآخرين، عن ذلك الذي يعرفه عن نفسه وعن الآخرين، عندئذ تستثار داخله مرحلة غير عادية لها أهمية كبرى في حياة الإنسان. هذه المرحلة هي (الثقافة الفاعلة) لتؤدي هذه الثقافة إلى وجود الثمرة الفكرية والفنية، حيث يوجد الكتاب أو الديوان الشعري الذي يغزو العالم، يأتي إلى يدي قرّوه، وهنا يخرج من مرحلة الثقافة الفاعلة إلى منهج الثقافة الساكنة... أما ذلك الذي حدث بيننا في فريقي وفي أثناء تجربتي المسرحية (أبو كاليبسا) فقد كان مجرد بروفات، وما قمنا بفعله هو بمنزلة (الثقافة الفاعلة) التي قرّبت بعضنا من بعض.. فقد جاءت إلى عالمنا (ثمرة عينية) نطلق عليها المُشاهد Oglad عبر المُشاهد (أي المتفرج).. إنها لحظة الدخول في مرحلة الثقافة الكامنة. ولكل ما سبق قررنا أن نمنح المشاهد فرصة الدخول معنا هذه المرحلة، فالتمثيل الذي نقوم به ليس فوق خشبة المسرح فقط، بل هو تمثيل عن (حيوات) عادية متباينة حيث يسقط هذا التمثيل عنا ولو لحظة. إن هذه المرحلة تعد مرحلة غير عادية، إنها (الثقافة الفاعلة)(١٩). وليس القصد أن يصبح المشارك في هذا النشاط الثقافي الفاعل ممثلاً، أو شاعراً، أو رساماً، كلا، فالمقصود هو التمهيد للبشر للدخول فيما يحدث للإنسان عند مرحلة الإبداع. حاولنا اللحاق للوصول إلى تلك الدرجة التي تمنحنا إمكانية فتح مغاليق هذا الإبداع الذي يُعدُّ للبشر غير المبدعين شيئاً مغلقاً.. أقرب إلى التابو السري».

آرتو

جروتوفسكي.. والفنون الطقسية

إذا ما استرجعنا المراحل المختلفة لأعماله نكتشف أن حصيلة خبراته تمثل رحلة إبداعية طولها أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، هي

إنجاز فعّال ومؤثر يتوّج بها رحلة حياته. ومرحلة الفنون الطقسية هي المرحلة الرابعة التي بدأت حينما استقر في الولايات المتحدة ليعمل أستاذًا للدراما بجامعة كاليفورنيا عامي ١٩٨٣و١٩٨٤م، وكان يقوم بتدريس ما يسمى (الدراما الموضوعية)(٢٠)، وهي - كما يعرفها جرتوفسكي: «مصطلح لأصول أو عناصر الطقوس القديمة لثقافات مختلفة لها ملامح دقيقة.. وهي لذلك موضوعية في تأثيرها في المشتركين، فهي جزء من اللاهوت الخالص مع مغزى رمزي»، وكان يعاونه أساتذة متخصصون في الطقوس القديمة من ثقافات مختلفة، بالإضافة إلى متخصصين في الموسيقى العرقية، والرقص العرقي، والعروض المسرحية، وتاريخ الأديان. وفي عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥م كان عليه أن ينعزل، ويدرس مبادئ هذه الحركات الاستعراضية والرقصات والأغاني والتعاويذ والبناء اللغوي. وكان يقوم بعملية ترشيح وتنقية للوصول من المعقد إلى البسيط، وكان تركيزه نحو تسجيل الاكتشافات التي يصل إليها بحثه؛ لهذا لم تكن مسرحته لهذه الطقوس مستوحاة من التراث الطقسي مباشرة، بل كان ذلك نابعًا من أفكاره وتصوراته لصياغة شيء محسوب يتسم بعقلانية مقصودة.

جروتوفسكي والممثل

يقول جروتوفسكي: «إذا كان المسرح هو الوسيلة التي تجعلنا نمد ذواتنا إلى خارجها، ونتجاوز انغلاقنا على أنفسنا؛ وليملأ كل منا الفراغ الذي بداخله، أو بالأحرى تحقيق ذاتنا، وهذه العملية متطورة، ويتم فيها ببطء الكشف عما هو مظلم في داخلنا حتى يصبح شفافًا، وهذا صراع مع حقيقة الذات؛ وبهذا الجهد يُعرّى القناع الذي يضعه كل منّا على وجهه وروحه في حياته»(٢١). ولذلك كانت التدريبات المتمركزة حول خلق الحالة الروحية عند الممثل، ومحاولة إيصاله إلى الحد الأقصى من عُريه الداخلي الكامل، وكشفه عن الأسرار القابعة بداخله. فعلى جهاز الممثل بدنيًا ونفسيًا أن يلفظ كل العوائق والحواجز التي تقف عثرة أمام تفتح نفسه. ولذلك كان يعرّض ممثليه لسلسلة من الصدمات لكي يضعهم أمام حقيقة مهمة هي أن هناك في العالم فنًا اسمه التمثيل ينبغي الانقطاع له. ولذلك يجب أن يصل إلى درجة عالية من التوتر، وأن يبوح بداخلياته بشكل متجرد تمامًا من الأنانية، فهو يقدم نفسه هدية كاملة. ويقول جروتوفسكي: «يجب أن نتعلم كيف نكسر الحواجز التي تحيطنا، ونحرر أنفسنا مما يشدنا إلى الخلف، نحرر أنفسنا من الكذب الذي نصنعه يوميًا لأنفسنا وللآخرين، إننا نضحي بكل هذه الطاقة من أجل فننا؛ لكي نحطم القصور الذي تسبب فيه جهلنا، وافتقارنا إلى الشجاعة باختصار؛ لكي نملأ الفراغ في داخلنا، لكي نحقق أنفسنا، فالفن ليس حالة روحانية، بمعنى أنه ليس لحظة غير عادية، أو غير منطقية من الإلهام. الفن هو إنضاج وتطوير، وانتشال يمكّننا من النفاذ من الظلام إلى الضوء الساطع»(٢٢).

المراجع

١. «مسرح المسرحيين - ثلاث مقدمات»، صافيناز كاظم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مؤسسة مطابع معتوق، بيروت - لبنان ١٩٨٠م.
٢. «النقطة المتحولة - أربعون عامًا في استكشاف المسرح»، بيتربروك، ترجمة: فاروق عبدالقادر، عالم المعرفة، ع ١٥٤، سلسلة كتب ثقافية شهرية - يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩١م.
٣. «جيرسي جروتوفسكيوالممثل القديس»، سامي صلاح. مجلة المسرح، العدد الخامس، أغسطس ١٩٨٠م، جمعية نادي المسرح.
٤. «جيرسي جروتوفسكي. والممثل القديس»، سامي صلاح. مجلة القاهرة، العدد (٥٩)، ١٥ مايو/أيار ١٩٨٦م «مسرح فقير غني»، د. هناء عبدالفتاح غبن.
٥. «مقدمة كتاب: مسرح جروتوفسكي الفقير»، بيجي جروتوفسكي، التقديم د.هناء عبدالفتاح، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب (٥٦).
٦. «فن المسرح»، قسطنطين ستانسلافسكي، ترجمة: لويس بقطر، مراجعة: محمد فتحي، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ٦٨.
٧. «فن المسرح - الجزء الثاني»، أوديت أصلان، ترجمة: د. سامية أحمد سعد، نشر هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، سبتمبر/أيلول١٩٧٠م.
٨. «بريخت»، رونالد جراي، ترجمة: نسيم مجلي، مراجعة: د. أحمد كمال زكي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.
٩. «فن المسرح - الجزء الأول)، أوديت أصلان، ترجمة: د. سامية أحمد سعد، الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة - نيويورك، يونيو/حزيران ١٩٧٠م.
١٠. «نحو مسرح فقير»، جيرسي جروتوفسكي.
١١. «مسرح المسرحيين - ثلاث مقدمات»، صافيناز كاظم.
١٢. «نحو مسرح فقير»، جيرسي جرتوفسكي.
١٣. «مسرح المسرحيين، ثلاث مقدمات»، صافيناز كاظم.
١٤. «جيرسي جروتوفسكي والممثل القديس»، سامي صلاح، «مجلة نادي المسرح، العدد الخامس - أغسطس/آب ١٩٨٠م - عن جمعية نادي المسرح، القاهرة.
١٥. مجلة القاهرة - العدد ٥٩، ١٥ مايو/أيار ١٩٨٦م - مقالة بعنوان «مسرح فقير غني» د. هناء عبد الفتاح غبن.
١٦. من مقدمات كتاب «نحو مسرح فقير» تأليف: جيرسي جروتوفسكي، د. هناء عبدالفتاح غبن - الهيئة العامة لقصور الثقافة، مكتبة الشباب ٩٩٧.
١٧. «المسرح التجريبي من ستانسلافسكي إلى اليوم»، جيمس روس، إيفانز، ترجمة: فاروق عبدالقادر، دار الفكر المعاصر، القاهرة.
١٨. مقدمة كتاب «نحو مسرح فقير»، جيرسي جروتوفسكي - للدكتور سمير سرحان، المهرجان الثاني للمسرح التجريبي، الهيئة العامة المصرية للكتاب - ١٩٨٩م.
١٩. «الورشة البولندية - بيجي جروتوفسكي» تقديم وترجمة د. هناء عبدالفتاح غبن، مجلة المسرح، مجلة الثقافة المسرحية، العدد ٤٨ نوفمبر/تشرين الثاني، ١٩٩٢م
٢٠. «في التجريب المسرحي.. جروتوفسكي والفنون الطقسية»، عبدالغني داود، «مجلة المسرح، مجلة الثقافة المسرحية، العدد ٦٤، مارس/آذار ١٩٩٤م.
٢١. «المسرح التجريبي من ستانسلافسكي إلى اليوم»، جيمس روس، إيفانز، ترجمة: فاروق عبدالقادر، دار الفكر المعاصر، القاهرة ١٩٧٩م.
٢٢. المصدر السابق نفسه.



الأمير عبدالله يرعى
حفل انطلاق الجنادرية (١٧)

تكريم الأمير عبدالله الفيصل
في القاهرة وبيروت

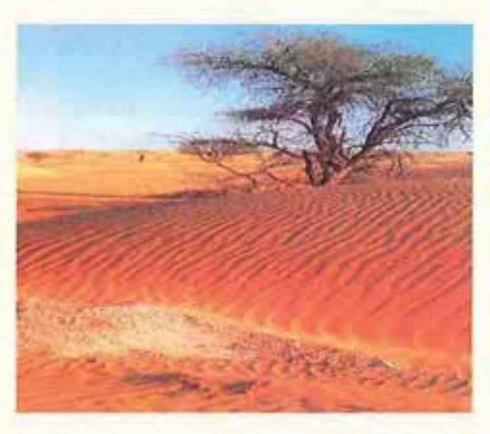
مؤسسة الفكر العربي وتحسين
صورة العرب

المؤتمر الإسلامي الثالث لوزراء الثقافة
وحماية المعالم الثقافية في فلسطين

جوائز اليونسكو والإيسيسكو وكلاوس
ونجيب محفوظ وثربانتس

رحيل شاعر الزنوجية
ليوبولد سنغور والمشعان

المتنبي وشرّاحه في مركز الملك فيصل

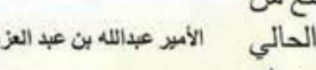


خاتمة المطاف

عاشقة البادية
ميسون البَحْدَليَّة

الأمير عبدالله يرعى حفل انطلاق الجنادرية (١٧)




الأمير عبدالله بن عبد العزيز

يفتتح صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني في التاسع من شهر ذي القعدة الحالي فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة «الجنادرية» في دورته السابعة عشرة، والذي ينظمه الحرس الوطني كل عام.

يتضمن المهرجان عدداً من الفعاليات الثقافية المتنوعة التي تضم الأوبريت والندوات والمحاضرات والأمسيات الشعرية والعروض المسرحية والفنون التشكيلية وغيرها من الفنون الشعبية، إلى جانب معرض الكتاب والإصدارات الثقافية.

يشمل اليوم الأول من المهرجان سباق الهجن الرئيس السنوي، ثم الحفل الخطابي وإلقاءً شعرياً من الدكتور عبدالرحمن العشماوي، وقصيدة شعبية للشاعر خلف بن هذال العتيبي، ثم أوبريت «أنشودة العروبة» من كلمات الدكتور غازي القصيبي وألحان الفنان محمد عبده، ويشارك في أدائه نخبة من الفنانين العرب، وقام بإعداد الرؤية الفنية والإخراجية الفنان السوري نجدة أنزور.

ويبدأ النشاط الثقافي في يوم الخميس العاشر من ١٠ ذي القعدة بحفل خطابي يتضمن قصيدة عن المناسبة للشاعر عيسى جرابا، ثم الندوة التكريمية للأستاذ عبدالله بن خميس الشخصية الثقافية التي يكرمها المهرجان هذا العام. ويشارك فيها كل من: د. أحمد الضبيب، و د. عبدالرحمن الأنصاري، و د. أسعد بن سليمان عبده، و د. عبدالرحمن الشبيلي، وسيتم هذا العام تكريم خمسة من رجال الأعمال السعوديين لإسهاماتهم الوطنية.

ومن المحاضرات التي يشتمل عليها المهرجان محاضرة بعنوان: «خادم الحرمين الشريفين والقضية الفلسطينية»، يلقيها صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز أمير منطقة الرياض، ويقدمها صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالله بن عبدالعزيز نائب رئيس الحرس الوطني المساعد للشؤون العسكرية، وندوة بعنوان: «قضية فلسطين القدس والحق التاريخي»، يديرها سمو الأمير الدكتور تركي بن محمد بن سعود، ويحاضر فيها كل من: د. يوسف القرضاوي، و د. يوسف علي الثقفي، و د. مهدي عبدالهادي، ومنير شفيق، والمهندس رائف نجم، ومحاضرة بعنوان: «الجامعة العربية.. رؤية مستقبلية»، يلقيها الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى. وتعقبها ندوة بعنوان «فلسطين: الإنسان والأرض» يشارك فيها كل من د. أحمد صدقي الدجاني، والشيخ عكرمة صبري، و د. عصام أحمد البشير، ومصطفى بكري، وفوازتركي، وعبدالهادي بوطالب.

كما يتضمن المهرجان عناوين محاضرات أخرى هي: «العولمة ورؤية إسلامية» للدكتور محمود سفر، ومحاضرة بعنوان «قضية فلسطين والإعلام الغربي» يشارك فيها كل من: د. نهاد عوض، ورضا لاري، وبلال الحسن، و د. إدموند غريب. ومحاضرة بعنوان «مشكلات المياه في المستقبل» للدكتور محمد القنيبط. وندوة بعنوان «الإبداع في


من احتفالات الجنادرية

الأدب»، يشارك فيها كل من د. محمد الحناش، ود. عبدالعزيز السبيل، ود. حسن الهويمل، ود. عبدالقادر القط، ومحاضرة عن «موقف الإسلام من الإرهاب»، ويتوقع أن يلقيها الشيخ صالح اللحيدان.

ويشتمل المهرجان على عدد من الأمسيات الشعرية منها: «أمسية القدس في قلوب الشعراء»، يشارك فيها عشرة شعراء، وأمسية شعرية فصيحة من اختيار الشعراء يشارك فيها سبعة شعراء متميزين. وأمسيتان للشعر الشعبي. ويختتم النشاط الثقافي بمسابقة القرآن الكريم.

وفي يوم السبت ١٩ من ذي القعدة يبدأ النشاط الثقافي النسائي بمحاضرة بعنوان «خادم الحرمين الشريفين وعشرون عاماً من العطاء» للأميرة الدكتور موضي بنت منصور بن عبدالعزيز. وندوة بعنوان: «تربية الطفل في ظل المؤثرات الإعلامية المعاصرة» تشارك فيها كل من: د. أسماء باهرمز، ود. هدى الطويل، ووفاء السبيل، ومحاضرة بعنوان «المرأة الفلسطينية والانتفاضة» للدكتورة فاطمة البيوك، ويختتم النشاط الثقافي النسائي بأمسية أدبية تشارك فيها كل من اعتدال موسى ذكر الله، وشروق السعيد، ولطيفة قاري، وحصة العوضي.

ابن خميس: الشخصية الثقافية للجنادرية (١٧)

أعلن صاحب السمو الملكي الأمير متعب بن عبدالله بن عبدالعزيز نائب رئيس اللجنة العليا للمهرجان في مؤتمر صحفي عقده في ١٤ شوال الماضي بمناسبة انطلاق الدورة السابعة عشرة للجنادرية أن الأديب عبدالله بن محمد بن خميس هو الشخصية الثقافية المختارة في هذا العام.


ابن خميس

ويعد ابن خميس بذلك الشخصية الثقافية السادسة التي يتم تكريمها في مهرجان الجنادرية منذ بدء التقليد في سنة ١٤١٦هـ، إذ سبق تكريم كل من الأساتذة: حمد الجاسر، ومحمد بن أحمد العقيلي، وحسين عرب، ومحمد فقي، ويحيى العلمي، وعبدالكريم الجهيمان.

والأديب عبدالله بن خميس من مواليد قرية الملقى من ضواحي الدرعية بنجد سنة ١٣٣٩هـ، ونشأ بالدرعية ودرس بأحد كتاتيبها، وواصل التعليم على يد والده الذي كان على جانب من علوم الشريعة والتاريخ والأدب، ثم التحق بمدرسة دار التوحيد في مدينة الطائف سنة ١٣٦٤هـ، ونال الشهادة الابتدائية والثانوية، وحصل على الليسانس من كلية الشريعة واللغة العربية بالرياض.

أسس مجلة الجزيرة التي استمرت حتى سنة ١٣٨٣هـ، ثم تحولت بعدها إلى صحيفة الجزيرة اليومية، وهو عضو في هيئة تحرير المجلة العربية، ومجلة الدارة، وعضو في بعض المجامع اللغوية العربية، وحاصل على جائزة الدولة التقديرية لسنة ١٤٠٣هـ ووسام تكريم وميدالية فضية من مجلس التعاون لدول الخليج العربية سنة ١٤١٠هـ، ووشاح فتح مع ميدالية من منظمة التحرير الفلسطينية، ووسام الشرف الفرنسي من درجة فارس قلده إياه الرئيس الفرنسي ميتران، ووسام الثقافة من تونس قلده إياه الحبيب بورقيبه، وشهادة تكريم من أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، وميدالية ذهبية من جامعة الملك سعود، وميدالية ذهبية وأخرى فضية من جامعة الملك عبدالعزيز، وقلادة مركز الأمير سلمان الاجتماعي.

صدر له ما يزيد على ١٥ كتاباً كان أهمها: معجم اليمامة، ومعجم جبال الجزيرة، ومعجم أدب الجزيرة، وأهازيج الحرب أو شعر العرضة، وبلادنا والزيت، ونتائج حرب حزيران، والشوارد (ثلاثة مجلدات)، ومن القائل (سلسلة من الشعر الشعبي) (أربعة مجلدات)، ومن جهاد القلم - نقد، وراشد الخلاوي - حياته وشعره، والدرعية، وديوان على ربا اليمامة.. وأصداء الجزيرة العربية، ومن أحاديث السمر (مجموعة قصصية)، وشهر في دمشق، و(جولة في غرب أمريكا) (رحلات)، وبيان أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل.

تكريم عبدالله الفيصل في القاهرة وبيروت



الأمير عبدالله الفيصل

شهد شهر شوال الماضي حفلي تكريم لصاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل في كل من القاهرة وبيروت، فبحضور صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل أمير منطقة عسير، ووزير الثقافة المصري فاروق حسني وعدد من المثقفين والإعلاميين والفنانين المصريين والعرب كرمت دار سعاد الصباح الشاعر صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل بالقاهرة في الرابع من شوال تقديراً لإبداعه الشعري وعطائه الثقافي.

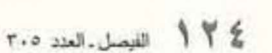
وفي بيروت، أقامت مؤسسة الحريري في مساء التاسع والعشرين من الشهر نفسه حفل تكريم للأمير عبدالله الفيصل، شهده الأمير خالد الفيصل، كما حضره نيابة عنه صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن عبدالله الفيصل، وشهده ممثلاً للرئيس اللبناني وزير المالية فؤاد السنيورة، ووزير الصناعة جورج أفرام، والنائبة بهية الحريري، وسفير خادم الحرمين الشريفين بلبنان وعدد من أعضاء السلك الدبلوماسي والقنصلي في لبنان.

سعاد الصباح

وقال الوزير حسني في كلمته في حفل التكريم الذي أقيم بالقاهرة: «إن هذه المناسبة ذات أبعاد كثيرة ودلالات متنوعة فهي تربط الشعوب العربية برباط الأخوة والتواصل الثقافي والمعرفي»، وأضاف: «إنه مع كثرة ترديد الناس لقصائد عبد الله الفيصل في كل المناسبات ازدادت مكانة هذا الشاعر في القلوب»

وأشاد بالدكتورة سعاد الصباح وجهودها في المجال الثقافي، وفي تكريم شخصية مرموقة مثل الأمير الشاعر عبدالله الفيصل.

وقالت الدكتورة سعاد الصباح في كلمتها التي ألقاها نيابة عنها نجلها الشيخ عبدالله المبارك الصباح: «إن اختيار الأمير الشاعر عبدالله الفيصل هذا العام جاء نتيجة طبيعية لما أعطى في الشعر الكلاسيكي».



وقد اعتذر الشاعر الأمير عبدالله الفيصل عن عدم حضوره هذه المناسبة وذلك لظروفه الصحية.

وقال في كلمته التي ألقاها نيابة عنه ابنه الأمير محمد العبدالله الفيصل: «لظروفي الصحية يؤسفني عدم الحضور لهذه المناسبة التي تقام في بلد أحمل ذكرياته الجميلة، وأعترف لمصر بفضل كبير ودور بارز في ثقافتي وشعري حيث ألهمني النيل الخالد صفاء الحب وشفافية الشاعر إلا أنني أثمن هذه المبادرة التي تحمل حبّاً كبيراً».

وتحدث في المناسبة كل من الدكتور عبدالله المعطاني، والناقد صلاح فضل مشيدين بأشعار الأمير عبدالله الفيصل وإبداعه.

وبعد كلمات الافتتاح تم عرض فيلم وثائقي عن الأمير الشاعر بعنوان «ربع الدنيا» من إخراج المخرج السوري أنور القوادري.

كما أقيمت في اليوم الثاني من التكريم ندوتان علميتان تناولتا أشعار عبدالله الفيصل وإبداعه، شارك في الندوة الأولى كل من مختار أبو غالي، وعبداللطيف عبدالحليم، وفوزي عيسى، وأدارها الدكتور عبدالقادر القط. أما الندوة الثانية فشارك فيها كل من نعمات فؤاد، ومدحت الجيار، وسيد قطب، ومجدي توفيق، ووليد منير وأدارها عز الدين إسماعيل.

وعلى هامش هذا الاحتفال أقيمت أمسية شعرية حضرها عدد كبير من الشعراء والإعلاميين، وشارك فيها كل من الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة، والشاعر محمد التهامي، وأحمد سويلم، والناقد الشاعر محمد أبو دومة، والدكتور أحمد تيمور.

يذكر أن دار سعاد الصباح سبق أن كرمت كلاً من عبدالعزيز حسين رائد التنوير في الكويت، والشاعر البحريني إبراهيم العريض، والشاعر نزار قباني، ووزير الثقافة المصري الأسبق ثروت عكاشة.

وفي بيروت أعرب وزير المالية اللبناني عن سعادته للاحتفاء بالأمير الشاعر عبدالله الفيصل الذي يعلق بقبوله هذا التكريم في بيروت عودتها بيئة للثقافة العربية الناهضة. ووصفت بهية الحريري الأمير عبدالله الفيصل بأنه علم من أعلام النهضة العربية الحديثة الذين أيقظوا الأمة من سباتها.

وشهد الحضور فيلماً وثائقياً تناول مسيرة الأمير الشاعر.

مؤسسة الفكر العربي وتحسين صورة العرب


الأمير خالد الفيصل

عقد صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل رئيس مؤسسة الفكر العربي في القاهرة الشهر الماضي لقاءات مع الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى، وشيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوي، ووزير الإعلام المصري صفوت الشريف، والروائي العربي نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل العالمية.

وأكد سموه ضرورة العمل على تحسين صورة العرب التي تعرضت للتشويه المتعمد عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول الماضي، ودعا رجال الأعمال والمستثمرين إلى المبادرة إلى تقديم دعم مالي للصندوق الذي أنشأته جامعة الدول العربية لدعم التحرك الجماعي العربي لمواجهة ما يتعرض له العرب من هجمة إعلامية.

ويتبنى سموه مشروعاً ثقافياً لتحسين صورة الإنسان العربي، ويتضمن المشروع إنتاج فيلم يؤكد أن الطفل العربي ليس سوى طفل بريء، وهو غير إرهابي، على أن يوزع هذا الفيلم في الغرب.

ورداً على سؤال حول الآليات التي ستتخذ لتنفيذ مشروع مؤسسة الفكر العربي أجاب سموه قائلاً: إن أحداث «سبتمبر جاءت لتؤكد ضرورة وجود مثل هذه المؤسسة. وأضاف أنه يجب أن نقدم للعالم الصورة الحقيقية والمشرّفة للإنسان العربي رداً على التيارات المعادية التي تواجه الأمة العربية، وتشوه صورة الإنسان العربي».

وأكد أن مؤسسة الفكر العربي انتهجت الآن أسلوباً جديداً لتحريك الساحة الفكرية في العالم العربي، ورأت خلال اجتماعها في بيروت أن يكون أول أعمالها إعلامياً.

ولفت سموه في تصريح لوسائل الإعلام، أنه تم الاتفاق على تدعيم التعاون الثقافي بين مؤسسة الفكر العربي والجامعة العربية للقيام بعدد من الأنشطة المشتركة تتمثل في إقامة مؤتمر ثقافي عربي في القاهرة في الخريف المقبل لمتابعة التحرك العربي في الدفاع عن الثقافة العربية والحضارة الإسلامية بعد الهجمات الانتحارية التي تعرضت لها الولايات المتحدة.

ومن جانبه أكد الأمين العام للجامعة العربية إلى ضرورة التنسيق بين الجامعة ومؤسسة الفكر العربي، مشيراً إلى أن الهجمة الثقافية الغربية التي يتعرض لها كل مواطن عربي الآن هي هجمة لها أسباب سياسية، ويجب التعامل الفوري والسريع معها.

وعن أسباب استهداف المملكة العربية السعودية ومصر على وجه التحديد بهذه الهجمة قال موسى: إن الأمر يرجع في الأساس إلى المواقف السياسية التي تتبناها الدولتان تجاه القضية الفلسطينية، وأشار إلى أن ما يثار حول صراع الحضارات أمر خطير يستوجب التعامل الجدي والحاسم معه.

وفي إطار الجهود التي يقوم بها رئيس مؤسسة الفكر العربي صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل لتحسين صورة العرب والمسلمين بسبب التشويه المتعمد من الإعلام الغربي بعد أحداث ١١ سبتمبر/ أيلول الماضي عقد سموه في باريس لقاء مع السيد كويشيرو ماتسورا المدير العام لمنظمة اليونسكو للبحث في سبل التعاون بين مؤسسة الفكر العربي واليونسكو، كما تباحثا حول تطورات الأحداث العالمية الأخيرة وانعكاساتها على الفكر والثقافة.

كما عقد سموه مؤتمراً صحفياً في نادي الصحافيين العرب في باريس الذي يرأسه الصحفي ياسر هواري، تحدث فيه عن أهداف مؤسسة الفكر العربي التي تقوم على ثوابت الأمة العربية والإسلامية وتنمية التوجهات التضامنية، وقال: إن هذه المؤسسة أهلية بعيدة عن التيارات السياسية المتصارعة وعن الأحزاب والتوجهات السياسية المختلفة، وأضاف أنها مؤسسة الفرد العربي والمثقف العربي. وأكد أن المؤسسة ستتولى العناية بمختلف المعارف والعلوم، وبالدراسات المستقبلية والإفادة من التقنيات الحديثة، وتكريم الرواد، وتشجيع المبدعين، ورعاية الموهوبين من أبناء الأمة العربية، وتحقيق التواصل مع الأفراد والمؤسسات العربية المهاجرة.

وقال: إن مؤسسة الفكر العربي ستصدر تقريراً سنوياً عن الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية والفكرية والتعليمية والتنموية في العالم العربي. واقترح الأمير خالد الفيصل أن تنشئ المؤسسة آلية للرد على كل ما يكتب أو يذاع عن العالم العربي في وسائل الإعلام الأجنبية خلال ٢٤ ساعة.

وأعلن أن المؤسسة تدرس تنفيذ أول عمل لها، وهو استحداث البرامج الإعلامية والثقافية لتصحيح المفاهيم السلبية في العالم العربي. وتوقع أن تتم ترجمة الكتب والدراسات العربية إلى لغات أجنبية حتى تكون في متناول القارئ الغربي، وقال: إن المؤسسة تنوي دعوة مفكرين وصحافيين من المعادين للعالم العربي إلى مؤتمرها الأول الذي سيعقد هذا العام في القاهرة بعنوان «إعلام الفكر وفكر الإعلام، والإعلام العربي رؤية مستقبلية»، وذلك للتحاور معهم، وتوضيح الحقائق لهم.

وزار الأمير خالد الفيصل معهد العالم العربي في باريس، واتفق مع مديره السيد ناصر الأنصاري على التعاون المشترك بين مؤسسة الفكر العربي ومعهد العالم العربي لمواجهة المتغيرات الدولية، والتصدي للهجمة الإعلامية الغربية على العرب والمسلمين، ولاستيعاب الكفاءات العربية في المهجر.

حلقة نقاش عن شرّاح ديوان المتنبي بمركز الملك فيصل

نظم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية حلقة نقاش حول كتاب «المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي» تصنيف أبي العباس أحمد بن علي بن معقل الأزدي المهلبي (ت:٦٤٤هـ) الذي حققه الدكتور عبدالعزيز بن ناصر المانع، وذلك في ٢٢ شوال ١٤٢٢هـ (٦ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢م) بقاعة المحاضرات التابعة للمركز بمبنى مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالرياض. شارك فيها كل من الدكتور أحمد محمد الضبيب، والدكتور محمد عبدالرحمن الهدلق، والدكتور عبدالله بن سالم المعطاني الذي بدأ الحديث فأشار إلى أهمية تحقيق التراث، وتقديم قراءات فاعلة له، من أجل بث الروح فيه؛ لأن التراث العربي تجارب إنسانية عميقة، ورؤى حضارية مؤسسة، كما نوه بقيمة ما قام به المحقق «الذي قدم عملاً جليلاً وجهداً كبيراً بروح العلم»، وهو يتناول شرّاح أبي الطيب المتنبي «الكبير القدر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس».

ثم تحدث محقق الكتاب الدكتور عبدالعزيز المانع موضحاً علاقته بالكتاب فذكر أنها تمتد إلى ما يقرب من ربع قرن من الزمان عندما أهداه الدكتور حسن الشماع مستلة من نص حققه ونشره عنوانه «مناظرة بين أبي الطيب والحاتمي».

وعندما عثر المحقق على مخطوط «المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي»، وعرضه على الدكتور الشماع، رأى أنه كتاب ضخم يحتاج إلى وقت وجهد كبيرين، وصرف النظر عنه، ثم أشار الدكتور محمد الهدلق على المانع بتحقيق هذا الكتاب، وكان ذلك في سنة ١٤١٥هـ، وقدم له العمل كاملاً مصوراً على ورق في أجزائه الخمسة.

وعندما بدأ أولى خطوات العمل عثر على نسختين للكتاب إحداهما في مكتبة فيض الله بإستانبول مكتوبة - كما تقول مصادر فيها فهارس المخطوطات، وكما يقول كل من تحدث عنها ووصفها - في القرن الثامن الهجري، والأخرى في مكتبة عارف حكمت بالمدينة مكتوبة في القرن العاشر عن النسخة السابقة.


عبدالله المعطاني وعبد العزيز المانع

وانتهى الدكتور المانع - كما يقول - إلى أن نسخة فيض الله هي نسخة المؤلف نفسه، وأنها كتبت بين سنتي ٦٣٠هـ و٦٤٠هـ، وقدم دليله على ذلك.

وتوجد في المملكة العربية السعودية نسختان من نسخة فيض الله الأولى في مكتبة جامعة الملك سعود، والثانية في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وشغل وجودُ نقص في هاتين المصورتين المحققَ الذي سافر إلى القاهرة للتأكد من نسخة معهد المخطوطات العربية هناك التي تمَّ منها تصوير النسختين الموجودتين

في المملكة. وهناك وجد النقص قائمًا، فسافر إلى إستانبول للاطلاع على الأصل الموجود في مكتبة فيض الله، فوجده كاملاً، وبعد جهد جهيد قام بتصويره.

أما نسخة عارف حكمت فهي رديئة، ومنقولة عن نسخة فيض الله، ولكن - كما يقول - كان لابد من الاعتماد عليها.

أما شروح ديوان المتنبي، فلكل منها قصة سردها المحقق تبين مقدار ما بذله من جهد في الحصول عليها من أجل تحقيق هذا الكتاب.

وبعد انتهاء محقق الكتاب من حديثه شرع الدكتور أحمد بن محمد الضبيب في تقديم ملاحظاته على منهج التحقيق، فأشار إلى أن التساؤل عن لماذا ألف ابن معقل الكتاب؟ ولمن ألفه؟ ومتى ألفه؟ وكيف رتبه؟ مقحم وسط وصف نسختي فيض الله وعارف حكمت، كذلك تناول المحقق منهج ابن معقل في تأليف كتابه في غير موضعه، وعاد الضبيب ليقول: إن المحقق قام بكل ما يليق بأمثاله من المحققين المجودين من تتبع مصادر المؤلف في أصولها، وتخريج نصوص الشواهد من مظانها في كتب التراث، وقراءة النص قراءة جيدة للوصول إلى النص الصحيح، وضبط النص والاجتهاد في شكله، واليقظة العلمية من حيث ملاحظة الفروق، والسقط، والخرم، والانتباه إلى أدق التفاصيل في النص، وحسن استخدام الإحالات داخل الكتاب وخارجه.

وقسم الضبيب نظراته في التحقيق إلى نظرات عامة، ونظرات تخص القراءة والضبط، ونظرات تخص الشواهد والتخريج.

وفي النظرات العامة انتقد وضع المحقق ما حذفه المؤلف في الحاشية، ووضع ما جاء من استدراك للمؤلف بين مربعين، مادام أنه وضع في مكانه الصحيح، وتناولت الملاحظات تشكيل الكتاب، ووصفه بأنه بلا منهج، وأخذ على المحقق وضع كلمة «وأقول» عند نهاية ما يقتبسه المؤلف ابن معقل من أقوال الشرّاح، لأن ابن معقل يورد أحيانًا كلام الشارح ثم يرد عليه مباشرة بقوله (وأقول)، و«أحيانًا يورد كلام ابن جني ثم يورد بعده كلامًا لشارح



أحمد الضبيب ومحمد الهدلق

آخر لا يوافق ابن جني، ويكتفي بذلك»، كما أبدى الضبيب عدم اقتناعه باستعمالات بعض الألفاظ، وانتقد إكثار المحقق من كلمة «انظر» في حواشيه، وإغفاله ترتيب مصادر التخريج ترتيبًا تاريخيًا، وعدم إثباته في فهرس المصادر والمراجع بعض أسماء المصادر.

وختم النقاش الدكتور محمد بن عبدالرحمن الهدلق مقدمًا رؤيته مشيرًا إلى أنها قراءة تعريفية وليست نقدية.

وقال الهدلق: إن المجال لايتسع للحديث عما أثاره أبو الطيب المتنبي في كل بلد حلّ به سواء في حلب أو مصر أو بغداد أو فارس.

وأضاف أن ابن معقل حين اختار شرح ابن جني، وأبي العلاء المعري، وأبي زكريا التبريزي، والكندي، والواحدي لديوان المتنبي إنما كان ذلك لأن هذه الشروح هي الأكثر تداولاً في عصره، وقد ذكر أن هدفه أن ينبه على ما أغفلوه، ويهدي إلى ما أضلوه، ويبين ما جهلوه.

ويوضح هذا الكتاب النقاش الحاد الذي كان يدور بين النحاة واللغويين من جهة، والشعراء ونقاد الأدب من جهة أخرى، إذ كان الأخيرون يرون أن الأولين ليسوا مؤهلين للحكم على الأدب.

وأخذ ابن معقل على ابن جني تخريجاته النحوية واللغوية، أما أهمية شرحه فمصدرها الارتباط المباشر الذي كان بينه وبين المتنبي.

ولكون أبي العلاء المعري شاعرًا وأديبًا وناقدًا، لم يشأ ابن معقل أن يقسو عليه قسوته على ابن جني، وأخذ عليه شرحه معاني بعض الألفاظ والعبارات والكلمات وتركه أخرى تحتاج إلى الشرح، كما أنه في شرحه - أحيانًا - لا يزيد على إعادة كلام المتنبي، إلى جانب أخطائه في شرح معاني بعض المفردات اللغوية. ومن مآخذ ابن معقل على التبريزي تفسيره بعض الأبيات.

ورفق ابن معقل - كما يقول الهدلق - كثيرًا بشيخه الكندي، إعزازًا له وضعه مع هؤلاء الفحول، وإن لم يسلم من سخريته.

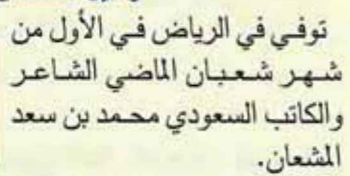
واعترف للواحدي بأنه أقدر الشراح على استخراج

المعاني، وأشار إلى شهرته الواسعة، ومع ذلك لم يسلم من وصفه بالجهل وعدم الفهم.

ومن مصادر أهمية كتاب ابن معقل - في رأي الهدلق - إثارته عدداً من القضايا النقدية مثل العناية بالمعاني والمبالغة والسرقات الأدبية، والمجاز، وتأويل الشعر، كما أنه تميز بالدقة والموضوعية والإتقان، ورجع عن بعض آرائه عندما تبين له الوجه الصحيح للأمر.

وقدم عدد من الحضور مداخلات وأسئلة أغنت النقاش حول هذا الكتاب المهم.

رحيل المشعان


محمد المشعان

توفي في الرياض في الأول من شهر شعبان الماضي الشاعر والكاتب السعودي محمد بن سعد المشعان.

والراحل من مواليد سنة ١٣٥٢هـ في مدينة الرياض، وحصل على الليسانس في العلوم الشرعية من كلية الشريعة بالرياض، كما حصل على دبلوم التربية الخاصة في تعليم المكفوفين من معهد الزيتون بالقاهرة، وتنقل في الوظائف الإدارية حتى أصبح المدير العام لبرامج التعليم الخاص بوزارة المعارف السعودية.

صدرت له خمسة دواوين هي: «نشوة الحزن» سنة ١٣٩٩هـ، و«ومضات» سنة ١٤١٠هـ، و«رباعيات»، و«ألغاز» سنة ١٤١٠هـ، و«إضاءات» سنة ١٤٠٥هـ، و«غرابيل» سنة ١٤١٣هـ.

وله مشاركات كثيرة عبر الصحف والمجلات المحلية شعراً ونثراً، وكان له زاوية دائمة في جريدة الرياض اليومية.

أوراق النرجس تفوز بجائزة نجيب محفوظ

فازت الروائية المصرية سمية رمضان بجائزة نجيب محفوظ للرواية العربية لعام ٢٠٠١م التي تمنحها الجامعة الأمريكية كل عام في ذكرى ميلاد الأديب نجيب محفوظ الذي أكمل هذا العام التسعين، وتبلغ قيمة الجائزة ألف دولار أمريكي، والرواية الفائزة عنوانها «أوراق النرجس»، وهي صادرة عن دار شرقيات بالقاهرة في عام ٢٠٠١م.


نجيب محفوظ

وجاء في حيثيات منح الجائزة التي قدمها المحكمون: «أن رواية أوراق النرجس شديدة التعقيد في التركيب والدلالة، وهي تدفع التقنيات الحداثية إلى تخومها القصوى لتبدع عملاً مميزاً نابضاً بالتوتر الخلاق على مسار السرد»، وتشير الحيثيات إلى أن الكاتبة عبرت عما يستعصي على التعبير، وأفصحت عما لا يمكن قوله مباشرة بتقديم الجاد ملتبساً باللعب. كما تتميز الرواية بقص أخاذ ومراوغ يراوح بين البوح والهذيان.

والدكتورة سمية رمضان تعمل محاضرة في كلية الآداب، جامعة القاهرة، ومترجمة في الأكاديمية القومية للآداب، وصدرت لها من قبل مجموعتان قصصيتان هما: «خشب ونحاس»، و«منازل القمر»، وهي أول أديبة مصرية تحصل على هذه الجائزة، إذ سبق أن نالتها القاصة اللبنانية هدى بركات عن روايتها «حارث المياه»، والروائية الجزائرية أحلام مستغانمي عن روايتها «ذاكرة الجسد»، كما فاز بها الأديبان المصريان إدوارد الخراط، وإبراهيم عبدالمجيد.

جائزة كلاوس للمقدسي وصلحي



إنطوان المقدسي

منحت جائزة الأمير كلاوس زوج الملكة الهولندية بياتريس لهذا العام لكل من المفكر السوري إنطوان المقدسي، والفنان التشكيلي السوداني إبراهيم صلحي.

وقد منحت جائزة الأمير كلاوس للمقدسي - حسب ما صرح وليم أندريه سفير هولندا في سورية - لأنه خط طرقاً للتفكير في العالم العربي لتعزيزه لأفكار الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.

بينما منحت لصلحي لأنه أثر في اتجاهات الرسم في بلاده وأثر في التراث الفني فيها. وجاء تكريم صلحي في

لندن بحضور سفير السودان هناك د. حسن عابدين، والأديب السوداني الطيب صالح، ومندوب الصحافة البريطانية والعربية.

يذكر أن جائزة الأمير كلاوس تمنح منذ خمسة أعوام لمبدعين من العالم الثالث برزوا في مختلف الميادين من دون أن يحققوا شهرة كبيرة.

وقدمت في هذا العام إلى عشرة مثقفين في العالم من أصل ٤٠ مثقفًا رشحوا لنيلها.

وفاة سنغور شاعر الزنوجية



ليوبولد سيدار سنغور

توفي في العشرين من ديسمبر/كانون الأول الماضي بمدينة فيرسون بمقاطعة النورماندي الفرنسية الرئيس السنغالي الأسبق وشاعر إفريقية ليوبولد سيدار سنغور.

ويعد الراحل مؤسس السنغال الحديثة، وكان أول رئيس لها بعد الاستقلال في عام ١٩٦٠م، وتنازل عن منصبه طواعية عام ١٩٨٠م.

وسنغور أحد كبار الشعراء باللغة الفرنسية، فقد كرمته فرنسا بإطلاق اسمه على جامعة أنشأتها بمدينة الإسكندرية في مصر قبل عدة أعوام، وهو أحد أعلام الأدب الزنجي، ومن أشد المدافعين عن «الزنوجية» بوصفها انتماء حضاريًا وهوية إنسانية، وكان يقول: «إنها مجموع القيم الثقافية لإفريقية السوداء».

ولد سنغور في قرية «جوال لابور توجيس» على بعد ٧٠ ميلاً جنوب العاصمة السنغالية داكار، وكان والده من زعماء القبائل الأغنياء. وصل إلى باريس في عام ١٩٣١م، والتحق بثانوية «لويس لو جراند»، وتخرج في السوربون وتخصص في الآداب، وكان شغوفًا بالأدب الذي كتبه الأدباء الأمريكيون من أصول إفريقية، وتأثر بشعراء الأدب الفرنسي مثل بودلير ومالارميه. وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية التحق بالجيش الفرنسي، لكنه وقع أسيرًا في يد الألمان لمدة ١٨ شهرًا، استطاع خلالها أن يتعلم اللغة الألمانية، وفي عام ١٩٤٨م أنشأ «الكتلة الديمقراطية السنغالية».

منح سنغور جوائز عدة، فقد فاز بالجائزة الدولية الكبرى للشعر عام ١٩٦٦م، وفاز بالميدالية الفرنسية الذهبية للغة الفرنسية في العام نفسه، كما فاز بجائزة هيلا سلاسي عام ١٩٧٣م، ومنح جائزة أبو لينير عام ١٩٧٤م، وجائزة موناكو الأدبية ١٩٧٧م، وتوج أميرًا للشعراء عام ١٩٧٨م، وجائزة ألفرد دوفيني عام ١٩٨٠م.

ومع أن سنغور كان جريئًا في مواجهته للثقافة الفرنسية، ورافضًا التبعية، قائلاً: «كان علينا أن نتخلص من ثيابنا المستعارة، ثياب المماثلة، لنؤكد كينونتنا، أي زنوجيتنا» مع ذلك فقد انتخب عضوًا في الأكاديمية الفرنسية، وعد من أميز الشعراء الفرنسيين، واستطاع أن يؤكد تفرده داخل اللغة الفرنسية حاملاً إليها إيقاعات لغته الأم، فأدخل في الفرنسية تعابير ومعاني ورموزًا لم تكن مألوفة من قبل.

صدر له ما يزيد على ٣٠ كتابًا وديوانًا شعريًا بالفرنسية، وترجم أغلبها للغات الحية في العالم. ومن أعماله: «أناشيد الظل» و«قرابين سوداء»، و«أثيوبيات»، و«رسائل في فصل شتوي»، و«أغان ليلية»، و«المراثي العظمى».

وكان نبأ وفاة سنغور قد أعلنه الرئيس السنغالي عبدالله واد قائلاً: «إن رؤساء الدول المجتمعين في قمة المجموعة الاقتصادية لدول غرب إفريقية علقوا أعمالهم، ولزموا الصمت دقيقة واحدة حدادًا على الشاعر الراحل».

ستة علماء يفوزون بجائزة الإيسيسكو

في افتتاح الدورة الثانية والعشرين للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة التي أقيمت في الشارقة، وزعت جوائز الإيسيسكو لهذا العام على ستة علماء متميزين في فروع العلوم التطبيقية والبحتة، ينتمون إلى ست دول أعضاء في المنظمة.

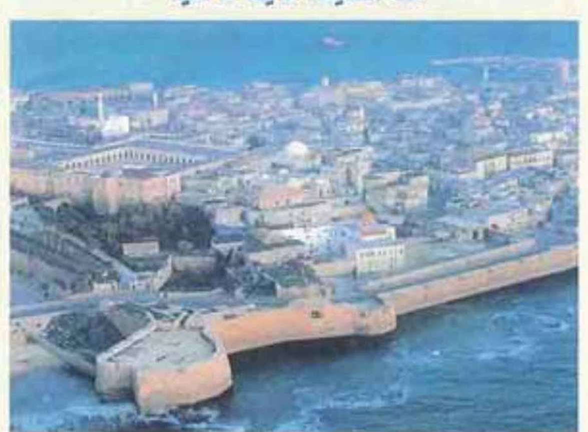
وقد فاز بالجائزة في العلوم الرياضية الدكتور محمد يوسف كرزود يونسي من طاجيكستان، وفي الفيزياء الدكتور أزهارول إسلام من بنغلاديش، وفي التكنولوجيا الدكتور حنفي إسماعيل من ماليزيا، وفي الجيولوجيا الدكتور عبدالرحمن سلطان الشرهان من الإمارات، وفي الكيمياء الدكتور عطاء الرحمن من باكستان، وفي

البيولوجيا الدكتور مرزوق يوسف الغنيم من الكويت.

وقد سلمت للفائزين شهادات تقديرية من المنظمة لكفاءتهم العلمية وتفوقهم وإبداعهم في البحث العلمي. وتبلغ القيمة المالية للجائزة خمسة آلاف دولار أمريكي في كل فرع.

وتهدف هذه الجوائز إلى تشجيع البحث العلمي وحفز العلماء في العالم الإسلامي إلى التنافس في مضمار البحث والاختراع والابتكار من أجل المساهمة في التنمية الشاملة من خلال بناء القاعدة العلمية المتينة في دول العالم الإسلامي.

عكا القديمة مدينة عالمية



منظر عام لمدينة عكا

أعلنت لجنة التراث العالمية التابعة لليونسكو مدينة عكا القديمة ومواقعها التاريخية من معالم الحضارة العالمية. وبهذا أصبحت عكا القديمة ضمن المواقع التي تعدها اليونسكو مواقع خلدتها الحضارة الإنسانية أسوة بتاج محل في الهند والبتراء في الأردن، وبرج بيزا المائل في إيطاليا. وكانت جمعية تطوير عكا التي تضم شخصيات عربية من المدينة قد قدمت طلباً إلى جمعية التراث العالمية في اليونسكو والتي أوكلت مهمة السفر إلى فلسطين والتدقيق في الوثائق والخرائط التاريخية للمدينة إلى فريق خاص من علماء الآثار التابعين للأمم المتحدة.

وتنسب الاجتهادات اسم مدينة عكا إلى اسم عربي كنعاني يعني الرمل الحار، وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي: «العكة من الحر والفورة الشديدة في القيظ وهو الوقت الذي تركد فيه الريح، والعك هو شدة الحر». واشتهرت مدينة عكا في التاريخ القديم بصناعة الزجاج، والفينيقيون هم أول من اخترعوا هذه الصناعة.

وورد اسم عكا في كتاب «تاريخ الطبيعة» للمؤرخ الإغريقي بيلينوس المتوفى في عام ١٠١ ق.م، وعثر في الحفريات الحديثة في عكا على آثار تعود إلى عهد المملكة المصرية المتوسطة زمن الملك المصري سنوسرت، كما وجدت فيها آثار فرعونية من عهد الملك تحتمس، أما في الحقبة العبرانية فقد عدت أسوار المدينة حدود الدولة وتسمية المدينة بالعبرية «عكو»، وتعني «حتى هنا».

وكانت عكا عاصمة الدولة الصليبية في الحقبة الصليبية الثانية (١١٩١ - ١٢٩١) ثم أصبحت مركزاً مهماً في الشرق العربي في العهد العثماني حتى سقطت فلسطين في يد الاستعمار البريطاني الذي اتخذها مركزاً له؛ وذلك لموقعها الجغرافي المميز وميناتها البحري. وفي بداية الثورة العربية في فلسطين عام ١٩٣٦م ضد الوجود الأجنبي فقدت المدينة استقرارها دون أن تفقد أهميتها الاقتصادية إلى أن سقطت وأفرغت من سكانها في النكبة عام ١٩٤٨م. ومن أبرز معالمها تل الفخار، وحمام الباشا، وبرج الذباب.

المؤتمر الإسلامي الثالث لوزراء الثقافة يناقش حماية المعالم والمؤسسات الثقافية في فلسطين وإنشاء قناة فضائية إسلامية

اختتم في الدوحة، في الثامن عشر من شوال الماضي الموافق ١ يناير/كانون الثاني عام ٢٠٠٢م، المؤتمر الثالث لوزراء الثقافة في الدول الإسلامية الذي عقد برعاية سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير دولة قطر (رئيس مؤتمر القمة الإسلامي التاسع) وبحضور الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، والمدير العام لليونيسكو، والمدير العام للألسكو، ومسؤولين عن بعض المنظمات والهيئات الإسلامية والعربية والدولية.

واستهل أمير قطر كلمته عند الافتتاح بقوله: «إن المؤتمر ينعقد في مرحلة دقيقة، وظروف حرجة تمر بها أمتنا الإسلامية، إذ إنها تشهد أحداثاً جساماً، وتحولات عميقة على جميع الأصعدة والمستويات بدأت تتضح آثارها وانعكاساتها على أنماط الحياة ومنظومة القيم والمفاهيم» ودعا إلى استشراف السبل الكفيلة للتعامل مع هذه الظروف، وما تنطوي عليه من تحديات لأمتنا الإسلامية،


الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وعبد العزيز التويجري

والعمل على توضيح الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين.

وأكد سموه الإسراع في تطبيق الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، وشدد على رفض صراع الحضارات، وتمايز المجتمعات، وأفضلية بعضها على بعض، كما دعا إلى الحوار بين الحضارات الإنسانية القائمة على هذه الأرض، فبغير الحوار لن تتقدم الإنسانية ولن تستقر الحياة.

كما تحدث في الجلسة الافتتاحية كل من الدكتور عبدالواحد بلقزيز الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي، والدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري المدير العام للإيسيسكو، والسيد محمد الأشعري وزير الثقافة والاتصال المغربي (رئيس المؤتمر الإسلامي الثاني لوزراء الثقافة)، والسيد كويشيرو ماتسورا (المدير العام لليونسكو)، والدكتور المنجي بو سنينة المدير العام للأليسكو.

وكان موضوع إنشاء قناة فضائية إسلامية من أبرز المسائل التي ناقشها المؤتمر الذي امتد ثلاثة أيام، فقد قال الشيخ حمد بن خليفة: «إنه يجب وضع هذه القناة ضمن أولويات العمل الثقافي الإسلامي المشترك بوصفها أداة ضرورية للمخاطبة والحوار بين الحضارات» منوهاً بأن «تكون متاحة لمختلف الاجتهادات الفكرية والثقافية في الإسلام».

وقدم المدير العام للإيسيسكو إلى المؤتمر مجموعة من التقارير حول تنفيذ قرارات المؤتمر الإسلامي الثاني لوزراء الثقافة بشأن تطبيقات الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، وتنفيذ إستراتيجية العمل الثقافي الإسلامي في الغرب، وحول أنشطة الإيسيسكو في إطار السنة الدولية للحوار بين الحضارات، وحول التشويه الإعلامي للإسلام والحضارة الإسلامية في ظل المتغيرات الدولية، وعن حماية المعالم والمؤسسات الثقافية الإسلامية في القدس الشريف، وحول مشروع برنامج عواصم الثقافة الإسلامية، كما قدم التويجري تقريراً عن حماية الممتلكات الثقافية المسلوبة، والمطالبة باسترجاعها، وحول إنشاء قناة فضائية إسلامية.

وعلى هامش المؤتمر الإسلامي الثالث لوزراء الثقافة، نظمت اليونسكو بالتعاون مع الإيسيسكو والأليسكو ندوة دولية حول الإسلام والحفاظ على التراث الثقافي الإنساني شارك فيها عدد من علماء الشريعة الإسلامية؛ وذلك للإعلان عن رؤية الإسلام لقضية الحفاظ على التراث الثقافي الإنساني.

وفي الجلسة الختامية اعتمد الوزراء اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٤م، والمصادقة على مشروع إنشاء قناة إسلامية، وكلف المؤتمر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة وضع برنامج للرد على حملات التشويه الإعلامي للإسلام والحضارة، وأكد ضرورة حماية حقوق الشعب الفلسطيني مناشداً المجتمع الدولي التدخل لكفالة الحماية الدولية للشعب الفلسطيني، ومن بينها حماية المعالم والمؤسسات الثقافية الإسلامية في القدس الشريف.

وندد المؤتمر بقرار الأكاديمية السويدية منح جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠١م للكاتب البريطاني ذي الأصل الهندي أ.س. نايبول لهجومه على الإسلام والمسلمين في كتاباته، ودعوته إلى الكراهية بين الشعوب، وتأجيج الصراع بين الثقافات والحضارات مما يتعارض مع المواثيق الدولية، والقيم الإنسانية. ودعا المؤتمر الأكاديمية السويدية إلى إعادة النظر في قرارها.

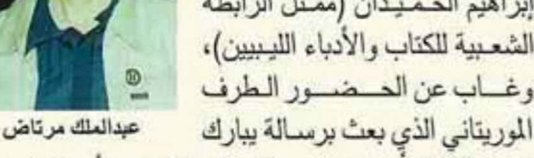
تأسيس اتحاد كتاب المغرب العربي

شهدت الجزائر عشية انعقاد المؤتمر الثامن لاتحاد الكتاب الجزائريين في أواخر ديسمبر/كانون الأول الماضي التوقيع على مشروع القانون الأساسي لاتحاد كتاب المغرب العربي، وجاء في ديباجة القانون الأساسي «التشديد على أهمية العوامل التاريخية والجغرافية تجاه البلدان المتوسطية بتراثها المتوسطي اللغوي الذي يسمح لاتحاد الكتاب المغاربة أن يكون له دور حضاري في علاقة التثاقف مع الحضارة الغربية إضافة إلى العلاقة مع المشرق العربي عبر اتحاد الكتاب العرب الذي يمثل قوة ودعماً لاتحاد الكتاب المغاربة

الذي لا يلغيه على الإطلاق».
وكانت فكرة تأسيس اتحاد للكتاب المغربيين تعود إلى الخمسينيات من القرن الماضي، وكان قد دعا إليها شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا.
وبحضور ما يقارب ٥٠٠ أديب وكاتب وقعت وثيقة التأسيس، ووقعها عن الجزائر الشاعر عز الدين ميهوبي (رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين)، وعن تونس الكاتب سويلمي بوجمعة، وعن ليبيا إبراهيم الحميدان (ممثل الرابطة الشعبية للكتاب والأدباء الليبيين)، وغاب عن الحضور الطرف الموريتاني الذي بعث برسالة يبارك فيها لقاء التأسيس، وعن الطرف المغربي الأستاذ نجيب خداري نائب اتحاد كتاب المغرب الأقصى.


عبدالله الركيبي


عبدالملك مرتاض



كما حضر كل من الدكتور عبدالملك مرتاض وأبو القاسم سعد الله والدكتور عبدالله الركيبي والأخضر السائحي.
يذكر أن رئاسة الاتحاد بالتناوب بين أعضائه المكونة من الدول المغاربية الخمس. وذلك حسب الترتيب الأبجدي للدول المغاربية ويضم المجلس ثلاثين عضواً وأمانة عامة ولجاناً دائمة في النشر والكتاب والحريات والشؤون الاجتماعية، والمالية، والخارجية، والتبادل الدولي.

ضحايا مهنة المتاعب

أعلنت لجنة الدفاع عن الصحافيين أن عدد الصحافيين الذين قتلوا في أثناء أدائهم عملهم العام الماضي ٢٠٠١م قفز إلى ٣٧ صحافياً، بينهم ثمانية قتلوا في الحرب في أفغانستان وحدها.
وأضافت اللجنة التي تعمل على الدفاع عن حرية الصحافة ومقرها نيويورك، أنه في عام ٢٠٠٠م قتل ٢٤ صحافياً في أثناء مهامهم الصحافية.
وقالت آن كوبر (المديرة التنفيذية للجنة): «الصحافيون الذين يغطون الحرب في أفغانستان أظهروا شجاعة غير عادية، لكن يجب علينا أيضاً أن نتذكر أن صحافيين في أنحاء مختلفة في العالم ممن قاموا بالكشف عن فساد وأعمال غير قانونية وكسب غير مشروع في أعلى مستويات السلطة سقطوا ضحايا لجرائم قتل لم يعاقب مرتكبوها».
والصحافيون السبعة والثلاثون الذين قتلوا العام الماضي كان بينهم ٢٥ على الأقل سقطوا في جرائم قتل في كولومبيا والفلبين والصين والولايات المتحدة و ١٧ دولة أخرى.
ووفقاً لسجلات لجنة الدفاع عن الصحافيين، فإن أعلى رقم للقتلى من الصحافيين من دولة واحدة خلال عام واحد كان في عام ١٩٩٥م عندما قتل ٢٤ صحافياً في الجزائر. وبالإضافة إلى الصحافيين الثمانية الذين قتلوا في الحرب في أفغانستان، فإن صحافياً آخر توفي في العام الماضي متأثراً بجروح أصيب بها في أفغانستان في عام ١٩٩٩م.
وأعلنت المنظمة العربية لحرية الصحافة ومقرها لندن أن عدد ضحايا حرية الصحافة في العالم العربي قد قفز خلال عام ٢٠٠١م إلى ثمانية أضعاف على ما كان عليه في العام السابق، وبلغ عدد الصحفيين الذين فقدوا حياتهم خلال ممارسة مهنة المتاعب ثمانية، منهم ستة صحافيين وصحفيتان مقابل صحفي في عام ٢٠٠٠م. وأشارت المنظمة إلى أنه إلى جانب الصحفيين الثمانية الذين فقدوا حياتهم زاد عدد المسجونين والمحكوم عليهم، وارتفع عدد الصحف التي تعرضت للإيقاف.

عمّان عاصمة الثقافة العربية عام ٢٠٠٢م

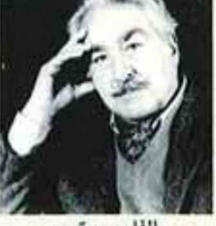
بمناسبة انطلاق فعاليات احتفال عمان باختيارها عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٢م، أعلن الأمين العام لوزارة الثقافة الأردني الدكتور صلاح جرار في تصريح صحفي أن هناك ٥٣ مشروعاً ثقافياً شاركت فيها أمانة عمان الكبرى، وعشرين جامعة رسمية وخاصة، و٤٠٠ دار نشر، و ٢٦٤ مؤسسة ثقافية رسمية وخاصة.
وتشمل هذه الأنشطة إقامة أيام ثقافية عربية لكل من السعودية، والإمارات، والبحرين، والمغرب، وتونس، والعراق، ولبنان، وعمان، ومصر، وسورية، وفلسطين موزعة على مدار العام وتبدأ بالأيام الثقافية السعودية في انطلاقة الفعاليات، كما تقرر تنظيم ندوات عن شخصيات ثقافية أردنية راحلة مثل: المخرج المسرحي هاني صنوبر، والكاتب السينمائي حسان أبو غنيمة،


بوابة عمان في جرش

والموسيقار يوسف خاشو، والفنان التشكيلي توفيق السيد، والقاصة زهرة عمر، كما تقيم الوزارة ملتقيات ومؤتمرات، ومعرضًا للحرف اليدوية، ومعرضًا للخط العربي، وآخر للكاريكاتير، وأمسيات شعرية، ومخيمات للمبدعين.

وأوضح د. جرار أن الوزارة بدأت الاستعداد لهذا الحدث الثقافي بإصدار ١٢ كتابًا شهريًا، وترجمة مختارات قصصية أردنية، و ١٢ كتابًا للأطفال، ودعم ١٠٠ كتاب، وإلى مواصلة إصدار مجلة «أفكار» ومجلة «وسام» للأطفال، وستة كتب عن التراث العربي، كما بدأت الوزارة بإصدار صحيفة «عمان ٢٠٠٢م» وهي نصف شهرية للتعريف بهذا النشاط. وعلى الرغم من بدء النشاط في بداية هذا العام إلا أن الافتتاح الرسمي سيتأخر إلى الثامن عشر من شهر أبريل/نيسان المقبل لأسباب تنظيمية.

جائزة ثربانتس لموتيس


الفارو موتيس

فاز الشاعر والروائي الكولومبي الفارو موتيس بجائزة ثربانتس (سرفانتس) للآداب عام ٢٠٠١م التي تعد من أهم الجوائز الإسبانية، وقد اختارته لجنة التحكيم برئاسة مدير الأكاديمية الملكية الإسبانية فيكتور غارثيا دي لاكونتشا الذي وصف الروائي الفائز بقوله: «موتيس كان كولومبيا، مكسيكيًا كوستاريكانو وشاعراً إسبانياً».

ولد موتيس في بوغوتا في كولومبيا وسط عائلة من الدبلوماسيين، ولهذا انتقل إلى بروكسل حيث كان أبوه مسؤولاً في سفارة كولومبيا. ونشر كتابه الأول «الميزان» وعمره ٢٠ سنة، وعمل في مصلحة الضرائب في كولومبيا، ثم نفي إلى المكسيك، وهناك عمل موظفًا للعلاقات العامة في شركة أمريكية.

وقال موتيس عن فوزه بالجائزة: «على الرغم من أنني حصلت سابقًا على جائزة أمير أستورياس ابن الملك فيليب، وحصلت على جائزة الملكة صوفيا للشعر، إلا أنني أشعر كأن ثربانتس بنفسه يسلمني الجائزة، ثربانتس الذي كان رفيقي في مشواري كله، وهو الذي أكن له إعجابًا لا حدود له، لأن حياته مثل كبير يجب الاقتداء به». ومن أهم كتبه: «عناصر الكارثة» و «موت جميل» و«رقعة من أرض وبحر» و«الصمت أو الغياب».

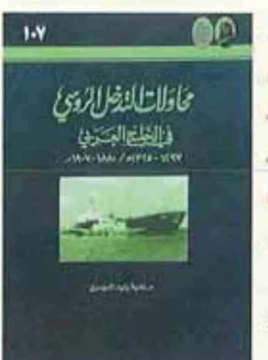
فاز موتيس بالجائزة عن روايته «مكرول الملاح» التي تقع في سبعة أجزاء، وتبلغ قيمة الجائزة ١٥ مليون بيزيتة إسباني، وسيقوم الملك خوان كارلوس بتسليمها إلى موتيس في ٢٣ أبريل/نيسان القادم الذي يوافق الذكرى السنوية لوفاة ثربانتس.

جائزة اليونسكو ٢٠٠٢ لأدب الأطفال

حددت هيئة اليونسكو يوم ٣١ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢م آخر موعد للترشيخ لجائزتها لأدب الأطفال والشباب لخدمة التسامح، وتمنح هذه الجائزة اعترافًا بالأعمال الأدبية للشباب التي تجسد أفضل مفاهيم ومُثل التسامح العليا والسلام وتعزيز التفاهم المتبادل المبني على احترام الشعوب والثقافات الأخرى.

وكانت هذه الجائزة قد أنشئت عام ١٩٩٥م بالتعاون مع هيئة تحرير جرونو في إسبانيا ومنحت أول مرة في عام ١٩٩٧م، وأصبحت راسخة في عالم كتب الأطفال.

واشترطت اليونسكو أن تكون الكتب المرشحة هادفة إلى تشجيع الأطفال والشباب على تقبل اختلاف وجهات النظر ورفض التمييز بجميع أشكاله، وفتح أذهان الشباب على ثقافات وأساليب حياة أخرى، وبذلك تساعدهم على التغلب على مخاوفهم بسبب الجهل الذي غالبًا ما تؤدي إلى النزاعات والحروب. وهذه الأعمال تتوجه لفئتين، الفئة الأولى كتب لسن ١٢ سنة، والثانية كتب لشباب تراوح أعمارهم بين ١٣و ١٨ سنة.



الدوسري، نادية وليد/ محاولات التدخل الروسي في الخليج العربي (١٢٩٧ - ١٣٢٥هـ/ ١٨٨٠ - ١٩٠٧م).. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز ١٤٣٢هـ/٢٠٠١م، ٣٠١ص.

يقدم هذا الكتاب دراسة تاريخية لمحاولات التدخل الروسي في منطقة الخليج العربي في الفترة الواقعة بين سنتي ١٢٩٧و ١٣٢٥هـ الموافق لما بين عامي ١٨٨٠و ١٩٠٧م، وهي الفترة التي بدأت بمحاولات روسيا إيجاد موطن قدم لها في الخليج العربي؛ لأنها ترى الخليج العربي ليس حكراً على بريطانيا، وإنما هو بحيرة عالمية لمختلف دول العالم، وهي الفترة التي واجهتها بريطانيا، وقاومتها بكل قوة كي توقف المد الروسي باتفاقية سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

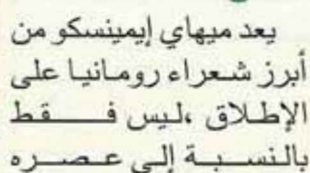
تحتوي الدراسة على مقدمة وخمسة فصول رئيسة:

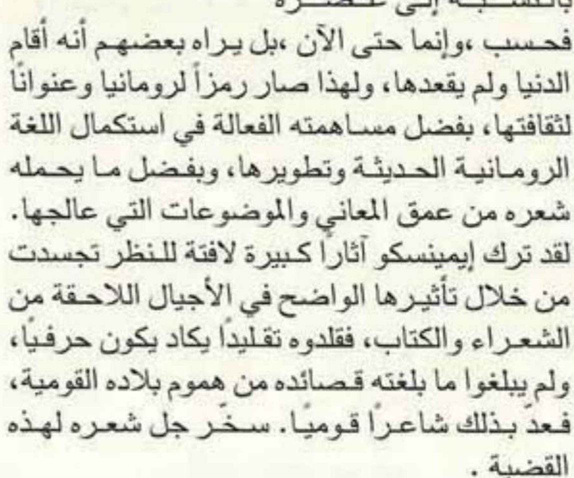
تتناول المقدمة لمحة عن التنافس الدولي في الخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

ويتحدث الفصل الأول عن النفوذ الروسي في بلاد فارس وما قامت به من أنشطة سياسية، واقتصادية، وعسكرية، واجتماعية، أما الفصل الثاني فيشرح التحركات الروسية في منطقة الخليج العربي، ويتناول الفصل الثالث زيارات الروس لمشيخة الكويت بقصد تثبيت العلاقات الروسية الكويتية. أما الفصل الرابع فيستعرض محاولات روسيا الاتصال بمختلف القوى السياسية في نجد وموقف بريطانيا ورفضها التدخل في شؤون نجد، وأسباب ذلك الرفض.

وفي الفصل الخامس تناولت المؤلفة اتفاق كل من روسيا وبريطانيا حول تقسيم فارس، وأصداء هذا التقسيم في أوربا، كما ناقشت الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٤م التي كانت سبباً في ضعف روسيا وإجبارها على توقيع اتفاق بطرسبرج بين بريطانيا وروسيا، وتحجيم نشاط روسيا في الخليج العربي والحد من توسعاتها في المنطقة.

وفي الخاتمة تحدثت المؤلفة عن النتائج التي ترتبت على محاولات روسيا التدخل في الخليج العربي، وموقف بريطانيا من ذلك.





إيمينسكو، ميهاي/ قصائد غنائية.. ترجمة: جورج تساريليسكو، كامل عويد العامري.. بغداد، ١٩٩٨م، ١٦٤ص

يعد ميهاي إيمينسكو من أبرز شعراء رومانيا على الإطلاق ،ليس فقط بالنسبة إلى عصره فحسب ،وإنما حتى الآن ،بل يراه بعضهم أنه أقام الدنيا ولم يقعدها، ولهذا صار رمزاً لرومانيا وعنواناً لثقافتها، بفضل مساهمته الفعالة في استكمال اللغة الرومانية الحديثة وتطويرها، وبفضل ما يحمله شعره من عمق المعاني والموضوعات التي عالجها. لقد ترك إيمينسكو آثاراً كبيرة لافتة للنظر تجسدت من خلال تأثيرها الواضح في الأجيال اللاحقة من الشعراء والكتاب، فقلدوه تقليداً يكاد يكون حرفياً، ولم يبلغوا ما بلغته قصائده من هموم بلاده القومية، فعدّ بذلك شاعراً قومياً. سخّر جل شعره لهذه القضية .

إن شعر إيمينسكو في كل ما كتب يفتش عن ذاته، شأنه شأن كل الرومانسيين، غرضه الحقيقي الفردية، أي «أسرار طبيعة الكاتب الخاصة» مرتضياً التقارب والفن والشعر والنثر، والذكرى، والحدس، والأفكار المجردة، والإحساسات الحية، وما هو مطلق وما هو أرضي، والحياة والموت تجتمع كلها وتتمازج بأكثر الطرق حرارة في فن إيمينسكو.

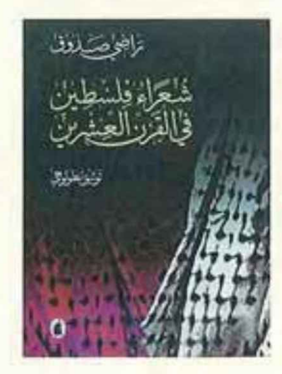
ولد الشاعر في عام ١٨٥٠م في مدينة «بوتوشاني» في شمال شرق رومانيا، كان والده

من الوكلاء الصغار لأحد ملاكي الأراضي ويدعى «غورغي»، وأمه تنتمي إلى عائلة متوسطة المستوى، وتدعى «رالوكا». عاش إيمينسكو سنوات طفولته في قرية «إيبوتشت» وهي قرية كثيرة الغابات والأنهار، وذات طبيعة خلابة، تركت آثارًا بليغة - فيما بعد - في تكوين شخصيته وشعره، ومنذ ذلك الحين عاش الشاعر في جو مفعم بالأساطير والحكايات والفلكلور الشعبي معززًا بالارتباط الوثيق مع الطبيعة والإنسان. فهو يعود ويستحضر كل ما في هذه الأجواء في أعماله بحنين وشوق؛ لأن العالم هذا هو كونه الوحيد الذي وجد فيه الهدوء والراحة والطمأنينة. تعرف الشاعرة الكاتبة «فيرونيكا ميكلا» فأحبها وأحبته، واستلهم من هذا الحب قصائده الغنائية الجميلة، وجعل منها رمزًا عاليًا في شعره.

بدت على الشاعر في عام ١٨٨٣م علامات المرض، قيل: إنه مرض نفسي أو إرهاق. وتنقل من مستشفى إلى آخر، وسافر للعلاج هنا وهناك، ولكنه عاد إلى مكانه الأخير بوخارست، برفقة فيرونيكا، وأقام في أحد مستشفياتها، حتى وافته المنية في الخامس من حزيران عام ١٨٨٩م.

غراهام، لورانس (وآخرون) / السياسة والحكومة: مقدمة للأنظمة السياسية في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وروسيا وأوربا الشرقية واليابان والمكسيك والعالم الثالث.- ترجمة: عبدالله فهد اللحيدان، الرياض: جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٣٩٢ص.

هذا كتاب في الأنظمة السياسية المقارنة التي هي أحد الحقول المهمة في علم السياسة، يتناول واقع الأنظمة السياسية لعدد من دول العالم، وينطلق مؤلفوه من الولايات المتحدة، فيناقشون التطور الدستوري، والتركيبة الاجتماعية، والمؤسسات السياسية فيها لتكون نقطة الانطلاق، ثم يتحولون إلى أوربا ليوازنوا بين النظام السياسي الأمريكي والأنظمة السياسية فيها، ثم يتحول الكتاب إلى الدولة الصناعية المتقدمة الوحيدة خارج الغرب، وهي اليابان، ليصف نظامها السياسي، وكيف تؤثر الثقافة والتجربة اليابانية تأثيرًا كبيرًا في الكثير من سمات النظام السياسي هناك، ثم يتحول إلى الاتحاد السوفييتي (السابق) ودول أوربا الشرقية وما تمر به هذه الدول من حالة تغير وتشوش موضحًا الدور الكبير الذي يؤديه القادة السياسيون في قيادة التغيير والتحول. ثم يناقش الكتاب المشكلات الاقتصادية والسياسية التي تواجه دول العالم الثالث في طريقها نحو التنمية والتقدم، ثم يختتم المؤلفون الكتاب بفصل عن النظام السياسي المكسيكي لكونه حالة وسطى بين الدول التي تمر بمرحلة تحول (أوربا الشرقية، والعالم الثالث) والدول المتقدمة في غرب أوربا وأمريكا الشمالية، واليابان.



صدوق، راضي / شعراء فلسطين في القرن العشرين (توثيق أنطولوجي).- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م، ٧٣٧ص.

يوثق هذا الكتاب للشعراء العرب الفلسطينيين في القرن العشرين الميلادي بداية من عام ١٩٠٠م حتى إنجاز هذا الكتاب، وذلك من خلال التاريخ بإيجاز وافٍ لكل شاعر، وأعماله المطبوعة (إذا كان لايزال على قيد الحياة) وآثاره المطبوعة والمخطوطة (إذا كان من الراحلين) مع إيراد نموذج أو أكثر من إبداعه الشعري بحيث تمثل النماذج المختارة مراحل تطوره الفني، دون أن يكون بالضرورة أفضل قصائده، وحرص المؤلف على

إبراز المواقف الوطنية والقومية والإنسانية لكل شاعر، وقام بتصحيح المعلومات المغلوطة الرائجة في بعض الكتب والدراسات عن الكثير من هؤلاء الشعراء، وتحرير هذه المعلومات من المبالغات الفضفاضة الناجمة عن معايير غير أدبية وغير متوازنة.

واختار المؤلف في هذا الكتاب الشعراء الراحلين، والذين لايزالون على قيد الحياة، والشعراء الذين كتبوا القصيدة العمودية والشعر الحر، وشعراء قصيدة النثر.

وقام المؤلف بترتيب أسماء الشعراء على حروف الهجاء، وفق الاسم الأول للشاعر، حسب اللقب أو الكنية التي غلبت عليه، واشتهر بها بين الناس، ثم وفق الاسم الثاني (اسم الأب) فاسم العائلة، ثم بتاريخ الولادة والوفاة مبتدئًا بالتاريخ الهجري، ثم ما يقابله من التاريخ الميلادي.

عبدالرحمن، أسامة/ المعرفة الإدارية والإدارة القبلية والترف النفطي.. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م، ١٣٥ص.

تعد الإدارة ركيزة محورية من ركائز التنمية، وإذا كان الاقتصاد هو السمة الغالبة على العولمة، فإن الإدارة هي المحور المركزي للاقتصاد، وقد أكدت العولمة أن الأداء الإداري هو الذي يحدد، إلى حد كبير، مدى قدرة الدول المتخلفة المنضوية في تعظيم المغانم وتقليص المغارم، ولقد تطورت مفاهيم الإدارة وأساليبها ووسائلها تطورًا كبيرًا، وانطلقت من الأطر التقليدية إلى فضاء واسع من خلال نظم الاتصال والمعلومات فساعد ذلك على اتخاذ القرار، الذي هو محور الإدارة ذاتها، بالاعتماد على رصيد معرفي هائل، وخيارات متعددة، وتقويم علمي تقني لهذه الخيارات يؤدي إلى الخيار الأنسب أو الأفضل. لقد دخلت أقطار الخليج العربية إلى العصر متأخرة، ومكّنها العائد النفطي من اقتناء آخر صيحات الحضارة المعاصرة وأحدث نتاجاتها، وقد حاولت الأخذ بعدد من المفاهيم والأساليب والوسائل بما فيها الإدارية منها، ومع ذلك فإن الإدارة بقيت بعيدة عن كونها محور اهتمام حقيقي على الصعد كافة، على الرغم مما يعلن عن محاولات الإصلاح الإداري الذي هو في أكثر الأحيان شعار يحتاج إلى برهنة، لأن التخلف الإداري يجثم على ساحات هذه الأقطار، ويظل الإصلاح الإداري في النهاية ضرورة حتمية.

يتضمن هذا الكتاب سبعة فصول رئيسة، جاء الأول عن أهمية الإدارة وعلاقتها بالعولمة، وتناول الثاني الإدارة والغرب والقبيلة، والثالث تناول أستاذ الإدارة: دوره وسلبياته، أما الرابع فاستعرض أنماطًا من الأساتذة.

وتناول الفصل الخامس قيمة الأستاذ، بينما تحدث الفصل السادس عن الرعاية الأبوية ودور الأمن، والفصل الأخير عن محصلة المؤسسات التعليمية والتدريبية.

الحافظ، محمد مطيع/ المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها أبي عمر محمد بن أحمد المقدسي الصالحي.. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٠م، ٤٨٠ص.

تعدّ المدرسة العمرية المنسوبة إلى أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٠٧هـ أم النهضة العلمية الرائعة التي قامت في سفح جبل قاسيون شمال غرب دمشق في المنطقة التي عرفت فيما بعد بالصالحية نسبة إلى الصالحين الذين أنشؤوها.

كانت المنطقة التي قامت فيها المدرسة على طرف نهر يزيد أحد فروع بردى، منطقة موحشة يأوى إليها اللصوص وقطاع الطرق. فإذا هي تصبح بعد مدة

قصيرة مدرسة تعج بالطلاب الوافدين، وصارت لها أوقافها الدَّارة، وإذا المنطقة كلها تزدهر بالعمران والمدارس والمكتبات والمساجد والحمامات والقصور، وإذا هي مدينة تقوم كلها على العلم وأهله وطلابه.

ومؤسس هذه المدرسة هو العالم المجاهد (المقدسي) الذي عانى ظلم الفرنجة في أثناء الحروب الصليبية بفلسطين، فرحل مع أبيه وأسرته إلى دمشق فراراً إلى الله بدينهم.

يلقي هذا الكتاب الضوء على المدرسة العمرية ويؤرخ لها، من خلال ثلاثة أبواب رئيسة: تناول الأول منها هجرة المقادسة إلى دمشق. وفضائل شيخ المقادسة أبي عمر محمد المقدسي وتراجم أولاده وحفدته، أما الباب الثاني فتناول تاريخ المدرسة العمرية: المعماري والعلمي والوقفي، وتناول الباب الأخير مشروع مركز البحوث الإسلامية في المدرسة العمرية.

الربيعي، فالح/ تاريخ المعتزلة: فكرهم وعقائدهم.- القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ١٥٨ص.

يحاول هذا الكتاب إلقاء الضوء على موضوع أدب المعتزلة وإسهاماتهم في الأدب العربي، فقد أدوا دوراً كبيراً في إغناء الدراسات الأدبية وخصوصاً الدراسات المتعلقة بالعلوم البلاغية، وأسرار إعجاز القرآن، وفي تطوير النثر العربي شكلاً ومضموناً، فقد ترك المعتزلة تراثاً أدبياً وعلمياً ضخماً، وكان لهذا التراث تأثيره الكبير في عصره، وفي العصور التي تلته.

وهذا التراث يميل إلى مرحلة مهمة من مراحل الثقافة الإسلامية. وسواء اتفقنا معهم أم اختلفنا، فقراءتنا لهذا التراث تمثل قراءة ثانية لذاتنا الحضارية. تلك الذات التي واجهت بإبداعها وعلمها غيرها من الحضارات.

يتناول الكتاب تاريخ المعتزلة ونشأتهم، وأثر المعتزلة في الفكر الإسلامي، وتأثير الديانات والمعتقدات غير الإسلامية فيهم، كما يتناول مبادئ مذهب الاعتزال وأصوله، والاعتزال في الأدب العربي، وأهم شيوخ الأدباء المعتزلة الذين بلغوا نحو خمسة عشر شيخاً كان أبرزهم الجاحظ، والصاحب بن عباد، وأبو حيان التوحيدي، والقاضي عبدالجبار، والزمخشري.



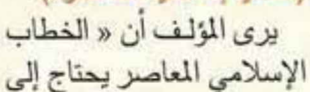
القاسمي، علي/ معجم الاستشهادات.- بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٧٠٠ص.

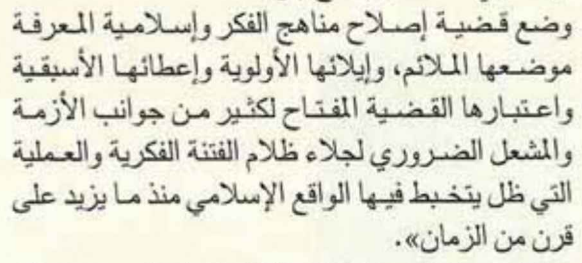
يعدّ هذا المعجم الأول من نوعه في اللغة العربية - حسب رأي المؤلف - فمع أن المكتبة العربية تشمل كثير من كتب الأمثال، وكتب الأبيات الشعرية المشهورة، وكتب الاقتباس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فإننا لانجد معجماً شاملاً للاستشهادات على اختلافها. في حين تتوافر عشرات بل مئات من معجمات الاستشهادات في بقية اللغات الحية.

يضم هذا المعجم أكثر من عشرين ألفاً من الأقوال المنشورة أو المنظومة التي يستشهد بها الكاتب أو المتكلم، وقد رتبت الاستشهادات في المعجم حسب موضوعاتها، فهي موزعة على ما يقرب من ١٥٠٠ من الموضوعات مرتبة ألفبائياً، وتحت كل موضوع رتبت الاستشهادات ترتيباً ألفبائياً بحيث يسهل العثور عليها، ومعظم الاستشهادات منسوبة إلى قائلها، مع إشارة إلى مصدرها، وقد استقى المؤلف مادة المعجم مما يستشهد به في الصحف والمجلات والإذاعات والمطبوعات المتنوعة، وهو مفيد لكل من يمارس صفة الكلام أو الكتابة فهو يمدهم بومضات متألقة من جوامع الكلم، وخلاصات العقول الأفكار، وهو أداة مساعدة في إعداد إنشاءات الطلاب ومحاضرات الأساتذة، ومرافعات المحامين

وخطب السياسيين والبرلمانيين، وتحقيقات الصحفيين والإذاعيين، كما يتيح للمثقف متعة الاطلاع على توجهات العقل العربي في مختلف عصوره.

ومؤلف هذا المعجم هو الكاتب العراقي المقيم في المغرب الدكتور علي القاسمي، الذي يعد من المعجميين والمصطلحيين العرب البارزين، فقد صدر له من قبل «المعجم العربي الأساسي» - المنسق - و«معجم مصطلحات علم اللغة الحديث» وكتاب «علم اللغة وصناعة المعجم»، وكتاب «المعجمية العربية: دراسات في النظرية والتطبيق»، وكتاب بالإنجليزية بعنوان «اللسانيات والمعاجم الثنائية اللغة»، وكتاب «مقدمة في علم المصطلح»، وكتاب «مختبر اللغة» وغيرها.





عيد، حسين/ نجيب محفوظ: رواية مجهولة، وتجربة فريدة.- القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ١٥٨ ص.

تناول هذا الكتاب رواية «ما وراء العشق» التي كتبها الأديب نجيب محفوظ، ولم يقم بنشرها، وقد حصل المؤلف على المسودات التي كتبها الأديب بقلمه؛ وكان محفوظ الحاصل على جائزة نوبل للأدب في عام ١٩٨٨م قد حول هذه الرواية إلى قصة قصيرة بعنوان «أهل الهوى» وضمنتها مجموعته القصصية «رأيت فيما يرى النائم».

واستطاع المؤلف أن يربط بين الرواية والقصة من خلال تعمقه في قراءتهما وتحليلهما، ووقف على التحولات التي جرت خلال عملية الإبداع.

ينقسم هذا الكتاب إلى بابين: خصص المؤلف الباب الأول لرواية «ماوراء العشق»، وتناولها بالتحليل في الفصل الأول، وأورد أسباب عدم رضا نجيب محفوظ النهائي عنها في الفصل الثاني.

أما الباب الثاني فقد خصص لإبداع قصة «أهل الهوى»، وقدم المؤلف في الفصل الأول تحليلاً لجوانب هذه التجربة الفريدة، وفي الفصل الثاني ناقش كيف تشكل هذه القصة من خلال عملية التهذيب التي تمت، ويتضمن الكتاب ملحقًا يشتمل على صفحات من «رواية ماوراءالعشق» بخط نجيب محفوظ.



العلواني، طه جابر/ إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر.- بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٢٢٣ص؛ (قضايا إسلامية معاصرة).

يرى المؤلف أن « الخطاب الإسلامي المعاصر يحتاج إلى وضع قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة موضعها الملائم، وإيلائها الأولوية وإعطائها الأسبقية واعتبارها القضية المفتاح لكثير من جوانب الأزمة والمشعل الضروري لجلاء ظلام الفتنة الفكرية والعملية التي ظل يتخبط فيها الواقع الإسلامي منذ ما يزيد على قرن من الزمان».

وتقوم هذه القضية المنهجية المعرفية على ست دعائم هي: بناء النظام المعرفي الإسلامي المعاصر، وإعادة تشكيل وبناء المنهجية المعرفية القرآنية، وبناء منهاج التعامل مع القرآن الكريم بوصفه مصدراً للفكر والمعرفة والحضارة، وبناء منهاج التعامل مع السنة النبوية المطهرة بوصفها مصدراً للفكر والمعرفة والحضارة، وبناء منهاج التعامل مع التراث الإسلامي لتجاوز فترات التقليد والانقطاع فيه، وبناء منهاج التعامل مع التراث الإنساني المعاصر للتواصل مع الفكر والحضارة الإنسانيتين وتجاوز أسباب قصورهما وأزمتهما.

يتضمن الكتاب ثلاثة أقسام رئيسة: الأول بعنوان: أزمة الخطاب الإسلامي المعاصر. دوافع وعقلية التأزيم، والثاني بعنوان: حل الأزمة في إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة، والثالث بعنوان: الخطاب والمخاطب.

الحميد، محمد عبدالله/ افتراءات الصليبي: متابعات ١ ـ ٢ ـ ٣ـ أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٤٣٢ص.




الدكتور كمال الصليبي هو مؤرخ لبناني وأستاذ في تاريخ الشرق الأوسط الحديث في الجامعة الأمريكية في بيروت، أصدر ثلاثة كتب هي: «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، و«خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل»، و«حروب داود ـ الأجزاء الملحمية من سفر صموئيل الثاني»، وزعم الصليبي أن قيام مملكة بني إسرائيل القديمة وزوالها كان في جنوب الحجاز وبلاد عسير وليس في فلسطين وأن (سليمان الحكيم) عليه السلام (عسيري ابن عسيري) على حد تعبيره. وبهذه المغالطة التاريخية التي قدمها الصليبي على أنها نظرية تاريخية وبحث غير مسبوق، انبرى عدد من الباحثين والأكاديميين والكتّاب العرب يردون على الصليبي وافتراءاته.

وفي هذا الكتاب يقدم المؤلف مجموعة من المتابعات التي ترد على الصليبي، وتتضمن مقالات وبحوثًا وآراء لبعض الباحثين والأكاديميين والكتّاب العرب الذين فنّدوا هذه المغالطات والافتراءات.

الحقيل/ عبدالله بن حمد/ كتب ومؤلفون في التربية والأدب واللغة والتاريخ- الرياض: مكتبة التوبة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٣٤٠ص.

يعدّ الكتاب وعاء من أوعية المعرفة والمعلومات، ووجهًا حضاريًا مشرقًا ووسيلة إلى رقي الأمم فكريًا وذهنيًا فهو يؤدي دورًا فعالاً في تنمية المعرفة والثقافة. ولقد قيل: إن الأمة الواعية هي الأمة القارئة، فهو الدعامة الأساسية في مجالات البحث والدراسة والمطالعة.

وفي هذا الكتاب يتناول المؤلف بعض الكتب بالعرض والتحليل ويتحدث عن مؤلفيها وظروف تأليفها. إذ تنوعت موضوعات الكتب بين التربية والأدب واللغة والتاريخ، كما يقدم المؤلف نقداً لبعضها بغية إبراز أهمية هذه الكتب.

روبر، جيوفري/ المخطوطات الإسلامية في العالم، الجزء الثالث ـ ترجمة وتحقيق: عبدالستار الحلوجي- لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٨٤٦ص (سلسلة فهارس المخطوطات الإسلامية؛ ٣٨).

هذا هو الجزء الثالث من العمل الضخم التي تقوم به مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في نشر فهارس المخطوطات الإسلامية المبعثرة في شتى بقاع الأرض.

ويتضمن ٣٣ دولة ومزود بمجموعة من الكشافات تيسر استخدامه وتزيد فائدته، ويكفي أن ننظر في كشاف عناوين المخطوطات ومافيه من إحالات تربط بين الأصول والشروح والاختصار لندرك حجم هذا الجهد الكبير.

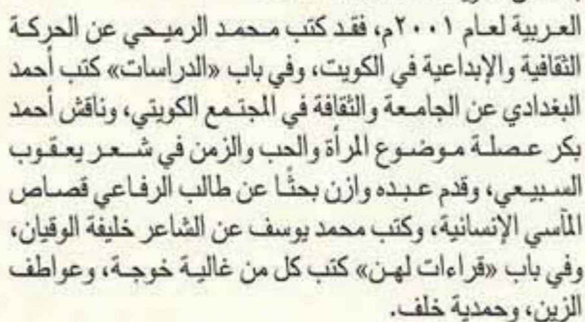
ويتضمن هذا الجزء عدداً كبيراً من الدول، وكثير من لغاتها غير شائعة في الوطن العربي وأسماء الأماكن والأعلام، ولذا حسب ما أورد المحقق كان لابد من الرجوع إلى أهل الاختصاص في دراسة تلك المناطق ولغاتها، لاستشارتهم والاستفادة من علمهم والاسترشاد بآرائهم، وتأتي الصعوبة أن كثيراً من البلاد التي ذكرت بها مجموعات من المخطوطات قرى صغيرة لا نجد لها ذكراً في الأطالس وحتى المدن الكبيرة المذكورة في الأطالس الأجنبية، لا نجد لمعظمها ذكر في أي أطلس عربي. وهنا تأتي أهمية هذا العمل.



المدى
(ع ٣٤، س٩، ٢٠٠١م)

مجلة فصلية ثقافية حرة تصدر عن دار المدى للثقافة والنشر في سورية.

اشتمل هذا العدد من الدورية على عدد من البحوث والدراسات والشعر والقصص القصيرة، وتميز العدد بأنه عن الكويت عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠١م، فقد كتب محمد الرميحي عن الحركة الثقافية والإبداعية في الكويت، وفي باب «الدراسات» كتب أحمد البغدادي عن الجامعة والثقافة في المجتمع الكويتي، وناقش أحمد بكر عصلة موضوع المرأة والحب والزمن في شعر يعقوب السبيعي، وقدم عبده وازن بحثاً عن طالب الرفاعي قصاص المآسي الإنسانية، وكتب محمد يوسف عن الشاعر خليفة الوقيان، وفي باب «قراءات لهن» كتب كل من غالية خوجة، وعواطف الزين، وحمدية خلف.



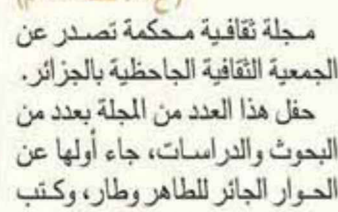
أما باب الشعر فكتب كل من عالية شعيب، وفوزية شويش السالم، وسعدية مفرح، ومنى الهزاع، ودخيل الخليفة، ونايف العنزي، ويعقوب عبدالعزيز الرشيد، وعلي السبتي.

وفي باب القصة كتب كل من ليلى العثمان، وناصر الظفيري، وسليمان الشطي، وثريا البقصمي، وباسمة العنزي، ولطيفة بطي، وسليمان الخليفي، وطالب الرفاعي، إضافة إلى حوار مع الروائي الكويتي إسماعيل فهد السماعيل.

وفي باب تشكيل أجرت المجلة حواراً مع الفنان التشكيلي خليفة القطان، وكتب عامر التميمي عن المشهد السينمائي في الكويت، إضافة إلى باب الكتب والقراءات، وآخر بحوث العدد عن الديوانيات في الكويت كتبه مجيد مسعود.

العنوان: سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٨٢٧٢

هاتف: ٢٣٢٢٢٧٥ ـ ناسوخ: ٢٣٢٢٢٨٩



التبيين
(ع ١٧، سنة ٢٠٠١م)

مجلة ثقافية محكمة تصدر عن الجمعية الثقافية الجاحظية بالجزائر.

حفل هذا العدد من المجلة بعدد من البحوث والدراسات، جاء أولها عن الحوار الجائر للطاهر وطار، وكتب بن مزيان بن شرقي عن العرب وتحديات المستقبل في ضوء التاريخ، وناقش محمدي رياحي رشيدة مفهوم العقلانية والتراث العربي الإسلامي، إضافة إلى بعض البحوث، وجاء ملف العدد عن أبي حيان التوحيدي»، فقد كتب يزيد خلوفي بحثاً بعنوان «أبو حيان التوحيدي: عبقريته وإنسانيته»، وناقشت آمنه بلعلا «هاجس السؤال في مناجيات أبي حيان التوحيدي»، وقدم عصام بهي قراءة في فكر أبي حيان التوحيدي، وتناول سعيد حسين منصور أدب أبي حيان التوحيدي بين المرحلة الكلامية والمرحلة الفلسفية من تاريخ النثر الفني.

وحمل غلاف العدد صورة الروائي المغربي الراحل محمد زفزاف، وكتب الطاهر وطار «محمد زفزاف في ذمة ربه. الملاك الذي يظهر ويختفي».

العنوان: ٨ شارع رضا حوحو ـ الجزائر ١٦٠٠٠

هاتف/ناسوخ: ٠٢١/٦٣٣٤٢٠



ضفاف
(ع٧، حزيران/ يونيو ٢٠٠١م)

مجلة ثقافية دورية تعنى بجوانب الإبداع كافة، تصدر من النمسا، وهذا عدد خاص بعنوان «يوسف عزالدين في مرايا الآخرين»، يأتي تكريماً للأديب العراقي الدكتور يوسف عز الدين فهناك حديث مطول مع الدكتور يوسف عزالدين.

وتحت عنوان: «يوسف عزالدين.. الإنسان» جاء خمسة عشر بحثاً بأقلام كل من فيصل حسون، وعبدالمجيد القيسي، ومحمد عبدالمنعم خفاجي، وسائحة أمين زكي، وقاسم الخطاط، ووديع فلسطين، وأحمد العلاونة، وإبراهيم عوض، وحسين عرب، وعبدالوهاب أحمد عبدالواسع، وعبدالمحسن بن حمد المنقور، ومحمد بن حسن الغامدي، وسامي جريدي، وعبدالفتاح أبو مدين، وعبدالهادي التازي.

وتحت عنوان «نظرات في أدب يوسف عزالدين»، كتب كل من عبدالعزيز إبراهيم البسام، وربيعة أحميداش، ومحمود إسماعيل عمار، وقاسم السامرائي، وطالب الخفاجي، ونبيه عبدالقدوس الأنصاري، وشكيب كاظم سعودي، بينما كتب كل من: زاهد محمد زهدي، ومصطفى حجازي، وموئل يوسف عزالدين، وجريدي المنصوري، وعبدالله عبدالكريم العبادي، وظافر بن غرمان العمري، وعبدالصبور الغندور، وعالي سرحان القرشي، وعبدالحكيم مندور، وكمال بشير، وحيدر مصطفى تحت عنوان «إضمامة جديدة من أشعار المحبين إلى يوسف عز الدين».

العنوان: Wadi Alobeadi

Leondingerstr. 1/21 - A4050 Traun - Austria

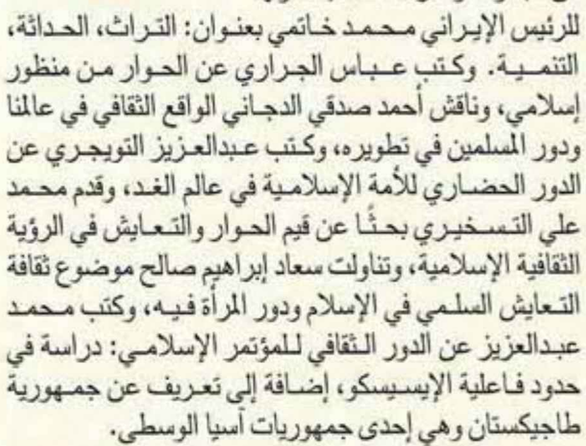



الإسلام اليوم
(س١٨، ع ١٨، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)

مجلة دورية تصدرها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية.

حفل هذا العدد من الدورية بعدد من البحوث والدراسات: جاء أولها للرئيس الإيراني محمد خاتمي بعنوان: التراث، الحداثة، التنمية. وكتب عباس الجراري عن الحوار من منظور إسلامي، وناقش أحمد صدقي الدجاني الواقع الثقافي في عالمنا ودور المسلمين في تطويره، وكتب عبدالعزيز التويجري عن الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، وقدم محمد علي التسخيري بحثًا عن قيم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافية الإسلامية، وتناولت سعاد إبراهيم صالح موضوع ثقافة التعايش السلمي في الإسلام ودور المرأة فيه، وكتب محمد عبدالعزيز عن الدور الثقافي للمؤتمر الإسلامي: دراسة في حدود فاعلية الإيسيسكو، إضافة إلى تعريف عن جمهورية طاجيكستان وهي إحدى جمهوريات آسيا الوسطى.

العنوان: ص.ب: ٢٢٧٥ ـ الرمز البريدي ١٠١٠٤ ـ حي الرياض ـ الرباط، المغرب ـ هاتف: ٣٧٧١٥٢٩٤ ـ ناسوخ: ٣٧٧٧٢٠٥٨



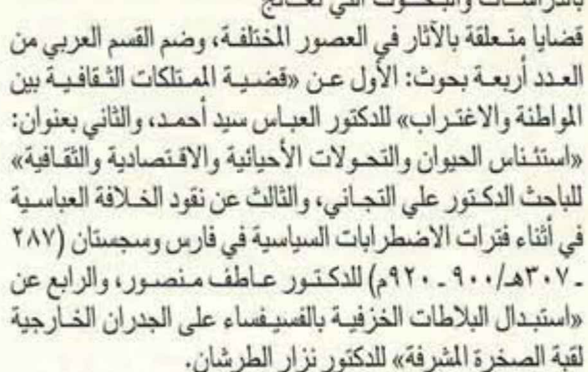
العدل
(س٣، ع١١، رجب ١٤٢٢هـ)

مجلة فصلية علمية محكمة تعنى بشؤون الفقه والقضاء وتصدر عن وزارة العدل بالمملكة العربية السعودية.

جاء هذا العدد من المجلة مشتملاً على عدد من البحوث والدراسات الفقهية، فقد قدم الدكتور ناصر الميمان بحثًا بعنوان «التلفيق في الاجتهاد والتقليد»، وكتب راشد آل حفيظ عن الرجوع عن الإقرار بما يوجب حداً، وناقش عبداللطيف الغامدي الستر في القضايا الجنائية: مفهومه، حكمه، صوره، ضوابطه، وتناول الدكتور حسن بن عبده العسيري الشبهات التي تثار حول تطبيق عقوبة الجلد فقهاً وسياسة والرد عليها.

وكتب الشيخ إبراهيم القري عن تولي طرفي العقد في الفقه الإسلامي، وقدم الشيخ عبدالعزيز بن محمد الرضيمان بحثًا عن النكول عن اليمين وأثره في القضاء، إضافة إلى الأبواب الثابتة مثل: وسائل علمية من إعداد المعهد العالي للقضاء، وإجراءات قضائية، وأحكام وقضايا، ومن أعلام القضاء الشيخ سليمان بن عبيد العبيد، ولقاء العدد مع الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله العجلان، وصدى العدل، وهي موسوعة تعنى بالتوعية القضائية، وتلقي الضوء على مناشط وزارة العدل وإنجازاتها.

العنوان: وزارة العدل ـ الرياض ١١١٣٧ ـ هاتف وناسوخ: ٤٠٢٣٣٦٥/٤٠٥٩٧١٦.



آدوماتو
(ع ٤، ربيع الثاني ١٤٢٢هـ ـ يوليو / تموز ٢٠٠١م)

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بآثار الوطن العربي، وتصدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية.

وقد جاء هذا العدد حافلاً بالدراسات والبحوث التي تعالج قضايا متعلقة بالآثار في العصور المختلفة، وضم القسم العربي من العدد أربعة بحوث: الأول عن «قضية الممتلكات الثقافية بين المواطنة والاغتراب» للدكتور العباس سيد أحمد، والثاني بعنوان: «استئناس الحيوان والتحولات الأحيائية والاقتصادية والثقافية» للباحث الدكتور علي التجاني، والثالث عن نقود الخلافة العباسية في أثناء فترات الاضطرابات السياسية في فارس وسجستان (٢٨٧ ـ ٣٠٧هـ/٩٠٠ ـ ٩٢٠م) للدكتور عاطف منصور، والرابع عن «استبدال البلاطات الخزفية بالفسيفساء على الجدران الخارجية لقبة الصخرة المشرفة» للدكتور نزار الطرشان.

كما احتوى العدد على ثلاثة بحوث باللغة الإنجليزية، جاء الأول بعنوان: «نابونيدس في الجزيرة العربية: إعادة تقييم» للدكتور حسن السعدي، والثاني عن «الآثار النبطية من خلال الصور الجوية» للدكتور حمد القطامين، والدكتور ديفيد كيندي، والثالث بعنوان «حجارة التماثيل الملكية في حضارة وادي الرافدين هل جلبت من عمان»؟ للباحثين الدكتور باول يولي، والدكتور أ. غوبا.

كما اشتمل العدد على أبواب ثابتة، كعرض المجلات والكتب الآثارية، وتقارير عن المؤتمرات والندوات العلمية المتعلقة بآثار الوطن العربي.

العنوان: مجلة آدماتو ـ ص.ب ١٠٠٧١ الرياض ١١٤٣٣
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٠٣٦٧٨٠/ ٤٠٣٤٧٥١ ـ ناسوخ: ٤٠٢٢٥٤٥

عاشقة البادية ميسون البَحْدَليَّة

محمد العيد الخطراوي
المدينة المنورة - السعودية

البدو، والبادية، والبَدَاوَة، والبداوة والبِدَاة - كما جاء في اللسان - : خلاف الحضَر. والقياس في النسب إليه: بَداوي - بفتح الباء وكسرها - وأما بدويّ فشاذ، رغم شيوعه في الاستعمال.

والبَدْوُ أيضًا: مصدر بدا يبدو، أي خرج وبرز وظهر، فالبرّيّة بادية، وذلك لبروزها وظهورها، وبدا القوم بدْوًا، وبداء، أي خرجوا إلى باديتهم.

ونطلق البادية على الأرض التي لا حضَر فيها، وأيضًا على القوم الذين ينزلون فيها، والجمع فيها: بواد.

وتبدّى الرجل: أقام بالبادية. وفي الأثر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتبدى في عامه اليوم واليومين ونحو ذلك، وينصح به، لما فيه من مردود نفسي، ونفع جسمي وعقلي. وفي الحديث أيضًا أنه صلى الله عليه وسلم: «كان إذا اهتم لشيء بدا»، أي خرج إلى البادية. قال ابن الأثير (ت:٦٠٦هـ) في كتابه: «النهاية»: يُشبه أن يكون يفعل ذلك ليبْعُد عن الناس، ويخلو بنفسه.

واسم الفاعل من (بدا): باد، وجمعها: بادون. قال تعالى: *وإنْ يَأْتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لو أنَّهُمْ بادُونَ في الأعْرابِ*. **الأحزاب**:٢٠. ويكسّر على (بُدّ، وبُدّاء)، قال أبو منصور: البادية خلاف الحاضرة. والحاضرة: القومُ الذين يحضُرون المياه وينزلون عليها في حمراء القيظ...إلخ.

فالبداوة إذن على هذا النحو حالة، وليست جنسًا، كما يتوهم بعض الناس أو يصرون عليه، فأنا بدويّ ما لم أسكن قرية أو استقر بمدينة أو أرتبط بأرض ما بصفة دائمة، وقد كان إخوة يوسف عليه السلام بدوًا، ثم تحضروا، وزالت عنهم تلك الصفة، قال تعالى على لسان يوسف: *وقَدْ أحسَنَ بِي إذْ أخرجَنِي من السجنِ وجاءَ بِكُم من البَدْوِ*. **يوسف**:١٠٠.

والبدوي معتدّ بنفسه إلى درجة الغلو، بحيث قد لا يرى غيره شيئًا، وذلك في جميع الشعوب، يقول القطاميّ (ت نحو ١٣٠هـ):

فمَنْ تكن الحضارة أعجبته
فأيَّ رجال بادية ترانا؟

ومرض أعرابي فقيل له: ما تشتهي؟ فقال: أشتهي محضًا رويًا، وضبًا مشويًا. (المحض: اللبن). وجاء في كتاب «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي المتوفى نحو ٤٠٠هـ (٢٤٣/٤): «قيل لأعرابي: ما تصنع بالبادية إذا اشتد القيظ وحمي، ومتَع الحرّ؟ (يقال: متع النهار والضحى: أي بلغ غاية ارتفاعه، وهو ما قبل الزوال). قال: يمشي أحدنا ميلاً، حتى يرفضّ عرقًا، ثم يصيب عصاة، ويلقي عليها كساءه، ويجلس في فيئه يكتال الريح، فكأنه في إيوان كسرى».

وقالت أعرابية لبنات عم لها «العقد الفريد (٥٢/٤)»: «السعيدة منكن من يتزوجها ابن عمها، فيمهرُها بتيسين، وكلبين، وعيرين، ورحيين. فينبُّ التيسان، وينهق العيران، وينبح الكلبان، وتدور الرحيان، فيعجّ الوادي. والشقيّةُ منكن من يتزوجها الحضري، فيكسوها الحرير، ويطعمها الخمير ويحملها يوم الزفاف على عود».

و(ينبّ: يصيح عند هياجه للسفاد. الخمير: الخبز المخمّر عجينه. على عود: تعني إكافًا أو سرجًا وليس رحلاً).

وقد أفاد مدونو اللغة من هؤلاء الأعراب، ومن أفواههم جمعت اللغة والأشعار، وكان هؤلاء المدونون يهتمون كثيرًا بالتفريق بين أعرابي حافظ على أعرابيته، وآخر خلط بداوته بشيء من التحضر، أو قطع علاقته نهائيًا بالبداوة، وذلك فيما يأخذون أو يذرون من شؤون اللغة، ولهذا نجد في تراجم بعض مشاهير الأعراب: أنه ممن دخل الحاضرة، أو أنه ممن لم يدخلها ولا غشيها، فيعلي ذلك من مكانته في الأخذ عنه أو ينقص، ومثال ذلك:

١- أبو الدقيش القناني، الغنوي، الكلابي. قال في «إنباه الرواة ١٢١/٤»: «عدّه القفطي من الأعراب الذين دخلوا الحاضرة، وأخذ عنه النضر بن شميل، ويونس بن حبيب».

٢- زيد بن كثْوة المزني: من الأعراب الذين قدموا البصرة، وظلوا على فصاحتهم وذلاقة ألسنتهم، وكان من الشعراء المقلين «البيان والتبيين ٩/٤».

وفي العصر الحديث نرى الباحثين يقسمون المجتمعات إلى ثلاثة أنواع هي: المجتمع الرعوي، والمجتمع الزراعي، والمجتمع التجاري. وفي الدراسات الاجتماعية تصادفنا ثلاثة فروع هي: علم الاجتماع البدوي، وعلم الاجتماع الريفي، وعلم الاجتماع الحضري. ولكل نوع من هذه الأنواع خصائصه ومقوماته.

والبدوي - على كل حال - في جوانبه الإيجابية شجاع كريم نبيل، سريع إلى النجدة، فيه طيبة قد تصل أحيانًا إلى درجة الغفلة، إذا ما قيست إلى حيل أهل الحاضرة، لكنها غفلة نابعة في حقيقتها من صفاء قلبه، ونقاء سريرته، ولذا فهو يعاني كثيرًا إذا ما نزل وحيدًا إلى الحواضر، وقد يضيع ضيعة لا رجعة فيها، وهذا النموذج قد تمثله قصيدة الشاعر بشارة الخوري: (المسلول)، التي مطلعها:

حسناءُ أيّ فتى رأت تصِد
قتلى الهوى فيها بلا عددِ
بصُرتْ به رثّ الثياب بلا
مأوى، بلا أهل، بلا بلدِ
فتخيّرته، وكان شافعَه
لطفُ الغزال، وقوةُ الأسدِ

وصاحبتنا عاشقة البادية هذه التي عنّينا نفسنا بالكتابة عنها، من أروع ما يمثل الصدمة الاجتماعية التي تصيب من ينتقل من البادية إلى الحاضرة. هي ميسون بنت بحْدَل بن أنيف بن دلجة البحدلية، الكلبية، زوجة الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وأم ابنه (يزيد). وُلدت بالبادية، وترعرعت فيها، وورثت محامدها وما فيها من حرية وانطلاق، وسلوك تحكمه البساطة والنقاء، رآها معاوية ذات مرة، فانبهر لجمالها، وخطبها إلى أهلها، فزوجوه إياها فرحين مستبشرين، وأحسن معاوية معاشرتها، وأكرمها وأكرم أهلها بما يليق به بوصفه خليفة، وأسكنها قصرًا مشرفًا على غوطة

دمشق، مزين بشتى الزخارف والأسجاف، ومن حولها كانت تطوف الجواري والوصائف.. يخدمنها ويقضين حوائجها، ويقمن على شؤونها، ويضعن بين يديها كل وسائل التمدن والحضارة، ومع ذلك كله ظلت بدوية في داخلها، تحن إلى باديتها في نجد، وتضيق بكل مظاهر الحضارة والتمدن، وكان حبها للحياة البدوية يطغى على كل شيء، وكما قيل: (حبك الشيء يعمي ويصمي)، وينطبق عليها قول البوصيري:

محضته النصح، لكن ليس يسمعه
إن المحب عن العذال في صمم

دخل عليها معاوية ذات يوم صحبة خصيٍّ له جلبه لخدمتها، فلما رأته استترت فقال لها: لم تفعلين ذلك؟ فإنه لمجبوبٌ. فقالت: يا أمير المؤمنين: إن مثلتك به «تحلّ له مما حرّم الله شيئاً». «الفاضل للوشاء، ص٢١٧».

فلننظر من خلال هذا الحوار إلى رجاحة عقلها، وسجاحة فكرها، وعلو أدبها في الخطاب، ورباطة قلبها في الرد على زوجها الذي هو أمير المؤمنين، مما يؤكد أن رفضها لحياة المدينة ناشئ عن ولهها وعشقها لحياة البادية، وفق مقاييس هي وضعتها وآمنت بها، ولن تتحول عنها، وليست بالتافهة ولا المتخلفة التي تجهل ما في التحضر من رفاهية ورخاء عيش، كيف؟ لكي يعمر الكون فكل حزب بما لديهم فرحون، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وتنفست ميسون الصعداء ذات ليلة بهذه الأبيات، كاشفة عن عشقها لباديتها، موازنة بين حياتها الماضية، وحياتها الحاضرة، وهي تعتقد أنها خالية بحيث لا يسمعها ولا يراها أحد، قالت:

لبيتٌ تخفق الأرواح فيه
أحبُّ إليّ من قصر مُنيفِ
ولُبْس عباءة وتقرّ عيني
أحبُّ إليّ من لُبس الشُّفوف
وأكل كُسيْرةٍ في كِسْر بيتي
أحبُّ إليّ من أكل الرغيف
وأصواتَ الرياح بكل فجّ
أحبُّ إليّ من نقر الدفوف
وكلبٌ ينبح الطُّرّاق دوني
أحبّ إليّ من قطّ ألوف
وبَكرٌ يَتْبع الأظعان، صَعْبٌ
أحبُّ إليّ من بغلٍ زَفوف
وخِرْقٌ من بني عمّي مخيفٌ
أحبّ إلي من علج عَنُوف

(الشُّفوف: جمع الشفّ، وهو الثوب أو السِّتْر الرقيق يُتبيّن ما وراء بمجرد النظر، وذلك لتمام رقة نسجه.

الكِسر: جانب البيت، والناحية من كل شيء. والكُسيرة: مصغر الكِسْرة. وهي القطعة المكسورة من الشيء، والمقصود هنا القطعة من الخبز، البَكْر: الفتيُّ من الإبل. الصَّعْب: العسِرُ والأبيّ، جمعه صعاب، الزَّفوف: السريع. الخِرق: الفتى الظريف في سماحة ونجدة. العِلْج: الجافي الشديد من الرجال، ومن الحمُر الوحشية: سمينها: العَنُوف: أورد اللسان والوسيط: العنيف، قالوا: وهو الشديد القاسي). وكان معاوية يسمعها من حيث لا تدري، فغضب لذلك واشتدت ثورته، وقال: ما رضيتِ ابنة بحدل حتى جعلتني علجاً عنوفاً، هي طالق ثلاثاً، مُروها فلتأخذ جميع ما في القصر، فهو لها. ثم سيّرها إلى أهلها بنجد، وكانت حاملاً بيزيد، فولدته بالبادية، وأرضعته سنتين، ثم أخذه معاوية بعد ذلك منها، ولم يعجل بأخذه منها، ربما لأن العرب الحضر كانوا يرون للإرضاع في البادية أهمية خاصة تتصل بالعقول والأجسام، وقد أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حليمة السعدية.

والأبيات على ما فيها من سمات النحل والوضع بدافع الهجوم على معاوية وابنه يزيد، فإن كتب النحو تلقت بعض أبياتها - على الأقل - بالقبول، فلذلك استشهدوا بالبيت الأول على دخول لام الابتداء على المبتدأ، وبالبيت الثاني على موضوع ورود الفعل المضارع منصوباً بأن مضمرة جوازاً بعد واو المعية، عطفاً على اسم صريح، ليس هو في تأويل الفعل، وهو هنا (لُبس) أما الفعل المنصوب فهو: (وتقرَّ). ولعل من أدلة الوضع كون الأبيات سبعة، فعل ذلك الواضع ليفيد من دلالات الرقم سبعة في الثقافة العربية والكونية.

وقد حرصت الشاعرة أن تتم المقارنة بين البيئتين في كل بيت، فالصدر للبيئة البدوية، والعجزُ للبيئة الحضرية، ولعل هذا الترتيب الذكري جاء نتيجة حضور البيئة البدوية في ذهنها حضوراً حاداً، أو لكونها الأولى في الترتيب الوجودي والطبيعي، والأبيات مثلٌ حيّ لنفور البدوي من قيود الحاضرة وتبعاتها، وعشقه لحياته البدوية، واعتزازه بها إلى حد رفض ما عداها، ولعل إصرار الشاعرة على استعمال اسم التفضيل، يؤكد هذا الموقف الحاسم ويقويه.

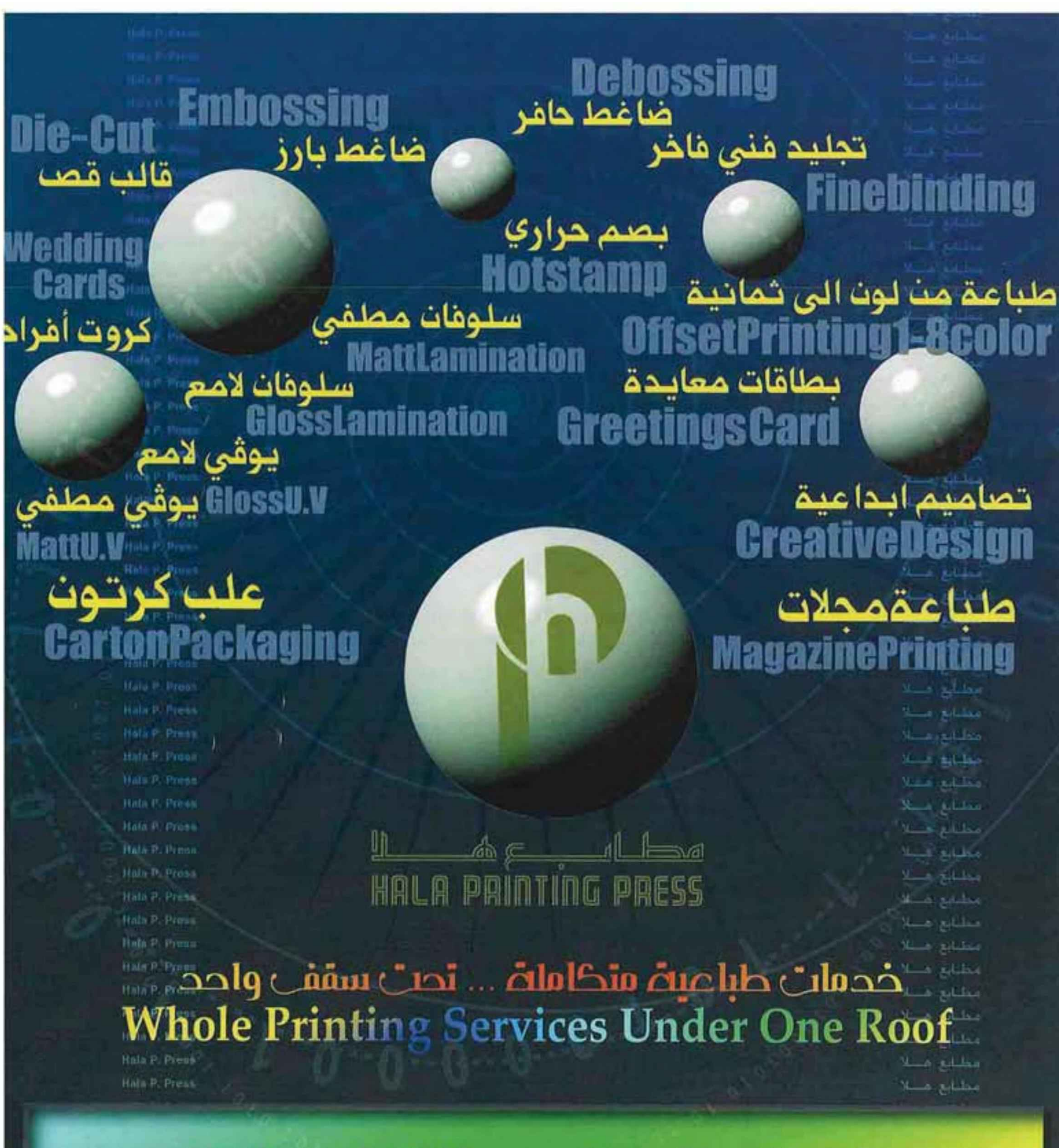
ولعلنا نلحظ أن الأعجاز في الأبيات مقيدة الحركة، ضيقة المجال، فجميعها على النحو التالي:

(اسم تفضيل مجرد من أل والإضافة + إليّ + اسم ثلاثي على وزن ساكن العين، مضاف + مضاف إليه معرّف ثلاث مرات، ومنكّر أربع مرات).

كأن الشاعرة بهذه البنية تعرض علينا ما تعانيه وتكابده من قيود، وحياة تسير على وتيرة واحدة، وعبر قوالب لا تتغيّر، ولا تحيد عنها، تلكم هي حياة القصر، المليئة بالحشم والخدم، والركود والجمود. وعلى نقيض ذلك تعيش صدور الأبيات حالة حركة دائمة، تعبر عنها هذه الأوضاع النحوية المختلفة التراكيب، وكأنها تقدم من خلال ذلك صورة لانطلاق بيئتها البدوية، وانطلاق مشاعرها من ورائها، ولعمري إن ذلك مظهر من مظاهر الصدق الفني الذي تتميز به هذه الأبيات، وأحد تجليات الوفاق الإيقاعي بين ما نريد، وبين ما استطعنا تحقيقه مما نريد، بالإضافة إلى المشاهد التوائية هنا وهناك، من البيئتين، والمحدثة بتوائبها حالة من التقابل، ووضعاً من النبض المتلاحق، الذي يمكن توضيحه على اللوحة الآتية:

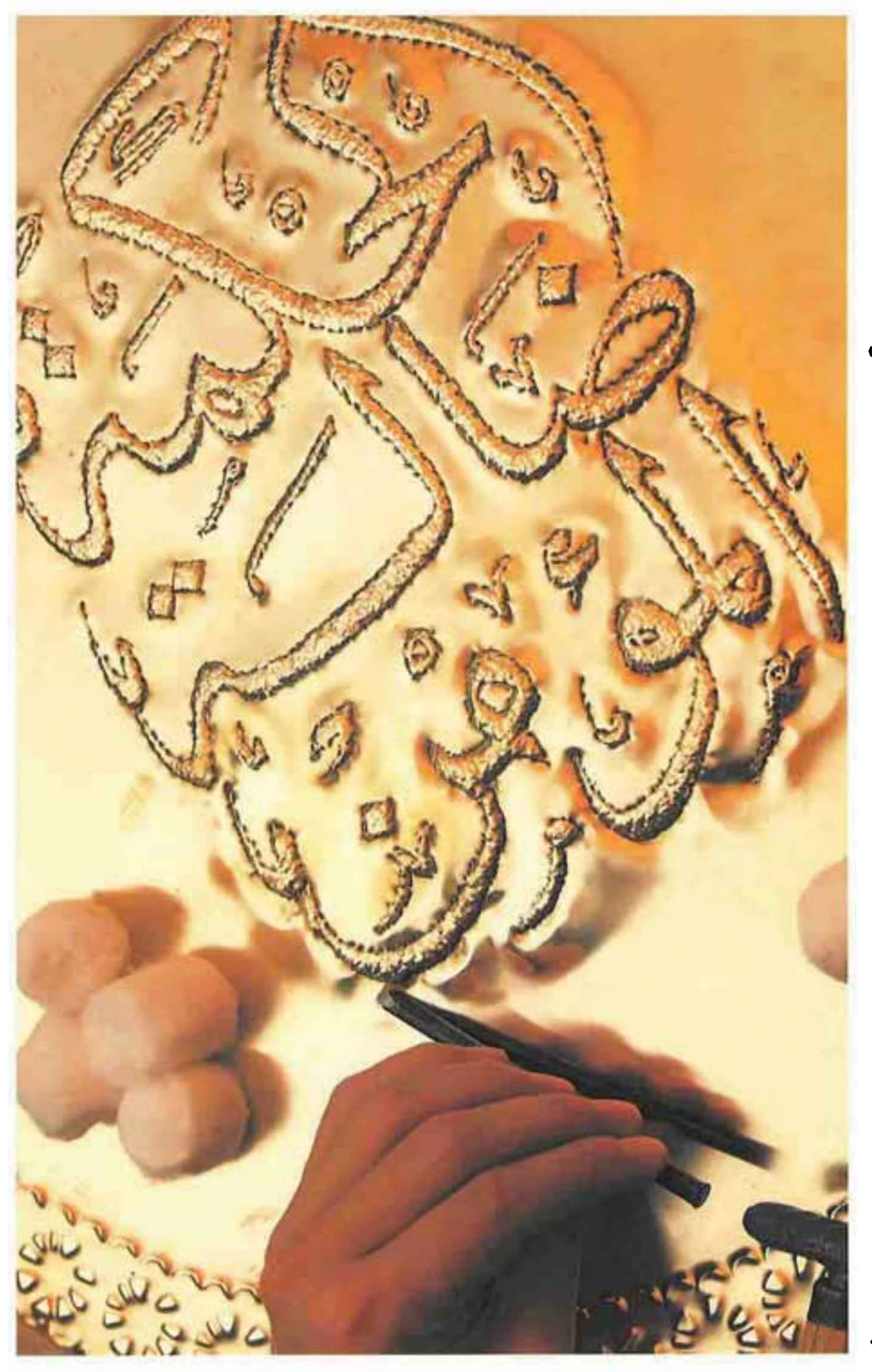
الأرواح ⟷ القصر المنيف
العباءة ⟷ الشُّفوف
الكُسيرة ⟷ الرغيف
الرياح ⟷ الدُّفوف
الكلب ⟷ القط
البكر والأظعان ⟷ البغل الزَّفوف
الخِرق النحيف ⟷ العلج العنوف

ومن خلال هذا التواصل المكوكي بين الصدور والأعجاز تتألف دائرة الحياة، ومسارات الكون طرداً وعكساً، وتتوازن أنباض الحياة، ويتحدد الفقر والغنى، والبداوة والحضارة، وربما الخير والشر، والموت والحياة، ومنه أيضاً يزداد ولع هذه البدوية بباديتها وبداوتها، وتغرينا معها بالتبدي، فهل نقوى على شيء من الرجوع إلى الأصل، في توازن مع المستحدث والحديث؟



المملكة العربية السعودية - ص.ب ٥٥٠١٩ الرياض ١١٥٣٤
هاتف : ٩٦٦١ ٤٨٢ ١٣١٣++ فاكس : ٩٦٦١ ٤٨٢ ٩٦٢٠++
موقعنا على الانترنت http : www.halaprintpack.com

Kingdom of Saudi Arabia - P.O.Box 55019 Riyadh 11534
Tel.: ++966 1 482 1313 Fax : ++966 1 482 9620
http : www.halaprintpack.com



قيم نبيلة سامية، وتقاليد عريقة راسخة

من نبع تراثنا الأصيل، كانت وماتزال المعين

الذي لا ينضب لمسيرة هذا الوطن.

استلهمنا منها أعمالنا واتخذناها منهاجاً

وعلى طريقها القويم تابعنا مسيرة النجاح .

اليو م وفي المستقبل، سنبقى أوفياء لقيمنا

الأصيلة متمسكين بها ملتزمين بنهجها

لتبقى دائماً الأساس المتين لنجاحنا المستمر .

نعتزّ بقيمنا

شركة الراجحي المصرفية للاستثمار
AL RAJHI BANKING & INVESTMENT CORP.